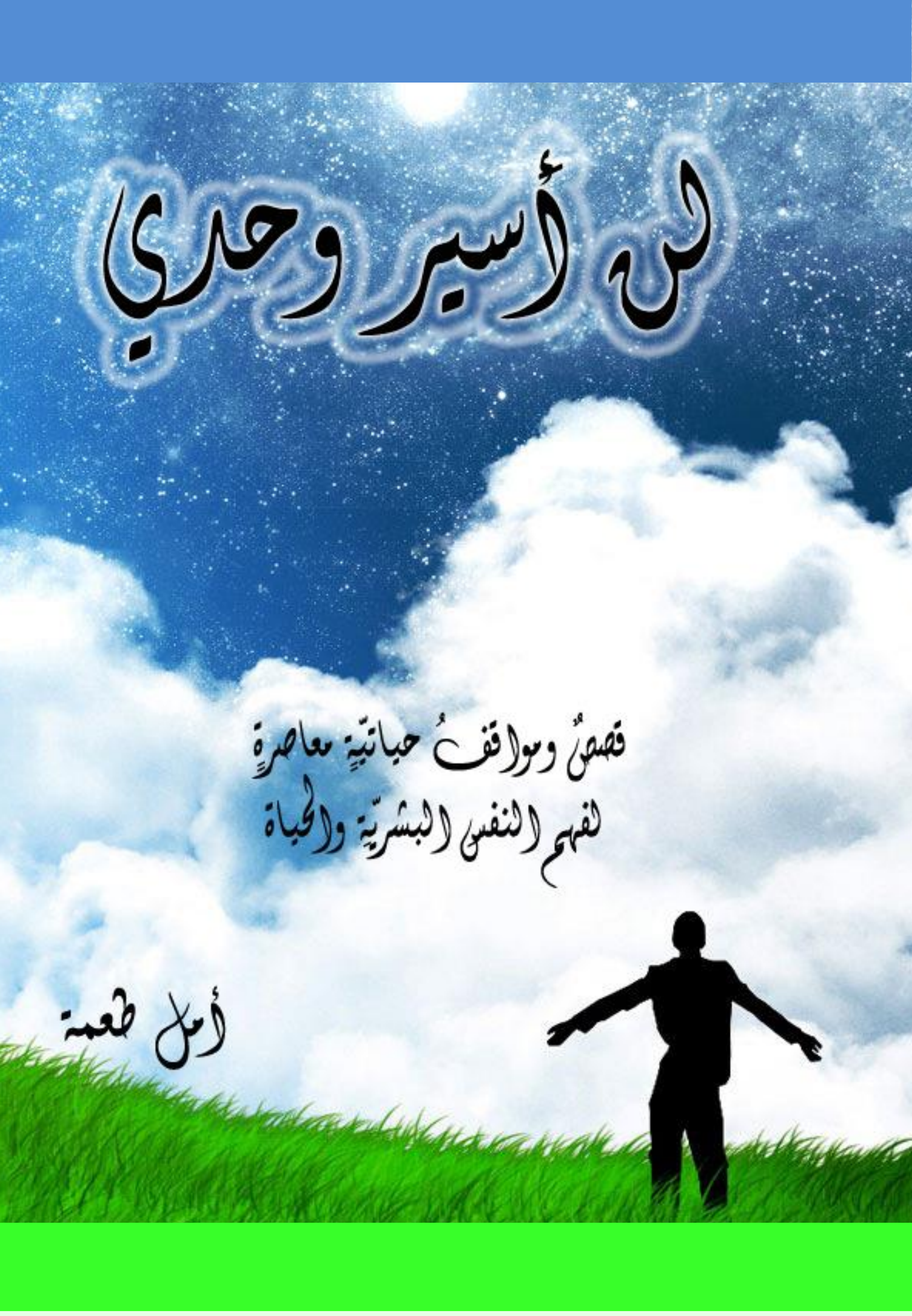

لن أسير وحدي
قصصٌ ومواقفُ حياتيّةٍ معاصرةٍ
لفهم النفس البشريّة والحياة
أمل طعمة

لن أسير وحدي!

قصصٌ ومواقفُ حياتيّةٍ تربويّةٍ

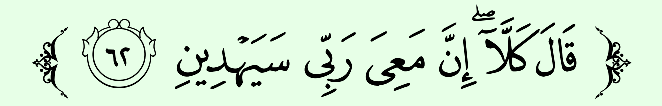
لفهمٍ أعمقَ وأوضحَ لمرحلةِ الشبابِ المراهقةِ

والنفسِ البشريّة

تأليف: أمل طعمة


نسخة الكترونية للقراءة
وليست للطباعة والنشر

بسمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيم



الشعراء: ٦٢

﴿ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ۝١٤ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥ ﴾

سورة القيامة

﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣ ﴾

سورة العصر

قِيل : "مَن عرفَ نفسهُ فقد عرفَ ربّه"

حبٌ ووفاء

إلى الذي دلّني عليه قبلَ أنْ أعرفه، ومدَّ إليَّ بساطَ الحبِّ فاتّجه قلبي إليه.

إلى صاحبِ الأمرِ والفضلِ، إلى الحبيبِ الباقي، والمؤنسِ الخالد، إلى سيّدي ومولايَ وخالقيَ الذي إليهِ مآلي ومصيري.

إلى صاحبِ اليدِ البيضاءِ في معرفةِ ربِّ العبادِ، إلى الذي علّمَنا معانيَ الحبِّ والوفاءِ، ودلَّنا على طريقِ الحقِّ والخير، وألهمَنا طرقَ معرفةِ النفسِ ومداخلَها، وقيادتَها وتفعيلَ طاقاتِها... إليك سيدي رسول الله ﷺ .

إلى كلِّ مَنْ أشعلَ فيَّ حبَّ اللهِ ومعرفتَهُ، ووضعَ علاماتِ الطريقِ ومصابيحَها وسطَ غياهبِ الظلامِ وثقلِ الواقع.

إلى مَنْ كانا سبباً لوجودي، وبصبرِهما وعطائِهما سطّرْتُ كلماتِ العطاءِ والوفاء.

وأخصُّ رفيقةَ دربي، والسندَ المتينَ في مسيرةِ حياتي، ودفعي في طريق الحق والخير، إلى من كانت لمساتُها الحانيةُ معيناً ومؤازراً في ظهور هذا الكتاب، وكانت كلماتُها العطرةُ مسلّياً وأنيساً... إليك أمي.

إلى كلِّ مَنْ لهَ فضلٌ عليّ، في مددٍ ماديٍّ أو روحيّ، وكانَ لعبرَاتهِ دفءٌ ودفعٌ، ولدعائهِ أثرٌ وفعل.

إلى كلِّ حائرٍ يريدُ أنْ يسبرَ أغوارَ نفسِهِ، ليقودَها نحوَ معالمِ العُلا والسعادة.

إليكم جميعاً أهدي ...

بسمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيم

لماذا " لن أسيرَ وحدي " !

في ليلةٍ شديدةٍ البرودةِ، اكتسَتْ حلّتُها لوناً رماديّاً حتّى قاربَ السوادَ، بلا رفيقٍ، ولا مؤنسٍ.

يلوحُ منْ بعيدٍ ضوءٌ خافتٌ، يتسلّلُ الدفءُ عبرَ مساراتهِ المضيْئةِ، حاملاً عبرَ ذرّاتهِ غبارَ الأملِ والتفاؤلِ، مُعيداً القوّةَ في جسدِ الحياةِ، والحنانَ إلى مداخلِ القلبِ، ونورَ المعرفةِ في خلايا العقل.

فتنشطُ الجوارحُ، وتسيرُ بخطواتٍ واضحةِ المعالمِ، وتتبدّلُ وحدةُ الطريقِ ليزدحمَ أفراداً وجماعات.

فقد بدّدَ النورُ والمعرفةُ ظلامَ الليلِ، وغيّرتِ الروحُ الجديدةُ طريقَ الوحشة، وغدا الباحثُ عن رفيقِ دربٍ، قائداً للسربِ! وأمسى المذعورُ منَ الخوفِ، قوياً يلوذُ بهِ الرفاقُ والأغرابُ.

لقد تبدّلتِ الهيئةُ، وتغيّرتِ الأفعالُ.

وإذا النفسُ غيرُ التي كانتْ، والجسدُ لم يُمَيّزْ شكلَهُ ورسمَهُ!

كيفَ تبدّلَ كلُّ ذلك!

هذا الكتابُ يجيبُك!

فما أجملَ أنْ تشرقَ شمسُ المعرفةِ بعدَ ظلامِ الجهل!

وما أروعَ أنْ يُدركَ الإنسانُ نفسَه، ويسيرَ في الحياةِ، واثقَ الخُطا، يعرفُ الطريقَ ويتوقّعُ العقباتِ، فيُجانِبُها ويتجاوزُها بثقةِ العارفِ العالمِ!

ما أحلى الحياةَ لو وجدَتْ يداً ممتدّةً إليك، تكونُ معكَ، تُسّرُ إليكَ النصائحَ، وتجيبُ عن تساؤلاتِك، ولا تستغربُ مِنْ غرابَتِها!

كنتُ قد وعدتُ نفسيَ أنْ أسطّرَ كتاباً عندما أغدو في سنِّ النضجِ، وأجيبَ عنْ جميعِ الأسئلةِ التي كانَتْ تتقاذفُ قلبي وعقلي خلالَ رحلةِ شبابي في هذهِ الحياة!

هذا هو الدافعُ الحقيقيُّ وراءَ هذا الكتابِ، وقد آنَ لي أنْ أفيَ بوعدي.

فمرحلةُ الشبابِ أو ما تُسمّى "المراهقة"، هي فترةُ الانتقالِ من الطفولةِ إلى الشباب، ولهذهِ المرحلةِ أسرارُها وتساؤُلاتُها ومشاكلُها، فإنِ استطاعَ الشابُّ أو الفتاةُ المرورَ منها بسلام، وتمكّنَ من رسمِ صورةٍ واضحةِ المعالمِ للكونِ والحياة، ومعالمَ لنفسهِ وشخصيّته، وتعرّفَ على قوانينِها وعرفَ نفسَه، عندئذٍ

يكونُ قد وضعَ قدمَهُ على أوّلِ خطواتِ النجاح في الدنيا والفوزِ بالآخرة.

أمّا السببُ الثاني لهذا الكتّابِ هو أنّي لم أجدْ في المكتبةِ الإسلاميّةِ مَنْ يخاطبُ هذهِ الفئةَ، فالكتبُ الموجودةُ إمّا تخاطبُ الأقلَّ أو الأكبرَ منهُ سنّاً ، وكأنَّ هذهِ المرحلةَ الهامّةَ قد أجدبَتْ ممّنْ يكتبُ عنها رغمَ أهمّيّتِها، فإنْ أفلحَتِ الكتبُ بالتحدّثِ عنها، فهيَ تخاطبُ الأمَّ أو المربّي أو الطالبَ الجامعيَّ في كلّيّةِ علمِ النفسِ، ليتعرّفَ طبيعتَها ويكتشفَ مشكلاتِها ويساهمَ في حلّها، وهذا جيّدٌ وضروريٌّ، لكنّنا بحاجةٍ إلى أنْ ننصتَ إليهم ويسمعُوا منّا لتتمَّ عمليّةُ التواصلِ الصحيحِ الذي يجنّبُهم الزللَ ويبعدُهم عن بدءِ حياتِهم بخطواتٍ عرجاءَ قد توصلُهم لتجارِبِ فشلٍ! فإنّهم إنْ حالفَهمُ الحظُّ وأدركُوا مفاتيحَ التغييرِ وفهمِ ذاتِهم وقوانينَ الحياةِ نجَوا، وأفلحُوا، وإن تلعثمَت خطواتُهم من فشلٍ إلى آخر فقد يقَعونَ فريسةَ

الإحباطِ واليأسِ وربّما يكونُ مآلُهم إلى مهاوٍ لا تُحمَدُ عُقباها.

إنّها محاولةٌ لأساعدَ الشابَّ أو الفتاةَ يداً بيد، وفكراً بفكر، وخطوةً بخطوة، لنسيرَ معاً على الطريقِ، برؤيةٍ واضحةٍ، ونظرٍ ثاقبٍ عارفٍ بمفاوزِ الحياةِ، سابرٍ لأغوارِها وقوانينِها، يعرفُ قدرَ نفسِهِ ويُدرِكُ قدراتِهِ التي وهبَها اللهُ له، فيضعُها في محالِّها المناسبةِ، ويسيرُ بها نحو رفعةِ مجتمعِهِ ونهضتِهِ، يجمعُ بينَ العلمِ الحديثِ والقرآنِ العظيمِ، يزاوجُ بينَ النجاح في الدنيا لأنّهُ يملكُ علومَها ومهاراتِ النجاحِ فيها، وبينَ الفوزِ بنعيمِ الآخرةِ وسعادتِها لأنّهُ موصولٌ بربِّ السماءِ والأرضِ؛ فيسيرُ في الأرضِ عالماً بأسبابِها، وقلبُهُ متطلّعٌ إلى ربِّ الأسبابِ، عارفٌ بقوانينِهِ وشرعِهِ الحقِّ المُبين.

هذا الكتابُ حتّى لا تسيرَ وحدَكَ أيّها الشابُّ والفتاة.

حاولتُ أنْ أعرِضَ في الكتابِ أغلبَ الأسئلةِ التي كانتْ تلّحُ

عليَّ عندما كنْتُ في هذا العمر، وكنْتُ أتمنّى لو أجدُ منْ يجيبُ عنها أو أشرحُ له مشاعري وخواطري دونَ خوفٍ مِنْ سخريةٍ أو استغرابٍ، وكذلكَ مِن خلالِ خبرتي في التعليمِ لهذهِ المرحلةِ ومنَ الأسئلةِ والنقاشاتِ التي كانتْ تحدثُ بيني وبينَ طالباتي، فسجّلتُها في ذاكرتي حتّى سنحَتْ لي الفرصةُ لأقدّمَها لكم، عسى أنْ أوفّرَ عنكم بعضاً مِنَ الوقتِ والتعبِ، فأضعَ بينَ أيديكم زبدةَ الخبرةِ النفسيّةِ والعمليّةِ والدينيّة.

أسألُ اللهَ أنْ يكونَ قد وفّقَني لذلك، وأخذْتُ بيدِكم حتّى لا تسيروا وحدَكم، وكشفْتُ لكم الطريقَ كي تمشُوا على بصيرةٍ، وتحقّقوا أهدافَكم وغايتَكم في الحياةِ.

وقد سلكْتُ في الكتابِ طريقةً حواريّةً قصصيّةً لمجموعةٍ مِنَ المواقفِ المنفصلةِ، تحدثُ لفتاةٍ في المدرسةِ والبيتِ، ومنْ خلالِها تصلُ إلى فهمِ ذاتِها والكونِ وقوانينِ الحياةِ والتغييرِ،

وإدراكٍ لطبيعةِ النفسِ البشريّةِ مستمِدّةً ذلك مِنَ العلمِ الحديثِ في علمِ النفسِ والشخصيّةِ ومقاييسِها، ومِنَ القرآنِ الكريمِ وعلمِ النفسِ الإسلاميّ، ومِنَ العلومِ الحديثةِ في تنميةِ مهاراتِ التفكيرِ واتخاذِ القرارِ وحلِّ المشكلات.

وقد عرضْتُ خلالَ تلكَ المواقفِ مشكلاتٍ يوميّةً حياتيّةً، مدرسيّةً ومنزليّة، يُستخلَصُ مِنْ خلالِها المعرفةُ والخبرةُ، وتفتحُ آفاقَ الأسئلةِ والعلمِ.

و رغمَ أنَّ بطلةَ الكتابِ فتاةٌ، إلا أنَّ كثيراً مِنَ الأسئلةِ والمواقفِ تتشابهُ مع الشابِّ أيضاً، وقد يختلفانِ في بعضِ الاهتماماتِ والسماتِ؛ فالفتاةُ أميَلُ إلى التفكيرِ العاطفيّ مِنَ الشابِّ، لكنّهما في هذهِ المرحلةِ متقاربانِ نوعاً ما في مستوى النضجِ الفكريّ والانفعاليّ، فبالرغمِ مِنْ كونِ الشابِّ أكثرَ جرأةً واستقلالاً، لكنّهما يلتقيانِ في طبيعةِ النفسِ البشريّةِ

وطرقِ تغييرِها وإصلاحِها، وفي أسئلةِ الكونِ وقوانينِ الحياة؛ كما أنَّ سماتِ هذهِ المرحلةِ ذاتها، فكلاهُما ينتقلانِ مِنَ الطفولةِ إلى الشبابِ والمسؤوليّةِ، ويتعرّضانِ لمفاوزِ النفسِ وأسئلتِها الحائرةِ في فهمِ ذاتِها ومعرفةِ نقاطِ ضعفِها وقوّتِها، واكتشافِ طرقِ النجاحِ في الحياةِ.

نسألُ اللهَ التوفيقَ والقبولَ والنفعَ منهُ، وأنْ يجعلَهُ عملاً صالحاً متقبّلاً عندَه ثقيلاً في الميزانِ. إنّه هو الكريمُ الرحيمُ، وعلى اللهِ قصدُ السبيلِ.

أمل طعمة

٢٠١٣/١١/١٢ الموافق ٥ / محرم /١٤٣٥

- ١ -



(معرفةُ طبيعةِ النفسِ البشريّةِ والتدربُ على قيادتِها نحوَ الرشدِ
هما مفتاحُ النجاحِ في المرحلةِ التي تسمّى "المراهقة")

يومٌ عاديٌّ مِنْ أيّامِ حياتي، لباسُ النومِ ملقىً على سريري، كتبي مبعثرةٌ على المكتبِ والطاولة.

لقد استيقظتُ كالعادةِ متكاسلةً، متململةً، ومتأخّرةً عن موعدِ مدرستي؛ لبستُ بسرعةِ البرقِ، ألقيْتُ التحيّةَ على أهلي، فانقسمَتْ شطرين، شطرٌ سمعَهُ أهلُ البيتِ والآخرُ تمتمْتُ بهِ

خارجَ المنزلِ... أخذْتُ أهرولُ حيناً وأمشي مشياً سريعاً حيناً آخرَ وعيناي لا تفارقانِ عقاربَ الساعةِ وأنا أتوسّلُ إليها أنْ تقفَ قليلاً أو تتراجعَ ولكنْ دونَ جدوى.

وصلتُ أخيراً إلى المدرسةِ مع رنّةِ الجرسِ، تسلّلتُ سريعاً إلى صفّي ومقعدي، وما هي إلا ثوانٍ حتّى ألقتِ المدرّسةُ علينا تحيّتَها المعتادةَ بابتسامةٍ خفيفةٍ ولهجةٍ شابَها الجِدُّ والحنوُّ معاً.

كانَ درساً ممتعاً أعادَ لي بعضَ نشاطيَ المفقود، وأثارَ السؤالَ الذي لا يزالُ يتردّدُ في خاطري: منْ أنا؟ وماذا أريدُ؟ وإلى أينَ سأصلُ في هذه الحياة؟

كانَتْ نماذجُ الشخصيّاتِ المتمثّلةِ بالمدرّساتِ القديراتِ ماثلةً أمامَ عينيّ، وآلافُ المقارناتِ تموجُ في عقلي وقلبي معاً، كانتْ هناكَ شخصيّاتٌ تثيرُ إعجابي وتقديري، وشخصيّاتٌ يشتاقُ قلبي لبسمةٍ ترتسمُ على وجوهِها، وأخرى أثارتْ فيَّ تساؤلاتٍ وأفكار.

هذا جزءٌ يسيرٌ مِنْ أفكاريَ المختلفةِ والمضطربةِ، وكأنّها تبحثُ عنْ شيءٍ ثمينٍ، إنّهُ ليسَ كنزاً مدفوناً في قاعِ البحارِ ينتظرُ محقّقاً أو كشّافاً ليكتشفَهُ، إنّهُ مدفونٌ في داخلي ولكنْ دونَ أنْ أدري.

أيّامٌ كثيرةٌ تمضي متشابهةً في سَمْتِها وأحداثِها، لكنَّ الأفكارَ ظلّتْ حبيسةً في داخلي تنتظرُ رُبّاناً ماهراً كي يدلَّها على كنزِها، وكنْتُ في المدرسةِ أبحثُ عنْ ذاكَ الربّان.

قرأتُ كثيراً عنْ طبيعةِ المرحلةِ العمريّةِ التي أمرُّ بها، يُقالُ عنها في علمِ النفسِ (فترةُ المراهقةِ). وأيّاً كانَ اسمُها فهي تحملُ صفاتٍ معيّنةً يمرُّ بها كلُّ إنسانٍ ويتجاوزُها إمّا بسلامٍ أو قد تُصيبُهُ بعضُ الكدوراتِ أو الآثارِ التي تظلُّ قابعةً في شخصيّتهِ.

لقد استحوذَ على فكريَ استكشافُ كلِّ ما قيلَ عنْ هذهِ المرحلةِ، ربّما لأنّي أحسُّ فيها ببعضِ الضياعِ (إنْ جازَ لي التعبيرُ بهذهِ الكلمةِ)، رغمَ أنّ مَنْ يراني يقولُ: (ما شاءَ اللهُ)

ثناءً على اتّزاني وتعقّلي، إلا أنّي أحسّ بأمواجٍ مِنَ الأفكارِ تتصارعُ، وعشراتِ المشاعرِ تعتملُ في داخلي، تُشعرني أنّي غريبةٌ في هذهِ الدنيا، وأخرى أشعرُ أنّي لا أجيدُ فهمَها أو فهمَ الناسِ مِنْ حولي. كلُّ ذلكَ يدفعُني إلى محاولةِ تحليلِ الشخصيّاتِ والأحداثِ التي أمرُّ بها، علّني أفهمُ أو أجدُ الإجاباتِ التي أبحثُ عنها.

- انتبِهْن ...

لم أُفقْ مِنْ هذهِ الخواطرِ إلا على صوتِ إحدى المدرّساتِ وهي تمرُّ بجانبي وقد لاحظَتْ شرودي، فحاولَتْ إخراجي مِنْ أفكاري بنقرةٍ خفيفةٍ على مقعدي وصوتٍ حانٍ: انتبهِْن.

بادلتُها بابتسامةٍ صغيرةٍ، واحمرَّ وجهي خجلاً، ثمَّ ركّزتُ نظري على السبّورةِ وتابعْتُ الدرسَ بانتباهٍ وبمشاركةٍ إيجابيّةٍ، محاولَةً منّي للاعتذارِ عمّا بدرَ منّي مِنْ تشتّتٍ خلالَ الدّرسِ.

انتهى الدّوامُ المدرسيّ، وكانَتْ رنّةُ الجرسِ المحبّبةُ لدى جميعِ

الطالباتِ تعلنُ لحظةَ فراقِ الرفيقاتِ وانقضاءِ يومٍ مِنَ الدراسةِ، كما يحملُ بينَ طيّاتهِ أطيافاً مِنَ الأطعمةِ التي تحلمُ كلُّ واحدةٍ منّا بتناولِها عندَ عودتِها إلى منزلِها.

ألقيتُ التحيّةَ على أمّي، وأسرعْتُ إلى المطبخ، فقد شممْتُ رائحةً أميّزُها تماماً، هي مِنْ طعاميَ المفضّل. أسرعْتُ نحو أمّي أقبّلُها وألثِمُ يدَها الحبيبةَ، وكلماتُ الشكرِ خرجَتْ متلعثمةً وأنا أدخلُ غرفتي وأجهّزُ نفسي للغداءِ.

الله!!! ما أطيبَ طعامَ أمّي ... قلتُها وأنا أستعدُّ للاستلقاءِ قليلاً في سريري بعدَ تناولِ الغداءِ. إلا أنّ أفكاري منعتني مِنَ النوم؛ تناولْتُ حاسوبيَ المحمولَ وأخذَتْ يدايَ تتلاعبُ به، باحثةً عَنْ مواضيعَ تتحدّثُ عَنِ المراهقةِ وسماتِها. توقّفتُ عندَ موقعٍ الكترونيّ يتحدّثُ عنْ معنى المراهقة:

(المراهقةُ لغويّاً مشتقّةٌ مِنْ رَهَقَ أي اقتربَ، فيكونُ معناها الاقترابُ مِنَ النضجِ والرّشدِ، أمّا في علمِ النفسِ فتعني

الاقترابَ مِنَ النضجِ الجسميّ والعقليّ والنفسيّ والاجتماعيّ.
وهذا يدلُّ على حدوثِ قفزاتٍ في النموِّ الجسديِّ وتغيّرٍ نفسيّ، فينشأُ عندَ المراهقِ نوعٌ منَ الصراعِ الناتجِ عنِ التغيّراتِ الفيزيولوجيّةِ والنفسيّةِ التي طرأَتْ عليهِ، بالإضافةِ إلى تأثّرِهِ بالخبراتِ السابقةِ التي مرّ بها في مرحلةِ الطفولةِ.
وتدلُّ التجارِبُ على أنّ النظُمَ الاجتماعيّةَ والمجتمعَ بشكلٍ عامٍ هو المسؤولُ عمّا يحدثُ مِنْ أزماتٍ للمراهقِ، فمشاكلُ المراهقةِ في المجتمعاتِ الغربيّةِ أكثرُ بكثيرٍ مِنْ نظيراتِها في المجتمعاتِ العربيّةِ والإسلاميّةِ، فالمجتمعاتُ يمكنُ أنْ تجعلَ مِنْ هذهِ المرحلةِ مرحلةً انتقاليّةً بسيطةً أو تجعلَها قاسيةً).
قلتُ في نفسي: تُرى لماذا في المجتمعاتِ العربيّةِ والإسلاميّةِ مشاكلُ المراهقةِ أقلّ؟ أهي طبيعةُ الأفكارِ السائدةِ؟ أم تأثّرُ التربيةِ العربيّةِ بأفكارِ الإسلامِ والقرآنِ؟ .... ثمّ قررْتُ متابعةَ القراءةِ:

(وقد تكونُ الصراعاتُ التي يعاني منها المراهقُ نتيجةَ الشعورِ بالحاجةِ إلى الاستقلالِ عنِ الأسرةِ أو الاعتمادِ عليها، فالمراهقُ يريدُ أنْ يشعرَ بذاتِهِ وبقدرتِهِ على الاستقلالِ وفي الوقتِ نفسِهِ هو غيرُ مستعدٍّ لذلكَ لا نفسيّاً ولا اجتماعيّاً ولا اقتصاديّاً، فإذا كانتِ الأسرةُ والمجتمعُ يعطيانِ نوعاً مِنَ المسؤوليّةِ والالتزامِ والحريّةِ ضمنَ حدودٍ مع إحاطةِ المراهقِ بالرّعايةِ والاهتمامِ فلن يشعرَ بهذا النوعِ مِنَ الصراعِ.

كذلكَ قد يشعرُ المراهقُ بصراعٍ بين مخلّفاتِ الطفولةِ مِنْ سلوكٍ ومشاعرَ وبينَ متطلّباتِ الرجولةِ أو الأنوثةِ، وكلّما كانَ هناكَ تفهّمٌ لسلوكِ المراهقِ وعدمِ معاملتِهِ كالرجلِ الكاملِ مع احترامِهِ كرجلِ المستقبلِ كانَ تجاوزُ هذا الصراعِ سهلاً وممكناً.

كما أنّ المراهقَ يعاني صراعاً بين شهواتِهِ الداخليّةِ والتقاليدِ الاجتماعيّةِ، هذا الصراعُ يمكنُ أنْ يتلاشى تدريجيّاً إذا كانَ الشابُّ أو الشابّةُ قد نشأا في بيئةٍ تبني القيمَ الأخلاقيّةَ العُليا

وتصعّدُ وترتقي بالمشاعرِ والشهواتِ، وتشغلُ وقتَ فراغهِ بما هو مفيدٍ وراقٍ، وتفرّغُ قدراتِهِ في الرياضةِ والقيامِ بأعمالٍ إنسانيّةٍ تُشعرُهُ بأهمّيّتهِ وأهمّيّةِ ما يقومُ بهِ للمجتمعِ.)

قلت في نفسي: الآنَ فهمْت.. حقّاً الأسرةُ في مجتمعِنا تواكبُ ابنَها حتّى ينهيَ مسيرتَهُ العلميّةَ ويبدأَ مشوراهُ المهنيّ، أمّا عندَ الغربِ فلا يبلغُ الثامنةَ عشرَ حتّى يُجبَرَ على تركِ المنزلِ إمّا عادةً مِنْ عاداتِ المجتمعِ أو أنّ والديه يستثقلانِ مؤونتَهُ الماليّةَ الجامعيّةَ.

تنهّدتُ قليلاً، و زادَ إصراري على متابعةِ القراءةِ، ولسانُ حالي يحمدُ اللهَ أنّي وُلدْتُ في مجتمعٍ وأسرةٍ إسلاميّةٍ لا تستثقلُ حملي.

وتابعْت:

(كما قد يشكو المراهقُ مِنَ الاغترابِ والتمرّدِ، فالمراهقُ يشكو مِنْ أنّ والديه لايفهمانِه، فيلجأُ إلى معارضةِ الأهلِ، وبالتالي التمرّدِ على بعضِ آرائِهم وسلطتِهم، والحلُّ قد يكونُ يسيراً في

ظلِّ أسرةٍ متفهّمةٍ منفتحةٍ، تجعلُ مِنَ الحوارِ والنقاشِ أساساً لبناءِ شخصيّةِ ابنِهم أو ابنتِهم، ممّا يجعلُه يبتعدُ عن سلوكيّاتِ التمرّدِ أو العنادِ أو العدوانيّة.

وهناكَ مظهرٌ مضادٌّ للتمرّدِ، فقد يشعرُ المراهقُ بالخجلِ والانطواءِ بدلَ التمرّدِ، وذلكَ طبقاً لطبيعةِ شخصيّةِ المراهقِ مِنْ ضعفٍ أو قوّةٍ.

وقد يُظهِرُ المراهقُ العصبيّةَ وحدّةً الطبعِ، نتيجةً لما يريدُ تحقيقَهُ بالقوّةِ أو العنفِ، ممّا يُشكّلُ إزعاجاً كبيراً للآخرين والوالدَين.

تُشيرُ الدراساتُ إلى وجودِ علاقةٍ قويةٍ بينَ وظيفةِ الهرموناتِ التي تزدادُ في هذهِ المرحلةِ والتفاعلِ العاطفيِّ عندَ المراهقين؛ فالمستوياتُ الهرمونيّةُ المرتفعةُ تؤدّي إلى تفاعلاتٍ مزاجيّةٍ كبيرةٍ تأخذُ شكلَ غضبٍ وحدّةِ طبعٍ عندَ الذكورِ غالباً وغضبٍ واكتئابٍ عندَ الإناثِ، ممّا يجعلُهُ أحياناً يغرقُ في الخيالاتِ أو الرواياتِ البوليسيّةِ أو قصصِ العنفِ والإجرامِ،

فهو يميلُ لحبِّ المغامراتِ وارتكابِ الأخطاءِ وتقليدِ الآخرين).

تنهيدةٌ أخرى أطلقتُها، وقلتُ في نفسي:

الآنَ عرفْتُ سببَ انفعالاتي السريعةِ أحياناً مع أمّي أو أبي رغمَ أنّي عندما أنظرُ إلى الأمرِ بعدَ حدوثِ المشكلةِ أجدُهُ غيرَ جديرٍ بما فعلتهُ مِنَ انفعالٍ شديد... آه ... شكراً يا أمّي وأبي وأُخوتي كم تحمّلتم! لكنّي أعلمُ أيضاً أنَّ ذلكَ ليسَ بعذرٍ، بل عليَّ أنْ أدرّبَ نفسي على ضبطِ مشاعرِها، كما قالتْ أمّي: إنّما الحلم بالتحلّم.

هذهِ المعلوماتُ تشحذُ همّتي في متابعةِ القراءةِ لأنّها باتَتْ توضّحُ ليَ الكثيرَ مِنْ تصرّفاتِيَ التي أحياناً لا أفهمُها، أو أظنُّ أنّ الآخرينَ لا يشعرونَ بي، أو أحياناً أقولُ في نفسي لماذا فعلتُ كذا؟

كلُّ هذهِ الخواطرِ كانَتْ تجعلُني أحرّكُ عينيَّ بينَ أسطرِ المقالةِ

بسرعةٍ عجيبةٍ، وكأنّي لا أصبرُ حتّى أصلَ إلى نهايتِها:

(فقد تميلُ سلوكيّاتُ الفتاةِ المراهقةِ إلى الاندفاعِ ومحاولةِ إثباتِ الذاتِ والخجلِ مِنَ التغيّراتِ الجسديّةِ التي تحصِلُ لها، وتجنحُ لتقليدِ أمّها أو رفيقاتِها، وتتذبذبُ عواطفُها، فتغضبُ بسرعةٍ، وتصفو بسرعةٍ).

تمتمْتُ .... امممم ...... نعم صحيح .... عذراً يا والديّ.

ثمَّ أكملْتُ القراءةَ:

(وتشيرُ الدراساتُ إلى أنَّ الانحرافاتِ التي قد تظهرُ في سلوكِ المراهقينَ والمراهقاتِ تحدثُ نتيجةَ حرمانِ المراهقِ في المنزلِ والمدرسةِ مِنَ العطفِ والحنانِ والرعايةِ والإشرافِ وكذلكَ لضعفِ التوجيهِ الدينيّ.

وأبرزُ المخاطرِ التي يعيشُها المراهقُ: فقدانُ الهويّةِ وافتقادُ الهدفِ الذي يسعى إليهِ، وتناقضُ القيمِ التي يعيشُها، فضلاً عنْ مشكلةِ الفراغِ.

واتّفقَ خبراءُ الاجتماعِ وعلماءُ النفسِ والتربيةِ على أهميّةِ إشراكِ المراهقِ في المناقشاتِ العلميّةِ المنظّمةِ التي تتناولُ علاجَ مشكلاتِهِ، وتعويدَهُ على طرحِ مشكلاتِهِ، ومناقشتِها مع الكبارِ في ثقةٍ وصراحةٍ، وأكّدتِ الدراساتُ العلميّةُ أنَّ أكثرَ منْ ٨٠% منْ مشكلاتِ المراهقينَ في عالمِنا العربيّ هي نتيجةٌ مباشرةٌ لمحاولةِ أولياءِ الأمورِ تسييرَ أولادِهم بموجبِ آرائِهم وعاداتِهم وتقاليدِ مجتمعاتِهم، ومِنْ ثمّ يُحجِمُ الأبناءُ، عنِ الحوارِ معَ أهلِهم لأنّهم يعتقدون أنَّ الآباءَ إمّا لا يهمُّهم أنْ يعرفُوا مشكلاتِهم، أو لا يستطيعون فهمَها أو حلَّها).

قلتُ بصوتٍ مرتفعٍ: الحمدُ للهِ، أشكركَ يا ربُّ لأنّكَ منحتَني والدَينِ متفهّمَينِ لطبيعةِ المرحلةِ التي أمرُّ بها ويجيدان التربيةَ السليمةَ .. أحمدُكَ يا ربّ .. كم أحبُّكِ أمّي، كم أحبُّكَ أبي... أشعرُ برغبةٍ قويّةٍ في تقبيلِ أيديهما .... لكنّ دافعَ الفضولِ يسوقُني لمتابعةِ القراءةِ:

(وقد أجمعَتْ الاتجاهاتُ الحديثةُ في دراسةِ طبِّ النفسِ أنَّ الأذنَ المصغيةَ في تلكَ السنِّ هي الحلُّ لمشكلاتِها. كما أنّ إيجادَ التوازنِ بينَ الاعتمادِ على النفسِ وتحمّلِ المسؤوليّةِ والرعايةِ والحنوِّ مِنْ قِبَلِ الوالدينِ في شكلٍ صداقةٍ حميمةٍ (كما علّمَنا رسولُ اللهِ ﷺ) يمكنُ أنْ تبنيَ جسراً متيناً لنقلِ الخبراتِ وبناءِ شخصيّةِ المراهقِ المتّزنةِ دونَ صراعاتٍ أو أزماتٍ.)

أغلقْتُ الحاسوبَ، وألقيْتُ رأسي خلْفَاً، أتفكّرُ فيما قرأتُ من أفكارٍ كثيرةٍ، بعضُها فَسّرَ لي كثيراً مِنَ السلوكيّاتِ التي أجدُها حولي أو أقومُ بها أحياناً ... وصورةُ أمّي ببسمتِها الحانيةِ لا تفارقُ خيالي، لقد أفاضَتْ عليّ مِنْ حنانِها الشيءَ الكثيرَ ورغمَ ذلكَ فقد تركَتْ لي بحبوحةً مِنَ الحرّيّةِ والمناقشةِ وتبادلِ الآراءِ ممّا ساعدَني كثيراً في بناءِ آراءٍ وقيمٍ صحيحةٍ حولَ المجتمعِ والكونِ، والذي بِتُّ الآنَ أشعرُ برغبةٍ في فهمِهِ والتعمّقِ بإدراكِ قوانينِهِ.

صحيحٌ أنّي في كثيرٍ مِنَ الأحيانِ أشعرُ بعدمِ انسجامٍ معَ المجتمعِ، وأنّي لا أحبُّ تقاليدَهُ أو بعضاً مِنْ قيمِهِ.. لا أقصدُ القيمَ الأصيلةَ التي لامجالَ للخلافِ حولَ صحّتِها لأنّها مستمدّةٌ مِنَ الدينِ، بل أقصِدُ قِيَمَهُ في التعاملِ مع الآخرينَ والأحداث. كانَتِ التساؤلاتُ كثيرةً عندي: وأبرزُها يتمحورُ في تحديدِ ما هو الصوابُ؟ أسمعُ كثيراً مِنَ اللومِ: يجبُ ألا تفعلي كذا.. إيّاكِ أنْ تقومِي بذلكَ.. سينظرُ إليكِ الناسُ نظرةً لا احترامَ فيها... والكثيرُ الكثيرُ مِنَ الأمثلةِ والأوامرِ التي لا أقتنعُ بها أحياناً!

أسدلْتُ جفوني هروباً مِنْ تضاربِ وتكاثرِ الأفكارِ في رأسي لأرتاحَ قليلاً أو انتظاراً للأجوبةِ عَنْ تلكَ الأسئلةِ التي حامَتْ في عقلِي، إلا أنَّ الصورَ المتعدّدةَ لمواقفَ شتّى مرّتْ في حياتي ألحّتْ عليَّ فأخذْتُ أحلُّها مِنْ جديد.

نعم هذا الموقفُ أتذكّرُهُ تماماً، عدتُ مِنَ المدرسةِ وأنا غاضبةٌ

رغمَ أنّهُ لم يحدثْ مايثيرُ غضبي، حتّى استغربْتُ أنا نفسي مِنْ تصرّفي هذا، فليسَ هناكَ مِنْ داعٍ لأنفجرَ بالبكاء بعدَ كلماتٍ بسيطةٍ واستفسارٍ مِنْ أمّي عَنْ حالي، لقد صرخْتُ بأعلى صوتي بكلماتٍ لم يتبيّنْ لأمّي معناها، ثمّ دخلتُ غرفتي، وانفجرْتُ بالبكاءِ كالطفلةِ.

وهذهِ صورةٌ أُخرى أعرفُها وكأنّها حدثَتْ معيَ البارحة، طلبْتُ مِنْ أخي مساعدةً، فتأخّرَ في تلبيةِ طلبي، عاملتُهُ يومَها بفظاظةٍ غريبةٍ لا تتناسبُ معَ معاني الأخوّةِ والمحبّة.

الأمثلةُ عديدةٌ ... جميعُها كنْتُ أندمُ بعدها أشدَّ الندمِ على ما بدرَ منّي سيّما شدّةَ انفعالي وعدمَ التوازنِ بينَ الفعلِ وردّةِ الفعل.

الآن بدأْتُ أفهمُ ... إذن هي مشكلةٌ طبيعيّةٌ في مرحلتي هذهِ، عليَّ معالجتُها لأصِلَ إلى التوازنِ بينَ انفعالاتي ومشاعري والعقلِ والقيم، وإبعادِ أهوائِي ونفسي تتحكّمُ بسلوكي، عليّ أنْ

أتعمّقَ أكثرَ في فهمِ ذاتي، وفهمِ العلاقاتِ بينَ الناسِ والتواصلِ معهم بشكلٍ صحيحٍ.

تُرى أيُّ المصادرِ الموثوقةِ أعتمدُ في هذا الفهمِ؟

سؤالٌ لم أُجبْ عنهُ فقد قطعَهُ صوتُ أخي الصغيرِ وهو يناديني:

أختي لا أعرفُ كيفَ يعملُ هذا الجهازُ؟ أشعرُ أنَّ بهِ خللاً فهو لا يعملُ كما يجبُ.

أجبتُهُ قائلةً : كيف؟ أرني.

وبعد ملاحظتي للجهازِ سألتُهُ: هل للجهازِ مِنْ دليلِ تعليماتٍ (كاتلوج)؟ أظنُّ أنّهُ لابدَّ مِنْ دليلٍ مُرفَقٍ معهُ في علبتِهِ.. ابحثْ عنه.

بحثَ أخي حتّى وجدَهُ، فجاءَني بهِ، ثمّ ابتدرَني بالسؤالِ: وهل تظنّينَ أنّنا سنجدُ الجوابَ الشافي لمعرفةِ سببِ الخللِ؟ أو عدمِ قيامِهِ بعملِهِ كما يجب؟

هززْتُ رأسي مؤكّدةً ذلكَ، وعيناي تبحثانِ في دليلِ الجهازِ،

وبعدَ فترةٍ ليست بقصيرةٍ وجدتُ ضالّتي، وبدأتُ أتّبعُ التعليماتِ التي وردَتْ في كُتيّبِ الدليلِ، حتّى أطلقَ أخي صيحةَ فرحٍ، ثمّ أكبَّ عليَّ يعانقُني وكلماتُ الشكرِ انهالَتْ عليَّ كالقذائفِ فرحاً بعودةِ جهازِهِ إلى العملِ. قبّلتُهُ وسألتُهُ عَنْ واجباتِهِ وهل أنهاها فاطمأننْتُ عليه، ثمّ عُدْتُ إلى مكاني في غرفتي فعادَتْ إليّ أفكاري مِنْ جديد.

ثمَّ لمعَتْ فكرةٌ.. إنّها ليستْ جديدةً أو غريبةً عليّ! بلْ إنّي للتوِّ أكّدتُها لأخي !

دليلُ الجهازِ الذي صنعَتْهُ الشركةُ هو بالتأكيدِ يتضمّنُ تعليماتٍ تضمَنُ عملَ الجهازِ بنجاحٍ، وتجيبُ عَنْ أيِّ استفسارٍ حولَ عملِهِ أو بعضِ الأخطاءِ والأعطالِ التي قد يتعرّضُ لها وكيفيّةِ إصلاحِها.

نعم !! واللهُ عزَّ وجلَّ خلقَ الإنسانَ وأعطاهُ دليلاً مرفقاً، كي يعملَ الإنسانُ ويؤدّيَ دورَهُ بشكلٍ صحيحٍ.

كيفَ فاتتنْي هذهِ الفكرةُ!

أجلْ، لن يجيبَني عَنْ تساؤلاتي سوى القرآنِ الكريمِ، دليلُ سيرِ الإنسانِ بنجاحٍ في هذهِ الحياةِ، ولابدَّ أنّهُ سيحملُ علاجاً للأخطاءِ والعقباتِ التي تعترضُ الإنسانَ في هذهِ الحياةِ، يا لها من فكرةٍ واضحةٍ جليّةٍ لكنّها كانَتْ غائبةً عنّي.

أسرعْتُ إلى حاسوبي مِنْ جديدٍ. ومرّةً أُخرى أخذَتْ أصابعي تحرّكُ بحثاً في الشابكةِ (الانترنيت) عن كتبٍ حولَ القرآنِ الكريمِ وعلاجِ النفسِ البشريّةِ.

يا اللهُ. ياله مِنْ موقعٍ جميلٍ ومنظّمٍ. الإعجازُ القرآنيّ. وهناكَ كتابُ: (روائعُ الإعجازِ النفسيّ في القرآنِ الكريمِ) للدكتور عبد الدائم كحيل...جزاهُ اللهُ خيراً. أستطيعُ تنزيلَهُ مباشرةً وقراءتَه. الحمد لله، لقد أصبحَ لديّ الكتابُ بنسختِهِ الالكترونيّةِ. سأفتحُه.

إنّهُ يقولُ في مقدّمةِ كتابِهِ وتحتَ عنوانِ "التحكّمِ بالانفعالاتِ ":

(مَن منّا لم يندمْ يوماً على كلمةٍ قالَها أو تصرُّفٍ قامَ بهِ؟ ومَنْ منّا لم يفكّرْ يوماً بضبطِ انفعالاتِهِ ومشاعرِه؟ ومَنْ منّا لا يتمنّى أنْ يتحكّمَ بعواطفِهِ وتصرّفاتِه تجاهَ الآخرين؟ هذهِ أسئلةٌ أحببْتُ أنْ أبدأَ بها هذا البحثَ لأعطيَ مِنْ خلالِها فكرةً عنْ مضمونِ ما سنتعرّفُ عليه اليومِ. ولكنْ قبلَ ذلكَ أحبُّ أنْ ألفتَ انتباهَ القارئِ لشيءٍ قد لفتَ انتباهي وهو أنَّ الكتبَ التي تتناولُ الإجابةَ عنْ مثلِ هذهِ التساؤلاتِ تحقّقُ المبيعاتِ الأكثرَ على مستوى العالمِ!)

ثمّ يُكملُ الكاتبُ شرحَهُ فيقولُ:

(لقد اكتشفَ العلماءُ أنَّ الانفعالاتِ والعواطفَ والأحاسيسَ عندَ الإنسانِ لا تسيرُ بشكلٍ عشوائيٍّ كما كانَ يُظنُّ في الماضي، بل هنالكَ برنامجٌ دقيقٌ يتحكّمُ فيها).

ثمَّ يمضي بعنوان " كيفَ تتحكّمُ بعواطفِكَ؟ " :

(إنّها عمليةٌ بغايةِ البساطةِ وتحتاجُ فقط لمعرفةِ قانونٍ بسيطٍ

وممارسةِ هذا القانون. يخبرُنا العلماءُ اليومَ بأنَّ هنالكَ عقلاً باطناً هو الذي يتحكّمُ بعواطفِ الإنسانِ وانفعالاتِهِ ومشاعرِهِ بل وتصرّفاتِهِ! ولكنّنا لا ندركُ هذا العقلَ مباشرةً لأنّهُ عقلٌ باطنٌ. أي خفيّ.

ولكنَّ التجارِبَ أثبتَتْ حقيقةً علميّةً وهي أنَّ العقلَ الواعي والذي نفكّرُ فيهِ ونتعاملُ معهُ يتّصلُ مع العقلِ الباطنِ بقنواتٍ ضيّقةٍ، فأنتَ مثلاً تستطيعُ أنْ تعطيَ إيحاءً لعقلِكَ الباطنِ بأنّكَ يجبُ أنْ تفعلَ شيئاً ما، ومعَ تكرارِ هذا الإيحاءِ فإنَّ العقلَ الباطنَ يستجيبُ، ويبدأُ فعلاً بالتغيير.

لقد وجدَ العلماءُ بأنَّ الفترةَ التي ينشطُ فيها الاتّصال بينَ العقلِ الواعي والعقلِ الباطنِ هي فترةُ ما قبلَ النومِ بدقائقَ، وفترةُ ما بعدَ الاستيقاظِ مِنَ النومِ بدقائقَ أيضاً. فهذا هو الدكتور (جوزيف ميرفي) يخرجُ بنتيجةٍ بعدَ آلافِ التجارِبِ في كتابهِ "قوّةُ عقلكَ الباطنِ"، والذي بيعَ منهُ أكثرُ مِنْ مليون نسخة!

هذهِ النتيجةُ هي أنَّ أفضلَ طريقةٍ للتحكّمِ في الانفعالاتِ والغضبِ هيَ أنْ تردِّدَ كلَّ يومٍ قبلَ النومِ وبعدَ الاستيقاظِ عباراتٍ مثلَ: "سوفَ أصبحُ مِنْ هذهِ اللحظةِ إنساناً هادئاً ومتّزناً وبعيداً عن الانفعالاتِ، وسوفَ تظهرُ هذهِ النتيجةُ في سلوكي غداً."

لقد أمرَنا اللهُ عزَّ وجلَّ باستغلالِ فتراتِ ما قبلَ النومِ وما بعدَ الاستيقاظِ، وأمرَنا باستغلالِ هاتينِ الفترتينِ بالدعاءِ: (اللهمّ إنّي أسلمْتُ وجهي إليكَ، وفوّضتُ أمري إليكَ، وألجأتُ ظهري إليكَ رغبةً ورهبةً إليكَ، لا ملجأَ ولا منجى منكَ إلا إليكَ، آمنتُ بكتابِكَ الذي أنزلْتَ وبنبيّكَ الذي أرسلْتَ) صدقَ رسولُ اللهِ ﷺ تأملْ معي كم تحوي هذهِ الكلماتُ مِنْ تفريغٍ لهمومٍ وشحناتٍ ومشاكلَ اجتماعيّةٍ تراكمَتْ طيلةَ اليومِ! وكم تحوي مِنْ اطمئنانٍ واستقرارٍ نفسيٍّ لمَنْ يقولُها قبلَ أنْ ينامَ.

صرخْتُ بصوتٍ عالٍ ... يا اللهُ ... لقد وجدتُها. وجدْتُ

ضالّتي. الحمدُ للهِ إنَّ القرآنَ والسنّةَ سيجيبانِ عَنْ تساؤلاتي.

لقد أدركْتُ الآنَ سرَّ حديثِ رسولِ اللهِ ﷺ: " تفكّرُ ساعةٍ خيرٌ مِنْ عبادةِ سنةٍ"، ذلكَ لأنَّ التفكّرَ هو الوسيلةُ لخطابِ العقلِ، وبالتالي تغييرِ الأفكارِ والتي بدورِها ستغيّرُ المشاعرَ والسلوكَ معاً.

إنَّ مجموعَ الأفكارِ التي نضعُها في مخزونِنا الفكريِّ ونتعاملُ معها كحقيقةٍ خطِرةٌ جدّاً فهيَ تشكّلُ المبادئَ والمشاعرَ، ومِنْ ثمَّ السلوكَ والعادةَ، وأخيراً تشكّلُ الشخصيّةَ؛ لذلكَ علينا أنْ نهتمَّ كثيراً بما نخاطبُ بهِ أنفسَنا، وما نزرعُهُ في عقولِنا مِنْ أفكارٍ. حقّاً صدقَ اللهُ العظيم: " إنَّ اللهَ لا يغيّرُ ما بقومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسِهم".

لقد جعلَ اللهُ مفاتيحَ التغييرِ في يدِ الإنسانِ، وهذا ما أثبتَهُ العلمُ الحديثُ؛ البدايةُ أنْ نهتمَّ بالأفكارِ والعباراتِ التي نخاطبُ بها أنفسَنا، ونصوغَ بها جملةَ معتقداتِنا حولَ أنفسِنا والكونِ

والناسِ والأحداثِ.

هذهِ الأفكارُ بدَتْ وكأنّها تقشعُ الغمامَ أمامَ عقلي وتكشفُ عنْ رؤيا أشملَ وفهمٍ أعمقَ لنفسي، وكيفَ يمكنُ أن أغيّرَها وأصوغَها كما أرغبُ.

إنّها تخرجُني مِنَ اكتئابيَ الذي نتجَ عَنْ نقدِ الآخرين، والتي تُشعرُني بضجرٍ كبيرٍ أمامَ إحساسي بكثرةِ الاعتراضاتِ حولَ تصرّفاتي. هذا الشعورُ تشاطرُني إيّاهُ أغلبُ رفيقاتي، وهو محورُ حديثِنا وتأفُّفِنا مِنْ آراءِ الكبارِ وتوجيهاتِهم، وشعورِنا بأنّنا لا نصلحُ لشيءٍ ثمَّ استسلامُ بعضِنا لهذهِ الفكرةِ ومقابلةُ بعضنا الآخرِ ذلكَ بالتمرّدِ على الكبارِ ونصائحِهم. هذا بالفعلِ هو حالُنا! لقد عرفْتُ الآنَ خطئِي وخطأَ هذا التفكيرِ. فما نشعرُ فيه أنا ومَنْ في مثلِ عمري طبيعيٌّ لِمَنْ في مثلِ هذهِ المرحلةِ، لأنّنا نلجُ العالمَ ونتعرّفُ عليهِ، إنّنا ننتقلُ إلى مرحلةٍ أقربَ إلى عالمِ الكبارِ، لذا فهم يحرِصون على تنبيهِنا للأخطاءِ، لأنّنا بكلِّ بساطةٍ صِرنا

كالكبارِ بأشكالِنا وأجسامِنا. فعلاً يجبُ ألا أقابلَ النصحَ والإرشادَ بالإعراضِ أو اليأسِ والإحباطِ. وإنَّ فهمَ آليّةِ التغييرِ في النفوسِ يسهّلُ الأمرَ ويدعونا للتفاؤلِ والأملِ بكلِّ خيرٍ لما هو مقبلٌ.

عليّ أنْ أعيدَ النظرَ في أفكاري حولَ نفسي وكيفَ أتعاملُ معَ الآخرين.

هل هي حقّاً حسبَ دليلِ التعليماتِ الربانيّ (القرآنِ والسنّة)؟

أم إنّ (التلفازَ والأنترنيت) والأصحابَ صاغوا أفكاري دونَ أنْ أدري؟

كانَ لابدَّ أنْ أصفّيَ (أفلتر) الأفكارَ التي تلجُ لعقلي، وأبرمجُ بها نفسي.

أشعرُ بسعادةٍ كبيرةٍ، وفي الوقتِ نفسِهِ أشعرُ بثقلِ المَهمّةِ التي يجبُ أنْ أبدأَ بها.

أفقْتُ مِنْ هذهِ الأفكارِ على صوتِ أمّي تسألُني إنْ كنْتُ أقومُ

بواجباتيَ المدرسيّةِ، فأسرعْتُ نحوها مطمئنةً إيّاها أنّي سأبدأُ الآنَ. ثمَّ بدأْتُ بهمّةٍ ونشاطٍ وبـ (بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ) فتحْتُ كتبي ودفاتري.

-٢-



(الغيرةُ غشاءٌ يمنعُ رؤيةَ الحقِّ)

- لقد قلتُ لكم إنّي لا أحبُّ سماح .. ولا أرغبُ بأن أسمعَ أيَّ شيءٍ عنها.

لم أنهِ كلماتي حتّى بدَتِ الغرابةُ على وجوهِ زميلاتي!

غرابتُهنَّ جعلتني أنتبهُ إلى ما تلفّظْتُ بهِ، وأراجعُ نفسي.

لماذا قلْتُ هذا الكلامَ؟! الأمرُ لم يكنْ يستحقُّ أنْ أتلفّظَ به!!!

لم يردَّ عليَّ أحدٌ إذ إنّ جرسَ المدرسةِ كانَ قد أعلنَ انتهاءَ الدوامِ المدرسيّ، وجميعُهنّ انشغلْنَ بترتيبِ حقائبِهنَّ استعداداً للانصرافِ.

لكن وجوهَهنّ كانَتْ لا تفارقُ مخيّلتي طوالَ طريقي إلى بيتي. فعلاً لِمَ تلفّظْتُ بهذهِ الكلماتِ بحقِّ سماح؟!

هل حقّاً أنا لا أحبُّها؟ ماذا فعلَتْ حتّى أجدُني مستاءَةً لهذا الحدّ!

وصلْتُ البيتَ، وساعدْتُ أمّي ثمّ اتّجهْتُ إلى غرفتي وأنا شاردةُ الذهنِ.

ما أزعجني أو ما صدمَني هو تصرّفي! وأجزمُ أنّ هذا ما استغربَتْهُ زميلاتي، فهنَّ لم يعتدْنَ منّي سماعَ مثلِ هذهِ الكلماتِ اتّجاهَ

الآخرين.

لم أستطعْ أنْ أجدَ مبرّراً لما فعلتُ. لكنّ ذلكَ أرّقني... كلّما حاولْتُ إبعادَهُ وأنا أدرسُ، تعودُ وجوهُ رفيقاتي أمامَ ناظريّ... دافعْتُ هذه الخواطرَ كثيراً لكنّها أصرّتْ على إشغالي عنِ الدراسةِ.

فلم أجدْ بُدّاً مِنْ أنْ أضعَ الأمرَ بينَ يديْ أمّي، علّها تُفهمُني السببَ فيما وقعْتُ فيه.

شرحْتُ لأمّيَ الموقفَ. وانتظرْتُ منها الجوابَ.

فابتدرتْني بالسؤالِ:

-هل تشعرينَ بالغيرةِ منها؟

- أنا !!!!!! ولماذا أغارُ منها هي !!!!!!

نظرَتْ أمّي بابتسامةٍ.. ثمّ قالت:

-وكيف علاقتُها معَ مدرّستِكِ المفضّلةِ؟ أعني هل تحبُّها أيضاً؟

لم أُرِدْ في البدايةِ أنْ أجيبَ أمّي، فطأطأتُ رأسي وحاولتُ أنْ ألتفَّ على السؤالِ:

-لا أظنُّ أنّ المدرّسةَ تحبُّها.

-لكنّي لم أسألكِ يا علا عَنْ محبّةِ المدرّسةِ لها! بل سألتُكِ عنها هيَ إنْ كانتْ تحبُّ المدرّسةَ. هل هذا صحيحٌ؟

- نعم ... نعم تحبُّها كثيراً، وتحرِصُ على إظهارِ ذلكَ، بلْ وتتعمّدُ أنْ تقومَ بأعمالٍ ملفتةٍ للنظرِ في الدرسِ حتّى تنتبهَ المدرّسةُ لها. ولكنْ ما علاقةُ ذلكَ بما قلتُهُ أنا؟!

تبسّمَتْ أمّي وقالَتْ: أنتِ قولي لي ما العلاقةُ؟

- لا توجدُ علاقةٌ يا أمّي.

- أمتأكّدةٌ أنتِ يا علا؟ لا علاقة؟

- أمّي ... قلتُ لا علاقة ......

قلتُها بصوتٍ مرتفعٍ، وأشحْتُ بوجهي بعيداً، وكأنّي أهربُ مِنْ شيءٍ. وسادَ الغرفةَ صمتٌ طويلٌ.

حتّى هدأْتُ قليلاً، فقلتُ لأمّي:

-أنتِ ما رأيكِ؟

- هل أنتِ مستعدّةً حقّاً لسماعِ ما أريدُ قولَهُ؟ أم مازلتِ منزعجةً؟

- لا أدري.. لا أحبُّ أنْ أتكلّمَ في هذا الموضوعِ، وبنفسِ الوقتِ أشعرُ برغبةٍ وفضولٍ في معرفةِ رأيكِ، لكنّي صراحةً

أخافُ ألا يعجبَني.

-اممم .. لا داعي إذاً للكلامِ إنْ كنتِ خائفةً وترغبينَ في سماعِ ما يرضيكِ فقط، فإنْ لم يعجبْكِ فلا تودّينَ سماعَهُ!

-لا يا أمّي... ولكنْ.

-هذهِ هي الحقيقةُ يا علا. على عينيكِ غشاوةٌ لا تريدين أن تبصري إلا ماترينَه! فعلامَ الكلامُ! لن يعجبَك ما سأقولُه.

-أمّي. الأمرُ ليس سهلاً كما تتصوّرين.

-أعلمُ ذلكَ تماماً يا علا. نفسُك لا ترغبُ في سماعِ الحقِّ.

-أمّي ... ماذا تقصدين؟

-ما أقصدُ قولَهُ هو أنّني لن أتحدّثَ حتّى يذهبَ عنكِ شيطانُكِ، أو تهدأَ نفسُكِ.

أسرعْتُ إلى غرفتي، وكأنّي لا أريدُ سماعَ المزيدِ.

لا أدري.. لقد تصرّفْتُ وكأنّي أهربُ من الجوابِ! حاولتُ ألّا أفكّرَ بالموضوعِ.. ولكن عبثاً.

قمْتُ إلى صلاتي متكاسلةً، ولازلتُ أشعرُ بضيقٍ، فتذكّرْتُ دعاءً علّمتنا إياهُ مُدرّسةُ التربيةِ الدينيةِ، فرفعْتُ يديَّ أدعو بهِ:

اللهمّ أرِني الحقَّ حقّاً وارزقْني اتّباعَهُ وأرِني الباطلَ باطلاً وارزقْني اجتنابَه، وأعنّي على نفسِي فإنّهُ لا يعينُ على الحقِّ غيرُك، ولا تكلْنِي لنفسي طرفةَ عينٍ ولا أصغرَ مِن ذلكَ ولا أكبرَ، وصلّ اللهمّ على سيّدِنا محمّدٍ وعلى آلهِ وصحبِهِ وسلّم.

أحسسْتُ بعدَ الدعاءِ بأنّني أقوى على معرفةِ جوابِ أمّي وسماعِ نصيحتِها التي توقّعْتُ أنّها لن تعجبَني.

ثمّ ذهبْتُ إلى أمّي.

- أعتذرُ يا أمّي على ما بدرَ منّي، لقد صلّيْتُ، فأنا الآنَ أسكَنُ نفسَاً، وأقدرُ على سماعِ رأيِكِ؛ سامحيني يا حبيبتي. هل ستجيبين عَنْ سؤالي؟

- غفرَ اللهُ لكِ، المهمُّ أنْ يُدركَ الإنسانُ خطأَهُ، ويعملَ على إصلاحِهِ، ويحاولَ عدمَ تكرارِه. أمّا عن رأيي فسأجيبُكِ إنْ أردتِ ذلكَ يا علا.

- سأبذلُ جهدي يا أمّي. نعم أريدُ سماعَ رأيكِ مِنْ فضلِكِ.

- ما شعرْتِ بهِ يا حبيبتي هو شعورٌ طبيعيٌّ يمكنُ أنْ يشعرَ بهِ أيُّ شخصٍ. إنّها الغيرةُ. لقد غِرتِ مِنْ زميلتِكِ لمحاولاتِها التقرّبَ مِنْ مدرّستِكِ المفضّلةِ، وخشيْتِ أنْ تحوزَ على إعجابِ واهتمامِ المدرّسةِ لها أكثرَ منكِ. صحيحٌ؟

- أمّي ألا يمكنُ أنْ نتجاوزَ هذهِ النقطةَ؟

- لا.. لا يمكنُ. لأنَّ تحديدَ سببِ المشكلةِ هو الذي سيحلُّها.

- امممم .... نعم، ربّما ... ربّما هذهِ الحقيقةُ التي كنْتُ أهربُ منها.

- الغيرةُ يا بنتي نوعان، منها ماهو محمودٌ، ومنها ما هو سيّءٌ يُردي صاحبَهُ إلى المهالكِ، فيملأُ قلبَهُ غلاً أو شرّاً، وقد يدفعُهُ لأعمالٍ قبيحةٍ. ألا تذكرين قصّةَ أولادِ النبيّ يعقوبَ معَ أخيهم سيّدِنا يوسفَ عليهِ السلام؟

- نعم يا أمّي أذكرُها جيّداً.

- لقد غارَ إخوةُ يوسفَ منه، لحظوتهِ عندَ أبيهم، فكادُوا له حتّى فكّروا في قتلِهِ.

- صحيح. الغيرةُ تجعلُ المرءَ يقومُ بأعمالٍ شائنةٍ أو غبيّةٍ،

كما فعلْتُ أنا.

تبسّمَتْ أمّي لأنّي قد وفّرتُ عليها الربطَ بينَ الحادثتَين، واعترافِي بخطئِي. وكانَ هذا نصفُ الطريقِ نحو الحقّ.

-أحسنْتِ يا علا.. أنا فخورةٌ بكِ لأنّكِ اعترفْتِ بخطئِكِ.

-هذهِ هي الغيرةُ السيّئةُ، وماهي الغيرةُ المحمودةُ؟

-هي أنْ تغاري ممّنْ يقومُ بعملٍ صالحٍ، فتحملُكِ غيرتُكِ على القيامِ بهِ أيضاً. مثلاً رفيقاتُكِ بالدراسةِ اجتهدْنَ فغرْتِ منهنّ واجتهدْتِ أكثرَ كي تنالي علاماتٍ أكثر. حفظُ القرآنِ... مساعدةُ الفقراءِ. الأمثلةُ كثيرةٌ.

-آه... فهمْتُ. ما أغباني إذ تلفّظتُ بتلكَ الكلماتِ التي خرجَتْ نتيجةَ غيرتي، ماذا أفعلُ يا أمّي حتّى لا يعاودُني هذا الشعور؟

-يا علا .. أنتِ تحبّين هذهِ المدرّسةَ لله، لأنّها علّمتْكِ أشياءَ كثيرةً نافعةً، ولكثرةِ خصالِها الجميلةِ التي أعجبَتْك، هل هذا صحيحٌ؟

-نعم صحيح.

-إذاً عليكِ أنْ تذكري ذلكَ، فما تطلبينَهُ مِنْ أنْ تكوني أنتِ فقط المفضّلةُ أنانيّةٌ منكِ، وحظرٌ للخيرِ أنْ يصلَ إلى غيرِكِ، وهو مِنْ أهواءِ النفسِ وطلباتِها. و قد أمرَنا اللهُ بعدمِ اتّباعِ الهوى حتّى لا يهوي بنا.. متّفقةٌ معي على ذلك؟

-نعم يا أمّي. لكنّ ذلكَ شاقٌّ على نفسي.

- صحيح. ومِنْ أجلِ ذلكَ جعلَ اللهُ ثوابَهُ الجنّة.

-آه يا أمّي .. ما أسهلَ هذا الكلامَ، وما أصعبَهُ على النفسِ.

- كلامُكِ حقٌّ يا علا، وبهذا يتفاضلُ الناسُ في منازِلهم

عندَ ربّهم، هذا هو الاختبارُ، ليس الامتحانُ مِنَ اللهِ مصيبةً أو شدّةً فقط، قد يكونُ مثلَ حالتِكِ هذهِ، وامتحانُكِ هل ستتّقينَ اللهَ وتنصفينَهَا من نفسِكِ أم ستتّبعينَ هواكِ، وينالُها مِنَ الأذى كما فعلْتِ الآنَ بلسانِكِ؟ فإذا لم ينتبهِ المسلمُ، ويتّقِ اللهَ قد يغريهِ الشيطانُ كما قتلَ قابيلُ هابيلَ، و كما فعلَ إخوةُ يوسفَ.

بدا عليّ الانزعاجُ.

- لا تنزعجي يا علا. هذا الموقفُ هو خبرةٌ لتتعلّمي منه ُكيفَ تجاهدينَ نفسَكِ، ولا تسترسلينَ مع هواكِ، إنْ أحسنْتِ التعلّمَ فهذا الموقفُ هو كسْبٌ لكِ، وتربيةٌ مِنَ اللهِ لأنّهُ يحبّكِ، ويريدُ أنْ يطهّرَكِ.

أشرقَتْ نفسي بهذهِ الكلماتِ الرائعةِ. حقّاً إنّ اللهَ يحبّني لأنّه يربيني بهذهِ المواقفِ حتّى أصفوَ مِنْ أكدارِ النفسِ وأهوائِها.

شكراً لكَ يا ربّ.

-الحمدُ للهِ... الحمدُ للهِ ... أشكرُكِ يا أمّي. لقد مسحَ كلامُكِ عَنْ قلبي ثقلاً كبيراً، لم أستطعْ أنْ أعرفَ سببَهُ، أمّا الآنَ فبكلماتِكِ المضيئةِ بدَتِ الصورةُ واضحةً جليّةً بعدَ أنْ كانَتْ ضبابيّةً لا أرى منها إلا أفعالَ سماحٍ وانزعاجي منها. أشكرُكِ مِنْ كلِّ قلبي.

- لا تنسَي أنْ تُثْني على سماحٍ، وتقولي كلمةَ حقٍّ أمامَ زميلاتِكِ اللّاتي أسأْتِ أمامَهنَّ بقولِكِ، حتّى تكتملَ توبتُكِ، فإصلاحُ التوبةِ التي تخصُّ العبادَ ليس فقط بالاستغفارِ بل لابدَّ مِنْ إصلاحِهِ معَ العبدِ.

-صدقْتِ يا أمّي. أشكرُكِ كثيراً.

قبّلتُ رأسَ أمّي، ثمَّ استأذنتُها بالذهابِ إلى غرفتي.

أحببْتُ أن أركعَ بينَ يدي اللهِ ركعتين أعلنُ فيهما توبتي وامتناني أنْ هداني، وأعانَني على نفسي، وأراني الحقَّ، وساعدني في ألّا تأخذَني العزّةُ بالإثمِ.

اللهمّ لكَ الحمدُ حمداً طيّباً مباركاً كما ينبغي لجلالِ وجهِكَ وعظيمِ سلطانِكَ.

لقد كانَتْ هاتانِ الركعتانِ مِنْ أحلى الركعاتِ التي سجدتُها في حياتي... ربّما أكرمَني بمشاعرِ الودِّ والقربِ لأنّي جاهدْتُ هوايَ وانتصفْتُ مِنْ نفسي.

حقّاً هناكَ عطاءاتٌ إلهيّةٌ للمؤمنِ لتثبيتِهِ على الحقِّ. جلّ جلالُكَ ما أكرمَكَ وأعظمَكَ، أنتَ الربُّ الحبيبُ القريبُ، تعلمُ السرَّ وأخفى. سبحانَكَ.

يعجزُ لساني عَنْ شكركَ، وكلماتي عَنِ الثناءِ عليكَ. سبحانَكَ لا نحصي ثناءً عليكَ أنتَ كما أثنيتَ على نفسِكَ. أحبّكَ ربّي.

- ٣ -



(معرفةُ مداخلِ النفسِ وسبرِ أغوارِها يحتاجُ إلى بحّارٍ بارعٍ ليقودَها نحوَ شاطئِ الأمان)

جرسُ الهاتفِ يرنُ .... آلو .... نعم إنّها هُنا.. دقيقةٌ مِنْ فضلك.

- علا .. علا ... ردّي على الهاتفِ.
- حاضر يا أمّي .. ألو ... أهلاً حنان.. كيفَ حالُك؟ اشتقْتُ لكِ ... ما أخبارُك؟ لِمَ صوتُكِ حزينٌ؟ ماذا حصلَ؟

- لا شيءَ يا علا.
- إنّي أعرفُكِ جيّداً يا حنانُ. صوتُكِ حزينٌ. ما الأمرُ؟
- رفيقتي سمر. تعلمين كم أُضمِرُ لها مِنْ أخوّةٍ ومحبّةٍ. هناكَ مَنْ أَخبرَها أنّي انتقدْتُ تصرّفاتِها في المدرسةِ، فانزعجَتْ كثيراً وهي الآنَ ترفضُ التحدّثَ معي أو حتّى تبريرَ ما حصلَ؛ آه لو أعلمُ مَنِ التي أخبرتْها.
- وهل فعلتِ ذلكَ حقّاً يا حنان؟
- في الحقيقةِ. فعلتُ ذلكَ، ولكنْ حاولْتُ أنْ أعرفَ مَنِ التي أخبرتْها كي أخاصمَها، وأبتعدَ عنها.

قاطعتْها قائلةً:

- ليس هذا هو المهمُّ يا حنان، أليسَ كذلك؟
- لا. هذا هامٌّ جدّاً يا علا، فلولاها ما خاصمَتْني سمر.
- حنانُ. المشكلةُ ليستْ فيمنْ أخبرَها. المشكلةُ هو ما قمتِ

أنتِ بهِ. هل هذا صحيح؟

- لكنْ لو لم يخبرْها أحدٌ لما حصلَ ما حصلَ. ثمَّ إنّي لم أقصدِ الإساءةَ لها.

- ربّما يا حنانُ لم تقصدي، لكنْ لا تلتفّي حولَ المشكلةِ، فليسَ المهمُّ أنْ تعرفي مَنْ تلكَ الصديقةُ حتّى تتوعّديها، ولكنِ المشكلةُ أنّكِ نسيتِ قولَ رسولِ اللهِ ﷺ إنَّ المؤمنَ ينصحُ ولا يفضحُ، وما قمتِ به هو غيبةٌ، أليسَ كذلك؟

- لكنّي لم أقصدِ الإساءةَ.

- أعلم. إلا أنَّ ذلكَ لا ينفي أنّكِ اغتبتِها؟ هل هذا صحيح؟ أعرِفُكِ يا حنانُ محبةً للحقِّ وصادقةً مع نفسكِ.

- صحيح. شكراً لكِ. سبحانَ اللهِ كيفَ تحاولُ النفسُ أنْ تلتفَّ على الإنسانِ حتّى لا تضعَ اللومَ عليها. جزاكِ اللهُ خيراً يا علا. أعرفُ تماماً أنّي سأرتاحُ عندما أتحدّثُ معكِ.

- بل أنا التي أشكركِ يا حنانُ لأنّكِ سمعتِ الحقَّ رغمَ قسوتِهِ أحياناً على النفسِ بل غلظتِهِ، فلم تنتصري لنفسِكِ. حقّاً إنّكِ صديقةٌ ممتازةٌ.
- ماذا أفعلُ الآنَ؟
- إنّكِ وصلتِ إلى نصفِ الطريقِ الموصلِ للعلاجِ عندما صدقْتِ مع نفسِكِ، ولم تنتصري لها، أمّا تتمّتُه فعليكِ أن تتوبي أوّلاً، ثمّ تذكُريها بالخيرِ أمامَ من استغبتِها عندَهنّ، وسأساعدُكِ غداً في التحدّثِ مع سمر وشرحِ الموقفِ، وبإذنِ اللهِ سيعينُنا في شرحِ صدرِها لتفهمَ الأمرَ.
- لقد انشرحَ فؤادي يا علا. أشكرُكِ مِنْ كلِّ قلبي. جزاكِ اللهُ خيراً. لا تنسَيني مِنَ الدعاءِ.
- أهلاً وسهلاً بكِ يا حنان. مع السلامة. وأنتِ أيضاً دعواتِك.

أغلقتُ السماعةَ، وقد سرّني صدقُ حنانَ وسرعةُ استجابتِها للحقِّ

وإذعانِها له، ثمّ مرّتْ في ذهني صورُ مواقفَ كثيرةٍ لصديقاتٍ لي خضْنَ بالغيبةِ والنميمةِ ونقلِ الكلامِ ونشرِهِ مع كثيرٍ مِنَ التعديلِ والبهارِ. حتّى أنا أجدني أقعُ فيها أحياناً دونَ أنْ أشعرَ! غريبٌ! كيفَ أنَّ الإنسانَ يستطيعُ أنْ يرى عيبَ غيرِهِ وينصحَهُ، بينما يحتاجُ هو نفسُهُ النصحَ في مواقفَ أخرى!

ربّما لأجلِ ذلكَ كانَ التناصحُ هو صمّامُ أمانٍ للإنسانِ، كما قالَ اللهُ تعالى في سورةِ العصرِ.

قطعَ أفكاري تلكَ صوتُ أمّي وسؤالُها:

-ما بكِ يا علا؟

-لا شيءَ يا أمّي، لقد أعجبني موقفُ حنانَ وسرعةُ اعترافِها بالخطأِ الذي يقعُ بهِ أكثرُنا دونَ أنْ نشعرَ.

-ما هو يا بنتي ؟

-الغيبةُ يا أمّي. إنّ الغيبةَ فعلاً ظاهرةٌ منتشرةٌ في المجتمع سيّما عندَ النساءِ، فالغيبةُ والنميمةُ والغيرةُ والالتفافُ حولَ الحقِّ وعدمُ الصدقِ مع الذاتِ. كلُّها أمراضٌ منتشرةٌ إلا مَنْ رحمَ ربّي. وإنَّ أغلبَ المشاكلِ يعودُ سببُها إلى هذهِ الأمراضِ التي تفتِكُ بالمجتمع، وتقوّضُ بنيانهُ.

-أنتِ محقّةٌ يا علا.. لا غروَ أنْ شبهَها الله تعالى بهذا التشبيه المقزّزِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾[1].

-لقد أكبرتُ حقّاً موقفَ حنانَ الصادقَ مع نفسِها وسرعةَ

[1] - سورة الحجرات : آية ١٢

انقيادِها للحقِّ مّما يدلُّ حقّاً على صلاحِها.

-هذا هو حالُ المؤمنِ، قد يضعفُ أحياناً لكنّهُ يؤوبُ إلى ربِّهِ سريعاً، فيتوبُ إليهِ ويُصلحُ ما أفسدَ، ممّا يرفعُ منزلتَهُ عندَ ربِّهِ، ويساعدُه للتعلّمُ مِنَ الأخطاءِ فيزدادُ كمالاً.

- ٤ -



(ليستِ البطولةُ في ألّا تخطئَ، ولكنْ أنْ تكونَ صادقاً فتبصرَ خطأَك، ويتّسعَ صدرُكَ لنصيحةِ الآخرين، ثمَّ تمتلكَ الجرأةَ والصدقَ معاً لتصحّحَ ما أفسدْتَ)

رن ... رن ... جرسُ الباحةِ ...

أسرعْتُ إلى الباحةِ لأقفَ على أخبارِ حنانَ وصديقتِها سمر.

- طمئنيني يا حنانُ. ماذا حصلَ؟
- شكراً لنصيحتِك الغاليةِ يا علا. حقّاً لقد تعلّمْتُ درساً لن

أنساهُ بإذنِ اللهِ. الحمدُ للهِ، ما نمرُّ بهِ مِنْ خبراتٍ في حياتِنا تساعدُنا في بناءِ قيَمِنا وشخصيّتِنا، فالإنسانُ العاقلُ هو الذي يتعلّمُ مِنْ أخطائِهِ وأخطاءِ غيرِهِ، ولايدعُ اليأسَ يدخلُ قلبَهُ. أشكركِ مِنْ أعماقِ قلبي يا علا.

- لابأسَ عليكِ .. فهذا واجبُ الأخوّةِ.. التناصحُ.
- بل أنا التي ينبغي أنْ تشكرَكِ، لقد تعلّمْتُ منكِ الامتثالَ للحقِّ مهما كانَ صعباً على النفسِ. حقّاً صدقَ اللهُ العظيم:

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾[1]

لقد ضربْتِ مثلاً رائعاً يا حنانُ في قبولِ النصحِ، وقلّةٌ مِنْ رفيقاتِنا مَنْ يقبلنَ ذلكَ، أو يتقبّلنَ النقدَ، ولو كانَ

[1] – سورة العصر.

الإنسانُ صادقاً في هدفِهِ للرقيِّ بنفسِهِ والتمسّكِ بالأخلاقِ الرفيعةِ ومعرفةِ عيوبهِ لارتقى حتّى يقاربَ الكمالَ، ويحقّقَ أهدافَهُ.

- صدقْتِ يا علا.

قطعَ كلامَنا صوتُ الجرسِ معلِناً انتهاءَ الباحةِ، فأسرعَتْ كلٌّ منّا إلى صفِّها.

وعندَ نهايةِ الدوامِ المدرسيّ عدْتُ إلى منزلي، وصورةُ حنانَ وموقفُها لا يفارقانِ خيالي، وكلُّ ذلكَ جعلَني أكثرَ اعتزازاً وحرصاً على صحبتِها.

دخلتُ إلى المنزلِ، وألقيْتُ التحيّةَ، وأسرعْتُ لمساعدةِ أمّيَ التي بدَتْ أنّها في حاجةٍ إلى مَنْ يعينُها.

دخلَ أخي الصغيرُ المطبخَ مسرعاً فارتطمَ بي وأنا أحملُ الطعامَ،

فصرخْتُ في وجههِ، ووبّخته بشدّةٍ، فانفجرَ بالبكاءِ، نظرَتْ أُمّي إليّ نظرةَ لومٍ وعتابٍ، فما كانَ منّي إلا أنْ صحْتُ: لا تلوميني، كادَ أنْ يوقعَ الطعامَ مِنْ يدي وينسكبَ على الأرضِ.

ثمَّ أسرعْتُ إلى غرفتي، وأغلقْتُ البابَ ورائي بعنفٍ، ثمّ انفجرْتُ بالبكاءِ.

ظللْتُ أبكي لفترةٍ طويلةٍ دونَ أنْ أفكّرَ بسببِ بكائي، ولم يخطرْ في بالي أبداً أنْ ألومَ نفسي، ثمّ استسلمْتُ للنومِ بعدَ أنْ أخبرتُهم بعدمِ رغبتي في الطعامِ.

أفقْتُ على صوتِ أمّي توقظني للصلاةِ.

أسرعْتُ وتوضأتُ ثمّ صليْتُ، وتذكّرتُ ما حدثَ، كنْتُ في أعماقِ نفسي أرفضُ أنْ أعترفَ بخطئي أو أعتذرَ لأخي.

نادتْني أمّي: علا .... هاتفٌ لكِ.

- أهلاً حنان ...

ما إنْ تلفّظْتُ باسمِها حتّى تذكّرْتُ موقفَها وإعجابي بما فعلتْهُ مِنَ اعترافٍ بخطئِها ثمّ إصلاحِهِ ... ثمّ أخذْتُ أقارنُ بينَ ما قمْتُ بهِ اليومَ وموقفِ حنان! كنتُ مشغولةً بتلكَ المقارنةِ طوالَ محادثتي لها حتّى بدا عليّ الشرودُ رغمَ محاولتي بعدمِ إظهارِ شيءٍ، فسارعْتُ في إنهاءِ المحادثةِ، ثمَّ عدتُ إلى غرفتي. أخذتُ أفكّرُ فيما حدثَ و ردّةِ فعلي، فبدأَ الندمُ يتسلّلُ إلى قلبي؛ لقد ارتكبْتُ أخطاءً عدّة، أولُها أنّ ردّةَ فعلي لا تتناسبُ مع ما بدرَ مِنْ أخي الصغيرِ الذي أخطأَ سهواً، ثانيها وهي الأخطرُ عدمُ اعترافي بالخطأِ وهروبي منهُ، ثمَّ بعدَ ذلكَ إضرابي عَنِ الطعامِ الذي صنعتْهُ والدتي وتكديريَ الجوَّ الحميميَّ الأسريَّ عندَ تناولِ الطعامِ معاً و لسببٍ تافهٍ.

تعجّبتُ مِنْ نفسي كيفَ كنْتُ البارحةَ أُكبِرُ عملَ حنانَ، ثمَّ

أقومُ بعكسِهِ الآنَ!

بكيْتُ كثيراً..

بكيْتُ لأنّي تفاجأتُ بنفسي، كيفَ لم أستطعْ أنْ ألتزمَ بالقيمةِ التي أُعجبْتُ بها أمس، وقمْتُ بعكسِها؟!

لم يوقفْ دموعي إلا يدَ أمّيَ وهي تمسحُها، وتربّتُ على كتفي.

-هدّئي مِنْ روعِكِ .. قالتْها أمّي بصوتٍ حنونٍ.

نظرْتُ إليها، ثمّ ارتميْتُ في أحضانِها، وانفجرْتُ في البكاءِ.

قالت لي بصوتٍ عذبٍ هادئٍ فيه مِنَ الحبِّ ما أسكنَ فؤادِي، و طيّبَ خاطري:

-هوّني عليك يا بنتي .. هل أنتِ نادمةٌ على ما فعلْتِ؟

- نعم.. كثيراً يا أمّي .. لم أكنْ أظنُّ أنّني .... وانفجرْتُ

بالبكاءِ ثانيةً.

- علا .. مابكِ ؟ هل خابَ ظنّكِ بنفسكِ؟ حسبْتِ أنَّ قيمةَ الاعترافِ بالخطأِ قيمةً ثابتةً، أصيلةً في نفسكِ ثمَّ تفاجأْتِ بتصرّفكِ الدالِّ على عكسِ ذلكَ؟

- تماماً يا أمّي .. لقد كرهْتُ نفسي، البارحةَ كُنْتُ ذلكَ الملاكَ أو الشيخَ الذي ينصحُ حنانَ، واليومَ انظري ماذا فعلْتُ!

- لا تجزعي يا بنيّة .. هذا شيءٌ طبيعيٌّ.

مسحْتُ دموعي، و قلْتُ باستغرابٍ: طبيعيّ!

- نعم يا علا فمعرفتُنا بالقيمةِ وإعجابُنا بها لايعني أنّنا قادرون على الالتزامِ بتطبيقِها دوماً.

- كيفَ يا أمّي؟ لم أفهمْ!

- يا علا إنّ المبدأَ حتّى يصبحَ جزءاً مِنْ تكوينِ شخصيّتِنا

وسلوكنا يمرُّ بمراحلَ حتّى يغدوَ تمثُّلاً .

فالإنسانُ قد يرى تصرُّفاً، أو يسمعُ خطاباً أو محاضرةً فتعجبُه القيمةُ أو المبدأُ، إلا أنَّ ذلكَ لا يعني أنّهُ قادرٌ مباشرةً على الالتزامِ بهِ في جميعِ الظروفِ، فلا بدَّ أوّلاً مِنْ معرفةِ القيمةِ والمبدأِ، ثمَّ الإعجابِ بهِ والتفكيرِ بأهمّيّتهِ وفوائدِهِ ونتائجِهِ الإيجابيّةِ في الحياةِ والمجتمعِ ثمَّ محاولةِ تطبيقِهِ مرّةً بعدَ مرّةٍ، وحملِ النفسِ على تطبيقِهِ ومجاهدتِها على ذلكَ المرّةُ تلوَ الأخرى، وقد تنجحينَ مرةً وتفشلينَ أخرى، إلا أنَّ متابعتِكِ وإصرارِكِ على تنفيذِها هو الذي يحوّلُها إلى عقيدةٍ تنعقدُ في القلبِ فتلتزمُ الجوارحُ بها فتغدو قيمةً أصيلةً في نفسِكِ، حتّى يعرفُها الناسُ فيكِ كخصلةٍ مِنْ شخصيّتِكِ، فيقالُ مثلاً فلانٌ صادقٌ لأنَّ الصدقَ عندَهُ قيمةٌ ينفّذُها في جميعِ الظروفِ، ومهما كلّفتْهُ مِنْ تضحياتٍ، فما عندَ اللهِ خيرٌ

وأبقى مِنَ الدنيا ومافيها.

هذهِ هي مراحلُ الاستجابةِ أو اكتسابِ المبدأِ يا علا.. لذلكَ عليكِ أنْ تجاهدي نفسَكِ وتحاسبيها على تنفيذِ القيمةِ، ولا تيْأَسي عندَ الإخفاقِ بلْ جدّدي الهمّةَ. فالمهمُّ هو الثباتُ على المبدأِ والاستقامةُ عليهِ حتّى يصبحَ جزءاً مِنْ تركيبةِ عقلكِ وفكرِكِ وعقدةً في قلبكِ، عندئذٍ يظهرُ على سلوكِكِ.

أشكرُكِ يا أمّي. لقد أزحْتِ عنّي الهمّ، وفهمْتُ حقّاً الفرقَ بينَ معرفةِ المبدأِ وتطبيقِهِ والالتزامِ بهِ؛ لكنَّ الأمرَ ليسَ سهلاً أبداً.

أمّي أشعرُ أحياناً أنَّ هناكَ جبالاً مِنَ القيمِ والأفكارِ عليَّ تغييرُها، حتّى أنّي أيئس مِنْ نفسي، وأحياناً أحسُّ أنّي في قمّةِ القوّةِ والأخلاقِ الرفيعةِ. ما هذا التناقضُ؟!

أشعرُ بضيقٍ شديدٍ عندما أرتكبُ خطأً ما، وكأنَّ كلَّ أخطائي أمامَ ناظريّ، وأتضاءلُ لدرجةِ الإحساسِ بالتمّني أنْ تبتلعنيَ الأرضُ حتّى أنتهيَ مِنْ هذا الصراعِ الداخليّ!

- أعلمُ يا بنتي ما تشعرينَ بهِ، لا تستغربي.. فكلُّنا في هذهِ المرحلةِ كانَ يشعرُ بذلكَ.
- أمّي أكادُ أضيقُ ذَرْعاً مِنْ هذهِ المرحلةِ التي لنْ تنتهي... كلُّ شيءٍ فيها يحتاجُ إلى إصلاحٍ وتصويبٍ!
- ما بكِ يا علا؟ لماذا أنتِ يائسةٌ لهذهِ الدرجةِ! الأمرُ لا يستحقُّ كلَّ ذلكَ.

كلُّنا نخطئُ، وهذهِ هيَ طبيعةُ البشرِ. وقد تكونُ أخطاؤك الآنَ أكثرَ أو تلاحظينَها وتدركينَ حجمَها بشكلٍ أدقَّ وأعمقَ لأنّكِ تكبرينَ، وتتعرفينَ على الحياةِ ومعناها، وعلى طبيعةِ النفسِ البشريّةِ ونقاطِ قوّتِها

وضعفِها، تذكّري أنّكِ تؤجَرِينَ على صبرِكِ في مجاهدةِ نفسِكِ، وكذلكَ صبرُكِ على أذى الناسِ له أجرٌ كبيرٌ، هذه هي الحياةُ الدنيا، أمّا الحياةُ الحقيقيةُ فهيَ هناك، إنّها الحياةُ الآخرةُ، حيثُ الخلودُ الدائمُ والسعادةُ المطلقةُ التي لاتعرفُ الحزنَ والشقاءَ، لكنّنا لنْ نتمتعَ بهذهِ السعادةِ الحقّةِ إلا بعدَ دفعِنا لثمنِها هنا في الدنيا، حيثُ مجاهدةُ النفسِ و العملُ على الإصلاحِ.

- الأمرُ صعبٌ يا أمّي. شاقٌّ على النفسِ.
- كلامُكِ صحيحٌ ، ذلكَ لأنَّ الأجرَ عظيمٌ.
- ادعي اللهَ لي يا أمّي أنْ يعينَني.

و الآنَ .. يجبُ أنْ أُصلحَ ما أفسدْتُ .. عليّ أنْ أطلبَ السماحَ مِنْ أخي الصغيرِ، وأطيّبَ خاطرَهُ.

- أحسنْتِ يا علا .. جمّلَكِ اللهُ بالحلمِ والرحمةِ والحكمةِ والصدقِ، وأعانَكِ على إصلاحِ نفسِك.

- أشكرُكَ يا أمّي .. لا حرمَني اللهُ منكِ. أعتذرُ مرّةً أخرى يا حبيبتي.
- لا عليكِ يا بنتي. فلكلِّ صبرٍ أجرُه.

تبادلْنا الابتساماتِ وأسرعْتُ إلى أخي كي أصلحَ ما أفسدْتُه.

- ٥ -



(مفتاحُ حلِّ أيِّ مشكلةٍ يكمنُ في معرفةِ أصلِ المشكلةِ وتحديدِ سببِها، وليسَ في البحثِ عنْ حلٍّ لآثارِها ونتائجِها!)

يومٌ جديدٌ " اللهمّ إنّي أسألُكَ مِنْ خيرِ هذا اليومِ، فتحِهِ ونصرِهِ ونورِهِ وبركتِهِ وهدايتِهِ وأعوذُ بكَ مِنْ شرِّ ما فيهِ وشرِّ ما بعدَهُ".[1]

[1] – الحديث: "إذا أصبح أحدكم فليقل أصبحنا وأصبح الملك لله رب العالمين اللهم إني أسألك خير هذا اليوم فتحه ونصره ونوره وبركته وهدايته وأعوذ بك من شر ما فيه وشر ما بعده ثم إذا

تمتمْتُ بهذا الدعاءِ وأنا أغلقُ بابَ المنزلِ منطلقةً إلى المدرسةِ.

دخلْتُ الصفَّ بابتسامةٍ وزّعتُها على كلِّ مَنِ التقيْتُ بهنّ مِنْ زميلاتي فبادلنَني مثلَها.

مضَتِ الحصصُ الدرسيّةُ على نحوٍ طيّبٍ وجاءَتِ الباحةُ... كانتِ الضحكاتُ تتعالى هُنا وهُناك، فقدْ كانَتْ رفيقةٌ لنا تجيدُ إلقاءَ النكتِ وتمثيلَها بأداءٍ رائعٍ، تجعلكِ تضحكينَ مِنْ أعماقِ قلبِكِ، فلم نشعرْ بمرور الوقتِ حيثُ أعلنَ الجرسُ بدءَ الحصّةِ منذُ ثلاثِ دقائقَ، سارعْنا إلى الصفِّ فإذا بالمدرّسةِ تنظرُ إلينا بوجهٍ يعلوهُ الغضبُ.. ساد الصمتُ الصفَّ، وبدا الاعتذارُ بادياً على وجوهِنا، فابتسمَتِ المدرّسةُ تبسُّماً فيه عتبٌ ثمّ قالتْ: أفرحكُنَّ اللهُ و أضحكَ سنّكنّ، انتبهن في المرةِ القادمةِ كي لا

أمسى فليقل مثل ذلك". الراوي: المحدث: ابن القيم–المصدر: زاد المعاد –الصفحة أو الرقم: ٢/ ٣٤٠ ، خلاصة حكم المحدث: حسن

يسرقكنّ الوقتُ.

ثمَّ بدأتْ درسَها الممتعَ، وفي خاطرِ كلِّ واحدةٍ منّا الامتنانُ والإعجابُ لتجاوزِها عَنْ هفوتِنا برحمةٍ وحزمٍ؛ ولعلَّ أدبَنا وإحساسَنا بالذنبِ والندمِ على ما قمنا بهِ هو الذي دفعَها لتجاوزِ خطئِنا.

مضَتِ الحصّةُ بسرورٍ إلا اللحظاتِ الأخيرةَ منها فقد حدثَ ما لم يكنْ في الحسبانِ. سمعْنا ضحكةً خرجَتْ من إحدى رفيقاتِنا ونحن نسجّلُ ما كُتِبَ على السبّورةِ، ممّا أخرجَنا مِنْ صمتِنا إلى عتابٍ شديدٍ مِنَ المدرّسةِ لرفيقتِنا ومعاقبتِها عقاباً شديدَ اللهجةِ. انفجرَتْ زميلتُنا بالبكاءِ الذي شقّهُ صوتُ الجرسِ مُعلناً نهايةَ الحصّةِ.

خرجَتِ المدرّسةُ وقد غابَتْ عنها ابتسامتُها المعهودةُ وكذلكَ عنْ وجوهِنا، أسرعْنا إلى زميلتِنا نستخبرُ منها ماحدثَ.. لم نفهمْ شيئاً مِنْ شدّةِ البكاءِ، وسرعانَ ما عدْنا إلى مقاعدِنا عند بدايةِ

الحصّة الدرسيّةِ.

كنّا نستعجلُ عقاربَ الساعةِ حتّى تنتهيَ الحصّةُ لنسرعَ إلى زميلتِنا ونستفهمَ ما حدثَ.

كانَ الجميعُ يواسونَها، ويضعونَ اللومَ على المدرّسةِ في عتابِها على ضحكةٍ غيرِ مقصودةٍ.. كانَ هذا رأيُهنّ.

لم أستطعْ أنْ أتحدّثَ معَ صديقتِي بما أريدُهُ، وعندَ الانصرافِ كانَتْ رفيقتِي تبحثُ عنّي، وسرعانَ ما بادرتْني بالسؤالِ : ما رأيُكِ فيما حدثَ؟

ردّدتُ فوراً : إنّي أرغبُ أنْ أسمعَ منكِ، ما رأيكِ أنتِ؟

قالَتْ : أعلمُ أنّي مخطئةٌ ولكنْ لم أكنْ أقصدُ، وفي الحقيقةِ لقدِ انزعجْتُ كثيراً مِنْ عتابِها، وممّا زادَ في انزعاجي وصولُ خبرِ ما حدثَ إلى أسماعِ مدرّسةِ اللغةِ العربيّةِ التي تعلمينَ كم أكنُّ لها

مِنَ الاحترامِ والحبِّ، فعاتبتْني كثيراً.

لقد سئمتُ يا علا.. إنّني كلّما قمْتُ بعملٍ وصلَ خبرُهُ إليها، إنّي أفكّرُ جدّيّاً في الانتقالِ مِنَ المدرسةِ.

صعقنيَ الخبرُ.. فلم أنبسْ بكلمةٍ وكانَتْ علائمُ وجهي يسودُها الاستغرابُ الشديدُ.

سألتْني رفيقتِي : ما رأيُكِ؟

- قلْتُ لها : في ماذا ؟
- في الانتقالِ مِنَ المدرسةِ.
- هل تقصدين ذلكَ فعلاً!

هزّتْ رأسَها بالإيجابِ.

قلتُ لها : هل المشكلةُ في المدرسةِ هو وصولُ الخبرِ إلى المدّرسةِ التي تحبينها؟ هل هذا هو جوهر المشكلة وسببُها

برأيك؟

صمتَتْ كثيراً وأطرقَتْ.

ثمّ أضفْتُ قائلةً :

-تعلمينَ يا هبةُ أنّي أحبُّكِ، وأنا أعلمُ أنّكِ تحبّينَ الصراحةَ والحقَّ. هل هذا صحيح؟ وهل تريدينَ رأيي حقّاً مهما كانَ؟

- بالتأكيدِ نعم، فأنا أثقُ في رأيكِ وصدقِ نصحِكِ لي.

-يا هبةُ ليستِ المشكلةُ في معرفةِ فلانٍ بما حدثَ، يجبُ أنْ ننظرَ إلى جوهرِ المشكلةِ، ولا نحاولَ الالتفافَ حولَها أو الهروبَ منها، لاشكَّ أنَّ المشكلةَ ستعودُ للظهورِ في المدرسةِ الأخرى، لأنَّ المشكلةَ في السلوكِ الذي قمتِ بهِ، و ليسَ في المكانِ! فكيفَ يكونُ الحلُّ تغييرُ المكانِ؟!

لا أظنُّ أنَّ الحلَّ يكمنُ في تغييرِ المدرسةِ، بلْ يجبُ أنْ

ننتبهَ أكثرَ إلى السلوكِ ونصحِّحَهُ. هذا رأيي، هل توافقينَني عليه؟

لم تخيِّبْ هبةُ ظنّي بها، فقد هزّتْ رأسَها وقالَتْ :

-صدقْتِ، وشكراً لكِ، لقد أريتِني مالم أرَهُ.. شكراً لكِ أيّتُها الصديقةُ الصدوقةُ.

و لم ننهِ الحديثَ إلا أنّهُ كانَ علينا أنْ نتوقّفَ لنفترقَ في الطريقِ حتّى تعودَ كلٌّ منّا إلى منزلِها.

كنتُ أسيرُ ببطءٍ وأنا أفكّرُ فيما حدثَ، وأقولُ في نفسي: حقّاً إنّ الإنسانَ أحياناً لا يرى بشكلٍ صحيحٍ إلا إذا استفادَ مِنْ آراءِ أناسٍ ينظرون للموقفِ مِنْ بعيدٍ أو مِنْ زاويةٍ أُخرى، لأنَّ ذلكَ يجعلُ صورةَ الموقفِ أكثرَ وضوحاً واكتمالاً.

حقّاً لقد أكبرْتُ موقفَ هبةَ لاهتمامِها بمعرفةِ رؤيةِ مَنْ يرى

مِنْ بعيدٍ، و يصدقُها النصحَ.. إنّها حقّاً تريدُ الحقَّ ولا شيءَ سواهُ. إنّها مخلصةٌ وصادقةٌ في إصلاح نفسِها على الرغمِ مِنْ أنّها في لحظةٍ ما كادتْ أنْ تبتعدَ عنِ الحقيقةِ وعنْ رؤيةِ أصلِ المشكلةِ وجوهرِها.

وصلتُ إلى البيتِ وقد بدا على وجهي التفكيرُ، فسألتني أمّي: ما الخبرُ يا علا؟ بمَ تفكّرين؟

-لا شيءَ يا أمّي .. ثمَّ أخبرتُها القصّةَ.

فابتسمَتْ وربّتَتْ على كتفي وقالتْ :

- أحسنتِ يا علا. لقد أخلصْتِ النصحَ لصديقتِكِ، وأعنتِها على رؤيةِ الحقِّ وتتبّعِ سببِ المشكلةِ وبالتالي العملِ على حلِها.

وقد قيلَ إنَّ " صاحبَ المشكلةِ أعمى"، ذلكَ لأنّهُ يحسُّ فقط بألمِهِ، هذا الشعورُ يبعدُهُ عنْ رؤيةِ كاملِ الموقفِ،

فلا ينظرُ إلا مِنْ وجهةِ نظرِهِ. قاطعْتُ أمّي قائلةً:

- صحيحٌ يا أمّي لكنْ أليسَ هناكَ مثَلٌ يقولُ" ليسَ الذي يأكلُ العصيّ كمَنْ يعدُّها"؟ كيف نجمعُ بينَ المثلَين يا أمّي؟

- صدقْتِ يا بُنيّتي، لكنَّ الجمعَ بينَ هذين المثلَين هو الذي يُضفِي على الصورةِ شفافيةً، ويوضّحُها على نحو عادلٍ وكاملٍ، فشعورُ الإنسانِ بالألمِ يجعلُه لا يرى إلا ألَمَهُ، وبالمقابلِ لن يشعرَ أحدٌ بألمِهِ، وهذهِ رسالةٌ كي يعذرَ بعضُنا بعضاً، ونضعَ أنفسَنا مكانَ هذا الشخصِ المتألّمِ فنرحمَه، ونحاولَ فهمَ موقفِهِ أيضاً، عندئذٍ يمكنُنا أنْ نُسديَ له النصحَ برحمةٍ واعتدالٍ، دونَ تحميلِهِ وزراً لم يرتكبْهُ، وهذا ما يجعلُهُ أكثرَ تقبُّلاً للنصحِ. هل عرفتِ السرَّ يابنتي؟

- هززتُ رأسيَ بابتسامةٍ كبيرةٍ وبريقٍ في عينيّ، لقد فهمْتُ كيفَ أقدّمُ النصحَ ليكونَ وسيلةَ مساعدةٍ للآخرين، وكيفَ عليَّ أنْ أتصرّفَ وأتقبّلَ رأيَ الآخرين فيّ، بلْ

وأسعى لمعرفتِها حتّى يظهرَ الموقفُ على حقيقتِهِ حقّاً.

قبّلتُ رأسَ أمّي، وأسرعْتُ لتبديلِ ثيابي، ثمّ مساعدتِها في إعدادِ الطعامِ.

وعندَ المساءِ سجّلتُ في دفترِ ذكرياتي :

لقد تعلّمتُ اليومَ أنْ أنظرَ إلى الأمورِ والمواقفِ مِنْ جميعِ الجوانبِ، وأحترمَ وأتقبّلَ رأيَ الآخرين لأنّهم يرونَ الصورةَ مِنْ زاويةٍ ثانيةٍ لا أراها أنا، وعندئذٍ فقط تكتملُ الصورةُ، وتغدو واضحةً كما يراها اللهُ جلَّ جلالهُ سبحانَه وتعالى.

- ٦ -

(الروحُ سرٌّ منْ أسرارِ الله، لها موطنٌ عندَ خالقِها، فلا تستأنسُ أو تنشطُ إلا بالاتّصالِ به، وهي مكمنُ قوّةِ الإنسانِ وسرُّ وجودِه)

عدْتُ إلى منزلي متعبةً مرهقةً، لا أدري السببَ، فدخلْتُ ولم أسلّمْ على أحدٍ وأسرعْتُ إلى غرفتي.

كانَ الجميعُ ينظرُ إليّ باستغرابٍ، فلم يكنْ ذلكَ مِنْ عادتي، غيرَ أنَّ أحداً منهم لم ينبِسْ بكلمةٍ.

بدّلْتُ ثيابي واستلقيْتُ على سريري دونَ أنْ أفكّرَ بشيءٍ معيّنٍ.. بدَتْ لي نفسي شاردةً، تعاني المللَ.. لم أرغبْ في عملِ شيءٍ؛ سمعْتُ نداءَ أهلِ بيتيَ لتناولِ الغداءِ، فقمْتُ متكاسلةً وكأنّي

أجرُّ أثقالاً خلفي، ألقيْتُ السلامَ، ثمَّ جلسْتُ في مكانيَ المعتاد.
بادرَني أخي الصغيرُ بسؤالٍ: كيف حالكِ يا علا؟

حاولْتُ رسمَ الابتسامةِ على وجهي أمامَ وجههِ الملائكيِّ الطيّبِ، وقلتُ لهُ: الحمدُ للهِ. ثمَّ تابعْتُ تناولَ طعامي.. ساعدْتُ أمّي في غسلِ الصحونِ وترتيبِ المطبخ دونَ أنْ أتكلّمَ، ثمَّ عدْتُ بهدوءٍ إلى غرفتِي.

لا أدري ما سببُ الكآبةِ التي جعلتْني هادئةً غيرَ راغبةٍ في الكلامِ أو عملِ أيِّ شيءٍ.

أمضيْتُ أكثرَ مِنْ ساعةٍ وأنا بينَ النافذةِ والحاسوبِ على (الفيس بوك)، ولكنْ دونَ البحثِ عنْ شيءٍ معيّنٍ؛ حتّى التواصلُ على الفيس مع الصديقاتِ لم أشعرْ بمتعةٍ فيه.

ومثلُه منشوراتُ النكتِ التي بدَتْ لا نكهةَ لها، ولم تستطعْ أنْ ترسمَ على وجهيَ ابتسامةً واحدةً.. أشعرُ بضيقٍ شديدٍ دونما

سببٍ.

تذكّرْتُ أنّ لديّ قالباً مِنَ الـ(شكولا) في درجِ خزانتِي، أسرعْتُ وقطعْتُ منه قطعةً بدأتُ أُذيبُها ببطءٍ شديدٍ، حتّى طعمُها بدا مُضْجِراً! لم يجعلْني آكُلُه بشهيّةٍ كما هو المعتادُ.

تعجّبْتُ مِنْ نفسي كثيراً، ولم أعرفْ ما بي! وأخيراً قررْتُ أنْ أذهبَ إلى أمّي لأستشيرَها.

ذهبْتُ إلى غرفةِ الجلوسِ حيثُ كانَتْ تشربُ الشايَ مع والدي، ألقيْتُ التحيّةَ وجلسْتُ قليلاً، بادرتْني أمّي بالسؤالِ : هل ترغبينَ بفنجانٍ مِنَ الشايِ؟ قلْتُ لها : لا، و أنا أغادرُ الغرفةَ متّجهةً إلى غرفتِي.

أغلقْتُ البابَ خلفي و تنهّدْتُ، ثمَّ ألقيْتُ نفسي على السريرِ، ويبدو أنّي قد غفوتُ قليلاً، لم أستفقْ إلا على صريرِ بابِ غرفتي، لمحْتُ خيالَ أمّي ففرحْتُ، لكنّها سرعانَ ما أغلقَتِ

البابَ عندما رأتْني نائمةً، فناديْتُ : أمّي، لسْتُ نائمةً.. فعادَتْ إلى غرفتِي وسألتنِي : ما بكِ يا عزيزتي؟ تبدينَ مختلفةً هذا اليوم؟ هل مِنْ خطبٍ جديدٍ حصلَ في المدرسةِ؟

أجبْتُها: لا .. ثمّ تابعْتُ:

ولكنّي أشعرُ بمللٍ، ضجرٍ، اكتئابٍ، لا أرغبُ في عملِ شيءٍ.. كلُّ شيءٍ روتينيّ... حتّى الأشياءُ التي أحبُّها فقدَتْ طعمَها.. حتّى الشكولا يا أمّي لم تعدْ تسعدُني.... كلُّ هذا مِنْ دونِ سببٍ .. لم يحصلْ أيُّ موقفٍ ليكونَ سبباً لما أشعرُ بهِ!

تبسّمَتْ أمّي قائلةً : هل صليْتِ ؟

قلتُ : نعم، و لم يتغيّرْ شيءٌ.

ربّتَتْ على كتفي قائلةً: لا تجزعي يا بنتي ... يبدو أنَّ روحَكِ تحتاجُ بعضَ الغذاءِ.

نظرْتُ إليها باستغرابٍ : روحي تحتاجُ إلى غذاءٍ؟

قالتْ أمّي: نعم .. ألم تتناولي طعامَكِ بعدَ عودتِكِ مِنَ المدرسةِ، و كنتِ منهكةً فاستردَدتِ بعضَ العافيةِ والقوّةِ؟

هززْتُ رأسيَ بالإيجابِ.

قالت : كذلكَ روحُكِ تحتاجُ إلى طعامٍ.

قلْتُ: و لكنّي صلّيْتُ.

فقالت: كيفَ صلّيْتِ؟ و أنتِ شاردةُ الذهنِ؟

هززْتُ رأسيَ مرّةً أخرى: نعم .

-الروحُ تحتاجُ إلى طعامٍ، وهو الصلةُ بخالقِها، و بدونِ هذهِ الصلةِ تعتلُّ ، كالجسدِ تماماً.. لذلكَ عندما تشعرينَ بالمللِ أو الضجرِ فهو مؤشّرٌ لحاجةِ روحِكِ للطعامِ الروحيّ وليس لطعامِ

الجسدِ. لذا لنْ تسعدي بالشكولا التي تحبينَها.. أو ربّما قد تسعدينَ ولكنْ للحظاتٍ قليلةٍ.

أمّا صلاتُكِ فقد صلّيتِ بجسدِكِ دونَ قلبِك.

قلبُكِ هو مستودعُ السعادةِ، وهو مكانُ نظرِ اللهِ إليكِ. وهو الذي تستشعرينَ بهِ حلاوةَ الصلةِ باللهِ، فإنْ صلّيتِ وقلبُكِ مشغولٌ عنِ اللهِ بأشياءَ أخرى لن تذوقي شيئاً مِنْ هذهِ المعاني، فتكونينَ كمَنْ دخلَ المطعمَ فنظرَ إلى الأطعمةِ الشهيّةِ ثمّ غادرَ دونَ أنْ يتناولَ منها شيئاَ!

- تقصدينَ يا أمّي أنّ سببَ ما أشعرُ به مِنْ الضيقِ هو نقصٌ في غذائيَ الروحيّ؟

هزّتْ أمّي رأسَها موافقةً.

- ولكنّي لا أشعرُ بالرغبةِ حتّى في الصّلاةِ أو قراءةِ

القرآنِ.

تبسّمَتْ أمّي، وقالَتْ:

-هل تذكرينَ عندما مرضتِ منذُ فترةٍ، فلم تشتهي الطعامَ خلالَ مرضِكِ! حتّى طعامُكِ المفضّلُ رفضتِهِ! هل تذكرين؟

-نعم، هذا صحيحٌ يا أمّي، ولكنْ ما علاقةُ ذلكَ بما نتحدّثُ به؟

-الجسدُ عندما يمرضُ يعافُ الطعامَ، وكذلكَ الروحُ عندما تمرضُ لا تستسغُ الطعامَ الروحيّ.

فتحْتُ فمي باستغرابٍ، فقد كانَ التشبيهُ بليغاً بالنسبةِ لي، لم يخطرْ في بالي مطلقاً!

فتابعَتْ أمّي :

-مِنْ أجلِ ذلكَ علينا أنْ نجاهدَ أنفسَنا لكي نطعمَها ما تحتاجُهُ وإلا اعتلّتْ، وعلى هذا نؤجرُ أيضاً، ألمْ تسمعي قولَ اللهِ تعالى: (و الذينَ جاهدُوا فينا لنهدينّهم سُبُلَنا وإنّ اللهَ لمعَ المحسنين)

- آه يا أمّي كم ينقصُني الكثيرُ لأتعرّفَ على نفسي، وما يصلحُها، ويجعلُها صحيحةً سليمةً.

أمّي هلاّ ساعدتِني وصلّينا صلاةَ المغربِ معاً، فأنا أحبُّ صوتَكِ مترنّمةً بالقرآنِ الكريمِ، لعلَّ ذلكَ يساعدُني أكثرَ في قيادتي نفسي؟

- حسناً ... استعدّي للصلاةِ.

- شكراً يا أمّي .

قبّلتُ يديْها، وكأنَّ شيئاً مِنْ روحي قد ارتدّ، ثمّ أسرعْتُ للوضوءِ.

فعلاً الإنسانُ أحياناً يحتاجُ مَنْ يعينهُ على الطاعةِ عندما تُحجِمُ النفسُ و تمرّدُ.. الحمدُ للهِ أنْ أكرمَني بوالدَينِ صالحَينِ يعيناني على طاعتهِ.

ثمّ رُنّ جرسُ الهاتفِ، وسمعْتُ صوتَ أمّي تناديني: علا ، ارفعي السمّاعةَ.. إنّها رفيقتُك.

- أهلاً سمر كيفَ حالُك؟ أنا بخيرٍ ولله الحمدُ ...

امم .... سأسألُ أمّي و أخبرُكِ.

-أمّي ما رأيكِ أنْ أذهبَ مع سمر، لديها رفيقاتٌ يحفظْنَ القرآنَ و يتعلّمن الدين؟

-موافقةٌ طبعاً يا بنتي. و أظنّك ستشعرينَ ببعضِ التحسّنِ وتستردّينَ عافيتَكِ الروحيّةَ، فلا بدّ للإنسانِ مِنْ صحبةٍ صالحةٍ. وفّقكِ اللهُ يا بنتي ولكنْ لا تتأخّري.

- شكراً يا أمّي، لن أتأخّر بإذنِ اللهِ.

-٧-



(مَنِ ابتعدَ عنِ الفطرةِ ضلّ، ومَنْ حادَ عنِ الطريقِ شرد، ومَنْ حامَ حولَ الشبهاتِ والشهواتِ سقط)

انضمّتِ اليومَ طالبةٌ جديدةٌ إلى صفّنا، كانَتْ غريبةَ الأطوارِ بعضَ الشيءِ، على يدِها وشومٌ بلونٍ أسودَ كالعينِ وأشكالٌ هندسيّةٌ غريبةٌ.

لا أدري ... لم أجدْها قريبةً إلى قلبي، شيءٌ غريبٌ يبعدُني عنها، رغمَ أنّي لم أرَ منها شيئاً سيّئاً!

الجميعُ كانَ حذِراً منها، وكذلكَ بعضُ المدرّساتِ اللواتي بدا على وجههنَّ عدمُ الارتياح لهيْئَتِها، إذ إنَّ شعرَها لم يكنْ منظّماً، وتلكَ الوشومُ الغريبةُ زادت نظرةَ الريبةِ إليها.

باستثناء مدرّستي التي أفضّلُها عن غيرِها لما تمتازُ بهِ مِنْ حكمةٍ وصبرٍ وبصيرةٍ نافذةٍ، أشعرُ وكأنّها تعرفُ كلَّ شيءٍ عنِ الكونِ والناسِ، كلَّ شيء....

حقّاً إنّها رائعةٌ.. ربّما لأنّي أحبُّها استفضْتُ في مدحِها، لكنّها حقّاً مدرّسةٌ قديرةٌ بكلِّ معنى الكلمةِ، تحترمُ الجميعَ. لم أتوقّعْ أنْ تعاملَها باحترامٍ، بل و تتودّدَ إليها بابتسامتِها الهادئةِ الرزينةِ، ربّما أثارَ ذلكَ التساؤلَ أو الاستغرابَ عندَ الكثيراتِ منّا، حتّى أنا استغربْتُ في بادئِ الأمرِ، إلا أنّي تذكّرْتُ مواقفَها الحكيمةَ وكيفيّةَ استيعابِها لمشكلاتِنا وردودِ أفعالِنا العنيفةِ أحياناً أو الخارجةِ عنِ المألوفِ بحنكةٍ و حنانٍ، تجعلُ المذنبَ منّا يستشعرُ

كم هو مخطئٌ في حقّها، ويقولُ في نفسِهِ: ما أغباني، إذ أزعجْتُ هذه الإنسانةَ الرائعةَ.

استفقْتُ مِنْ أفكاري على صوتِ زميلتي:

-ما رأيكِ بـ ؟!!... وغمزتْني في اتّجاهِ هذهِ الطالبةِ الجديدةِ.

نظرْتُ إليها نظراتٍ ربّما بدَتْ غريبةً بعضَ الشيءِ، لأنّي حقّاً لم أملكِ الجوابَ، كانَ يشغلُني أسلوبُ تعاملِ مدرّستي المفضّلةِ معها، لِمَ كانَتْ ودودةً رغمَ شعورِنا جميعاً بعدمِ الارتياحِ؟ تمنّيتُ لو أستطيعُ أنْ أسألَها لأتعلّمَ وأعرفَ السرَّ.. لكنّهُ ظلَّ حبيساً في أفكاري، فلم أكُنْ أجرؤُ على فعلِ ذلكَ.

عُدْتُ إلى منزلي وأنا صامتةٌ مطرقةُ الرأسِ تشغلُ ذهنيَ هذهِ الأفكار.

وصلْتُ البيتَ، وسلّمتُ على أمّي، وقبّلتُ يدَها، ثمّ خطرَ لي أنْ

أسألَها، علّي أجدُ الجوابَ الشافي.

قصَصْتُ عليها ما رأيْتُ وخواطري وردودَ أفعالِ الطالباتِ والمدرّساتِ. وأمّي تستمتعُ بانتباهٍ شديدٍ، وعندما انتهيْتُ سألتُها: ما رأيُك؟!

فبادرَتي بالسؤالِ ذاتِهِ. وأصرَّتْ أنْ تعرفَ رأيي قبلَ أنْ تُدليَ برأيِها. فقلْتُ لها:

أنا لا أعرفُ معنى هذه الإشاراتِ والرموزِ التي تضعُها، لكنّي لم أشعرْ بالراحةِ لها، وجميعُنا فضّلَ الابتعادَ عنها، وكنْتُ أظنُّ أنَّ ما فعلناهُ هو الصائبُ، غيرَ أنَّ احتواءَ مدرّستي لها وتوددَّها لها جعلَني أستغربُ و أعيدُ النظرَ في تصرّفاتي. فهل أنا على صوابٍ يا أمّي؟

-نعم .. نعم يا بنتي ... أنتِ على صوابٍ في الحذرِ، ريثما تعلمين هويّةَ معتقداتِها.. و أيضاً المدرّسةُ على صوابٍ.

-رددْتُ باستغرابٍ: كيف!!!! نحنُ الاثنتانِ معاً على صواب؟؟

- همهمَتْ و قالتْ : امم ... نعم ...

- ولكنْ كيفَ؟ كلانا على طرفَي نقيضٍ!!

-ما رأيُكِ أن نبحثَ معاً على (النت) عن معنىً لهذهِ العلاماتِ، أذكرُ أنّي قرأتُ شيئاً عنْ إحدى الجماعاتِ الشبابيّةِ التي بدأَتْ تنتشرُ مؤخّراً ، ولها وشومٌ تشبهُ ما ذكرتِهِ..
-حسناً......... و ركضْتُ إلى غرفتِي لأحضرَ حاسوبي.

بعدَ ربعِ ساعةٍ مِنَ البحثِ وجدْنا مقالاً يشيرُ إلى جماعةٍ تُدعى " Emo " و هي مختصرٌ للجملةِ الآتيةِ:

Emotive Driven Hardcor Punk أي متمرّدونَ ذوو نفسيةٍ حسّاسة.

و هي جماعةٌ سمَّوْها بالبدايةِ على نوعٍ مِنَ الموسيقا التي تبدأُ هادئةً

ثمَّ تشتدُّ، وسُمِّيَتْ لجماعةٍ تتبعُ نظامَ لبسٍ وموسيقا معيّنين وتسريحةِ شعرٍ خاصّةٍ بهم، هذهِ الظاهرةُ منتشرةٌ في شريحةِ المراهقين بينَ ((عمري،١٢-١٧)) ومَنْ يتعدّى سنَّ الـ (١٧) سيتخلّى عنْ هذهِ الجماعةِ..!! انتشرَتْ في أوربا وأمريكا في ١٩٨٤، أفرادُها يستمعونَ إلى موسيقا الهاردروك الصاخبة. وصارَتْ مِنْ أكثرِ الظواهرِ انتشاراً بينَ المراهقينَ، في الدولِ الغربيّةِ وبعضِ الدولِ الشرقيّةِ وفي البلدانِ العربيّةِ بشكلٍ كبيرٍ.

و موسيقى الإيمو نوعٌ مِنْ أنواعِ الموسيقا ينتمي إلى الروك والميتال.. تحكي عَنِ الألمِ والحزنِ، هذهِ الموسيقا تفتقرُ إلى اللحنِ الغنائيِّ، وتكونُ الموسيقا مزعجةً جدّاً.

تعدُّ الإيمو المرحلةَ الأولى في إفسادِ المراهقينَ الناشئين، وهي الأفضلُ لجعلِهم ينتقلونَ بدونِ شعورٍ إلى المرحلةِ الثانيةِ مِنْ خطّةِ إفسادِ الشبابِ المسلمينَ خاصّةً والعربِ بشكلٍ عامّ .

والمرحلةُ الثانيةُ هي: الميتال:

- مصطلحٌ يعبّرُ عَنْ صوتِ الموسيقا الرنّانِ الصاخبِ جزءٌ مِنْ موسيقا الروك الصاخبةِ لكنْ بإيقاعٍ أسرعَ وسوداويّةٍ أكثر.

- مضمونُ هذهِ الموسيقا يحكي عنِ الموتِ والفنتازيا والحروبِ والحزنِ والشيطانيّةِ والوثنيّةِ

- يتميّزُ معظمُ مستمعي الميتال بتصرّفاتِهمُ الغريبةِ، غيرِ المتّزنةِ عقليّاً، شخصيّتُهم انعزاليّةٌ، وسوداويّةٌ، ومريضةٌ، ومعقّدةٌ.. طبعاً إلا ما رحمَ ربّي.

وبالتالي يتمّ تدميرُ الشبابِ باستدراجِهم مِنْ جماعاتِ مراهقينَ معجبينَ بموسيقا معيّنةٍ لجماعاتِ (الميتال) التي تُعتبرُ أقربَ الجماعاتِ لعبدةِ الشيطانِ، ويؤدّي ذلكَ إلى خللٍ اجتماعيٍّ ناتجٍ عَنْ تركِ القيمِ والمبادئِ الفاضلةِ واتباع قيمِ الرذيلةِ والانحرافِ.

توقّفْتُ عَنِ القراءةِ ... ولم أعدْ أرغبُ بأنْ أكملَ.

- أمّي.. ألهذا الحدِّ هناكَ أناسٌ بهذا الشكلِ مِنَ الفسادِ والإفسادِ؟!!

تبسّمَتْ أمّي وقالَتْ:

- الخيرُ والشرُّ يا بنتي موجودان، في كلّ زمان ومكان. هذا هو امتحانُ البشرِ، ووفقَ اختياراتِهم تكونُ عاقبتُهم إمّا الجنّةُ أو النارُ والعياذُ بالله، ولولا هذا التكليفُ في تتبّعِ الخيرِ والابتعادِ عَنِ الشرّ لما كانَ هناكَ سببٌ في العقابِ أو المثوبةِ.

أحسستُ أنَّ الدنيا تدورُ بي، ولا أحتملُ المزيدَ مِنَ الأفكارِ، شعرْتُ بأنّي أريدُ أنْ أهربَ مِنْ هذهِ الأفكارِ، لا أريدُ أنْ أواجهَ نفسي بحقيقةِ الدنيا والمجتمع... ففضّلْتُ أَنْ أستأذنَ أمّي في أخذِ قسطٍ مِنَ النومِ.

أشارَتْ أمّي بالإيجابِ على ما طلبْتُ، لكنّها قالَتْ: ألا تريدينَ

رأيي في تصرّفكِ وتصرّفِ مدرّستِكِ...

هززْتُ برأسي وقلْتُ لها: عندما أستيقظُ إنْ شاءَ اللّٰهُ.

ألقيْتُ برأسيَ المثقلِ على وسادتي، لم أشأْ أنْ أفكّرَ بأيِّ شيءٍ، ورغمَ عدمِ سهولةِ استسلامي للنومِ لكثرةِ الأفكارِ التي أخذَتْ تجولُ في ذهني، إلا أنّي نمْتُ بعدها قُرابةَ ساعة.

استيقظْتُ - ولِلّهِ الحمدُ - وشعرْتُ ببعضِ النشاطِ العقليّ والجسديّ.. خرجْتُ مِنْ غرفتِي، واتّجهْتُ إلى المطبخِ لشربِ عصيرٍ أو فنجانٍ مِنَ القهوةِ.

غمرْتُ نفسيَ بالدراسةِ حتّى انتهيْتُ، وعندها أطلقْتُ تنهيدةً طويلةً، ثمّ تناولْتُ حاسوبي لأتجوّلَ في (النت) و أرى صفحتِي في "الفيس بوك".

مرّتْ دقائقُ و أنا أغالبُ نفسي في ألّا أفكّر برفيقتِنا غريبةِ

الأطوارِ التي انضمّتْ إلينا، لكنْ عبثاً حاولْتُ. وجدْتُ نفسي أفكّرُ، وأعيدُ شريطَ الأحداثِ بدْءاً مِنَ المدرسةِ ووصولاً لكلامِ أمّي، و ما قرأْناهُ.

لم أصلْ لنتيجةٍ في تفسيرِ قولِ أمّي" إنّ تصرّفي وتصرّفَ مدرّستي صحيحان ".

غادرْتُ غرفتي باحثةً عَنْ أمّي، وأنا أتمنّى أنْ أجدَها غيرَ منشغلةٍ.

الحمدُ للهِ تحقّقَ ما تمنيْتُ.. ألقيْتُ عليها التحيّةَ.

فسألتْني:

- هل ارتحتِ، و أنهيْتِ دراستِكِ؟

-نعم يا أمّي و للهِ الحمد.

تبسّمَتْ وقالَتْ: وهل مازالَ الموضوعُ الذي تحدّثنا عنهُ يشغلُ بالَك؟

- كثيراً.. في الحقيقةِ كأنّي صُدمْتُ بالواقعِ! كنْتُ أظنّه أجملَ مِنْ ذلك!

تبسّمَتْ أمّي بهدوئِها المعتادِ الجميلِ:

- يا علا، كما قلتُ لكِ هذهِ هي الحياةُ، هناكَ أناسٌ ضعافُ النفوسِ يغلبُهُمُ الشيطانُ والشهواتُ والأهواءُ عنِ اتّباعِ الفضيلةِ والقيمِ الرفيعةِ، وهناكَ أناسٌ يضحّونَ بحياتِهم مِنْ أجلِ هذهِ القيمِ الرفيعةِ، هذهِ هي الحياةُ الواقعيّةُ، والإنسانُ مخيّرٌ فيما يختارُهُ مِنَ اتّباعِ الحقِّ والفضيلةِ أو اتّباعِ الهوى والشيطانِ، وهذا هو التكليفُ والاختبارُ الذي سنُثابُ عليهِ أو نُعاقَبُ، و أحياناً يضعُفُ الإيمانُ فينا فنميلُ عنِ الحقِّ ونرتكبُ الأخطاءَ، وأخرى نغلبُ

الشيطانَ و هوى النفسِ وننتصرُ للحقِّ والخيرِ، والحربِ في النفسِ البشريّةِ سجالٌ، لا تهدأُ ولا تسكنُ، وكلّما زادَ الإيمانُ سهلَ الانتصارُ على هوى النفسِ والشيطانِ، وبالعكس.

- وما الذي يساعدُني في تقويةِ إيماني يا أمّي كي يحالفَني النجاحُ والانتصارُ على نفسي وشيطاني؟

- الإيمانُ يزيدُ وينقصُ، تزيدُهُ الطاعاتُ والعباداتُ والمعرفةُ باللهِ والتفكّرُ بآياتِ اللهِ ونعمهِ وفضلهِ، ممّا يزيدُ محبّتَهُ في قلبِك، ويجعلُكِ تخجلينَ أو تخشينَ القيامَ بما لايرضيه، أو يبعدُكِ عنْ لحظاتِ الأنسِ بهِ والتي يضفيْها عليكِ نتيجةَ استقامتِكِ على أمرِهِ، وحرصِكِ على رضاه.

- أمّي كلامُك يجعلُني أخافُ مِنْ نفسيَ حقّاً! الأمرُ ليسَ سهلاً على الإطلاق.

- ومَنْ قالَ لكِ إنّ الحصولَ على الجنّةِ لا يتطلّبُ منكِ تقديمَ البرهانِ على محبّتِكِ للهِ وإيثارِكِ لطاعتهِ؟

- كلامُكِ صحيحٌ، ولكنّي خائفةٌ حقّاً.

- يا بنتي، عليكِ بمجاهدةِ نفسِكِ، فهي الدليلُ على صدقِ طلبِكِ للهِ ومحبّتِكِ له، وإلا فأيُّ إنسانٍ سيدّعي أنّهُ يحبُّ اللهَ، وكثيرٌ مِنَ الناسِ يفعلُ ذلكَ دونَ برهانٍ ودليلٍ! فتراهُ يرفضُ الأوامرَ الإلهيّةَ فلا يريدُ أنْ يصلّيَ، ولا تُريدُ أنْ تتحجّبَ، أو تلتزمَ بالأوامرِ الإلهيّةِ... ثمّ تقولُ إنّها تحبُّ اللهَ!

- صحيحٌ يا أمّي. إنّي أسمعُ ذلكَ كثيراً.

- هل إذا طلبْتُ منكِ عملاً ما، أو نهيْتُكِ عنْ شيءٍ، ثمَّ رفضْتِ أنتِ كلَّ ذلكَ، وأتيتِني تقسمينَ باللهِ إنّكِ تحبينني! هل يمكنُ أنْ أصدّقَكِ؟ أو هل قدّمتِ لي دليلاً

على محبّتِك تجعلُني أصدِّقُكِ؟

- لا طبعاً يا أمّي! محبّتي لكِ ستجعلني أُسرعُ في تلبيةِ ما تطلبينَه خصوصاً أنّي أعلمُ تماماً أنَّ ما تطلبينَه منّي لمصلحتِي.

- تماماً يا بنتي.. وللهِ المثلُ الأعلى، فكذلكَ معَ اللهِ يجبُ أنْ تقدّمي برهاناً لمحبّتِك مِنْ صلاةٍ وعبادةٍ وطاعةٍ في جميع ما أمرَهُ.

- امم .. كثيراً يا أمّي ما وقفْتُ عاجزةً عنْ إعطاءِ هذهِ الحُجّةِ لمَنْ يدّعي أنّهُ يحبُّ اللهَ ثمَّ يصرُّ ألا يصلّيَ أو يقومَ بما أمرَه اللهُ.. بحجّةِ أنَّ المحبّةَ في قلبِهِ واللهُ أعلمُ بها.

- إنّها مراوغةُ النفسِ البشريّةِ للهروبِ مِنَ التكليفِ، وفي الوقتِ ذاتِهِ لا تريدُ أنْ تعترفَ بخطئِها أو ضعفِها في تنفيذِ أمرِ اللهِ، وتقديمِ دليلِ المحبّةِ، معَ أنَّ البشرَ لا يقبلونَ في

إثباتِ محبّتِهم لبعضِهم إلا بدليلٍ.. الأمُّ تطلبُهُ مِنَ الأبناءِ، الزوجُ والزوجةُ... عجيبٌ أمرُ الإنسانِ وتحايلِهِ!

- صحيحٌ يا أمّي.. صدقْتِ. أعانَنا اللهُ على أنفسِنا. ولكنّكِ لمْ تخبريني كيفَ أنَّ كلينا أصابَ في تصرُّفِهِ وشعورِهِ معَ تلكَ الفتاةِ ؟!

- لا تستغربي يا بنتي. مدرّستُكِ تعرفُ هذهِ المعلوماتِ التي عرفناها منَ (النت) على ما يبدو، وهي مربّيةٌ وموجّهةٌ، هذهِ هي رسالتُها في الحياةِ، إنْ تصرّفَتْ بغيرِ ودٍّ تِجاهَها فلنْ تستطيعَ الاقترابَ منها لنصحِها فيما بعدُ، فلعلَّ هذهِ الطالبةَ تقلّدُ أحداً فقط، أي ربّما لا تحملُ الأفكارَ الخاطئةَ لهذهِ المجموعةِ مِنَ الناسِ، وقلّدَتْ تقليداً أعمى، مجرّدَ "موضة" أو سمّيها "صرعة" أو "تقليعة".. سمّيها ما شئْتِ. فسبيلُ الإصلاحِ لا يأتي مِنَ التنكّرِ والابتعادِ عنها أو

رميِها بنظراتِ احتقارٍ أو استغرابٍ.

أمّا أنتِ، فلا تعلمينَ هذهِ المعلوماتِ، واستشعرْتِ بفطرتِكِ السليمةِ أنَّ الأمرَ فيهِ رِيبةٌ، فابتعدتِ ريثما تعلمينَ أكثرَ عَنِ الموضوعِ لتتّخذي الموقفَ المناسبَ، فأنتِ على صوابٍ في موقفِكِ هذا.

ارتسمَتِ ابتسامةُ فرحٍ كبيرةٍ على وجهي، وألقيْتُ بنفسي على يدِ أمّي أقبّلُها:

-أشكرُكِ يا أمّي.. لقد بدَتِ الصورةُ واضحةً جدّاً. ولكنْ.. ماذا أفعلُ وكيفَ أتصرّفُ الآنَ معها بعدَما علمْتُ خطأَ هذهِ التصرّفاتِ والأفكارِ التي ربّما تنتمي إليها هذهِ الطالبةُ؟

-هل لديكِ القدرةُ على مساعدتِها في إظهارِ خطأِ هذهِ المعتقداتِ وتوضيحِها لها؟

سألتْني أمّي ذلكَ وهيَ تنظرُ إلى عينيَّ بدقّةٍ لتستشفَّ منّي

ما يدورُ في ذهنِي.

-أظنُّ أنّي أستطيعُ.. فلديَّ إيمانٌ قويٌّ باللهِ سبحانَهُ وبالقيمِ الفاضلةِ.

- إذا كنتِ تستطيعينَ التأثيرَ بها بشكلٍ إيجابيٍّ فيجبُ ألّا تبادرِيها الجفاءَ، بل عليكِ التوددُّ إليها حتّى تثقَ بكِ، دونَ أن تجرَّكِ هي إلى مستنقعِ الأفكارِ الخاطئةِ، وإنْ شعرْتِ أنّكِ بدأتِ تتأثّرين ابتعدِيْ بسرعةٍ ولطفٍ، أمّا إذا قدَرْتِ على نقلِها إلى أجواءٍ نقيّةٍ فحاولي استنتاجَ رأيِها بهذهِ الأفكارِ والوشومِ، ثمَّ حاولي إقناعَها، وإذا رأيتِ أنَّ حجّتَكِ أضعفُ مِنْ حُجّتِها وستؤثّرُ عليكِ سلباً ابتعدي بهدوءٍ ولا تخوضي معها، والزمي الحيادَ، فلا تكوني فظَّةً، ولا تجعليها صديقتَكِ، وأخبريني ما يحصلُ معكِ مِنْ نقاشٍ لأساعدَكِ.

- صحيحٌ يا أمّي. هذا هو التصرّفُ السليمُ. شكراً لكِ

ياحبيبتي، لا حرمني اللهُ منكِ ومِنْ توجهياتِكِ، وسأطلعُكِ على ما يحدثُ معي أوّلاً بأوّل.

قبّلْتُ رأسَ أمّي وسارعْتُ للوضوءِ والصلاةِ ثمَّ إلى النومِ.

- ٨ -



(الحبُّ ليسَ كلمةً تُقال، أو مشاعرَ تُبتذل، هو تضحيةٌ وعطاء، وبذلٌ وعمل)

-أمّي .... أمّي ... أحبُّكِ يا أمّي. دخلْتُ مسرعةً إلى المنزلِ وبهذهِ العاطفةِ الجيّاشةِ قبّلتُ يديها...

- تبسّمَتِ ابتسامتَها التي أحبُّ، وأنا يا بنتي!! خيراً !!ما بك؟

-لا شيءَ يا حبيبتي. لكنَّ الإنسانَ أحياناً مِنْ كثرةِ تعوّدِهِ

على النعمةِ لا يراها. لا تستغربي يا أمّي ... اليومَ قصَّتْ عليّ صديقتي كيفَ أنَّ أمَّها مشغولةٌ عنها، ولا تجدُ أحداً عندما تعودُ إلى المنزلِ، وحتّى بعدَ عودةِ أمِّها فهي مشغولةٌ عنها ولا تكادُ تستطيعُ أنْ تتحدّثَ معها بأيِّ موضوعٍ مهما كانَ يشغلُها، فأحسسْتُ بالنعمةِ الكبرى التي لم أحمدْهُ عليها جلَّ جلالُهُ، وربّما لم أشكرْكِ عليها، فخشيْتُ أنْ يسلبَها منّي. لهذا أسرعْتُ إليكِ أشكرُ ربّي، وأشكرُكِ يا غاليتي، هذهِ هي كلُّ القصّةِ.

تبسّمَتْ أمّي بحنانِها المعتادِ الساحرِ، فارتميْتُ في أحضانِها الدافئةِ أستظلُّ بهذهِ النعمةِ التي أتمنّى ألا يحرمَني اللهُ منها أبداً.

- مسكينةٌ وفاءُ يا أمّي.. تشعرُ بالوحدةِ ولا تجدُ مَنْ يجيبُها عنْ تساؤلاتِها، وتفتقدُ العطفَ والحنانَ، وتحسُّ بالامتعاضِ لدرجةِ أنّها تشعرُ بعدمِ محبّتِها لأمِّها!

لا أدري يا أمّي كيفَ أصفُ لكِ مشاعرَها عندَما تتحدّثُ عنها.. حقّاً أشعرُ بالأسى لحالِها، ولا أدري كيفَ يمكنُ أنْ أساعدَها.

- نعمْ نسألُ اللهَ أنْ يُسبغَ عليها مِنْ فيضِ رحمتِهِ، ويهديَها لدربِهِ كي تستظلَّ بمحبّتِهِ. لقد تربّى رسولُ اللهِ ﷺ وهو يتيمٌ يا علا، هل هذا صحيح؟

- نعم... صحيح.

- وبفضلِ العنايةِ الإلهيّةِ وإقبالِهِ على محامدِ الأمورِ لا سفاسفِها أسبغَ اللهُ عليهِ مِنَ الحنانِ والرحمةِ، ولم يجعلْهُ يتيماً ساخطاً على القدرِ أو المجتمعِ. فالإيمانُ باللهِ ومحبّتِهِ يجعلُ مِنَ المحنةِ التي يعيشُها فرصةً للإقبالِ على اللهِ، فهو الرحيمُ القريبُ الودودُ الذي هو أقربُ إلينا مِنْ حبلِ الوريدِ، فعندئذٍ يا بنتي تصبحُ هذه الحالةُ التي تشفقين عليها

فيها هي التي تقودُها إلى سعادةِ الدنيا والآخرةِ.

- صحيحٌ يا أمّي. ما أعذبَ كلامَكِ عنِ اللهِ. ولكنّها ليستْ ناضجةً لهذهِ الدرجةِ، إنّها تحتاجُ إلى مَنْ يأخذُ بيدِها ويدلُّها على الطريقِ الصحيحِ، لتتذوّقَ هذه المعاني، والأمرُ ليسَ سهلاً.

- بالفعلِ يا بنتي يحتاجُ الإنسانُ إلى مربٍّ يعينُهُ وصحبةٍ صالحة تأخذُ بيدِهِ، خذيْها معكِ إلى درسِ القرآنِ فهناكَ ستجدُ مَنْ يجيبُها عَنْ أسئلتِها، وستكونينَ أنتِ ورفيقاتكِ نِعمَ الصحبةُ الصالحةُ لها، ويمكنُكِ أنْ تستضيفيها عندنا في أحدِ الأيامِ على أنْ تخبريني كي أعدَّ لكما طعاماً مميّزاً، ما رأيك؟

- رائعةٌ أنتِ يا أمّي .... ما أجملَكِ وما أرقَّكِ. اللهمَّ لكَ الحمدُ حمداً كثيراً على أنْ وهبتني أمّاً رائعةً مثلَكِ.

- حسناً يا بطلة... قومي وساعديني في إعدادِ الطعام...

- لا ....

نظرتْ إليّ أمي مبتسمةً.

- ههههه.. كنْتُ أمزحُ فقط ... طبعاً على العينِ والرأسِ يا أحلى أمّ، سأبدّلُ ثيابي وأساعدُكِ. هاتي يدكِ أقبّلْها.

رنّ جرسُ الهاتفِ فإذا هي صديقتي حنانُ، تحدّثْتُ معها، ثمَّ وضعْتُ سمّاعةَ الهاتفِ جانباً، لا أدري كم مِنَ الوقتِ مضى وأنا شاردةُ الذهنِ، لم أستفقْ إلا على صوتِ أمّي تناديني كي أساعدَها، حاولْتُ المماطلةَ إلا أنّي شعرْتُ بصوتِها في المرّةِ الرابعةِ انزعاجاً لعدمِ تلبيةِ النداءِ، فذهبْتُ مسرعةً.

-أينَ كنتِ؟ ولماذا لم تلبيني فوراً؟

-عذراً يا أمّي .. كنْتُ شاردةَ الذهنِ.

- تعالَي وأكملي عنّي فإنّي أشعرُ بدوار.

أحسسْتُ كم أنا مذنبةٌ لتأخّري عنها. ما أغباني.

-أمّي ما بك؟ أمّي .... أمّي ...... صرخْتُ أنادي أبي... أبي ... أبي.

جاءَ أبي وتساعدْنا في حملِ أمّي إلى سريرِها، كانَتْ حرارتُها مرتفعةً جدّاً. اتّصلَ أبي بالطبيبِ، ووضعْنا بعضَ الكمّاداتِ الباردةِ، بدا القلقُ واضحاً على وجهِ أبي.

جاءَ الطبيبُ وأجرى الفحوصاتِ اللازمةَ، وأنا أتابعُهُ بنظري وعقلي مدهوشٌ، وضميري يؤنّبُني: كيفَ لم أستجبْ لأمّي بسرعةٍ؟! لقد قمْتُ بالخطأِ ذاتِهِ مراتٍ عديدةً مِنْ قبلُ، ولكنّها الآنَ كانَتْ بحاجةٍ إليّ.

كيف أحبُّها كلَّ هذا الحبِّ ثمَّ أتكاسل!

أأحبُّ أمّي فقط لأنّها تعطيني الحنان؟ كم أنا أنانيّةٌ! عندما

احتاجتْني لم تجدْني رهنَ إشارتِها... ثمَّ أخذَتِ الصورُ القديمةُ تجولُ في خاطري، صورتُها كيفَ سهرَتْ ليالٍ أمامَ سريري حتّى تعافيتُ، يدُها الحنونُ تهدّئُ مِنْ روعي وأنا محمومةٌ، وهنا أجدُها أمامَ ناظريّ فوراً بعدَ أن فتحْتُ عينيَّ، ولم أحتجْ إلى أنْ أناديَها.

كلُّ هذهِ الخواطرِ وأنا أسمعُ صوتَ الطبيبِ يتحدّثُ مع والدي بصوتٍ منخفضٍ، وها هو يخرجُ. أسرعْتُ إلى أمّي أتأمّلُها بحنانٍ.

ثمَّ أسرعْتُ إلى أبي: كيفَ أمّي يا أبي؟

-لا بأسَ بإذنِ اللهِ، يتوقّعُ الطبيبُ أنّهُ فيروس، ولكنّهُ شديدٌ بعضَ الشيءِ. سأذهبُ لأحضرَ الدواءَ، كوني عندَ أمّكِ ولا تغادريْها.

- طبعاً يا أبي.

عدْتُ إلى أمّي الحبيبةِ أمسحُ قطراتِ العرقِ المتصبّبِ، وأضعُ لها الكماداتِ الباردةَ، وأتأمّلُ وجهَها الجميل. لا حرمَنيَ اللهُ منكِ يا أمّي. سامحيني.. لقد أخطأْتُ في حقّكِ. أخطأتُ في حقِّ الحبِّ الذي بيننا.. يا أغلى ما عندي. سامحيني يا حبيبتي. كنْتُ أحدّثُ نفسي ودموعي تنهمرُ.

فتحَتْ أمّي عينَيها بابتسامةٍ خفيفةٍ... طارَ عقلي..

أمّي ... حبيبتي ... قبّلْتُها و قبّلْتُ يديْها.

-حمداً للهِ على سلامتِكِ يا حبيبتي.

تبسّمَتْ ولسانُها يرسمُ كلمةَ الحمدِ دونَ أنْ أسمعَها، ثمّ عادَتْ إلى غفوتِها الرقيقةِ والابتسامةُ ملءُ محيّاها.

ثمّ عادَتْ لي خواطري السابقةَ وتذكّرْتُ خطئِي، وكنْتُ مستغربةً مِنْ نفسي كيفَ أحبُّها هذا الحبَّ ثمّ أتراخى في

الاستجابةِ لها!!!

الحبُّ تضحيةٌ وعملٌ وسلوكٌ هذا ما علّمَتْني إيّاهُ أمّي واقعاً ملموساً قبلَ أنْ تُسمعَني إيّاه كلماتٍ رقيقةً!

إنّها النفسُ الأمّارةُ بالسوءِ، نعم أظنُّ هذا ما كانتْ ستقولُهُ لي أمّي. وهذا حقّ.

لقد انتصرَتْ نفسي لدقائقَ وغلبَتْ حبّي، يجبُ أنْ أجاهدَها فالحبُّ ليسَ كلماتٍ تُقالُ، بل هو أفعالٌ تتجسّدُ في الواقعِ، وسلوكٌ يظهرُ في الحياةِ.

ظلَلْتُ طوالَ الليلِ أمامَ أمّي، فنمتُ على أريكةٍ بقربِها، كما كانَتْ تفعلُ ذلكَ معي.

استمتعْتُ بالنظرِ لوجهِها الحبيبِ، وتنسّمِ رائحتِها العطرةِ.

-ما أبهاكِ يا حبيبةُ.

وبعدَ صلاةِ الفجرِ فتحَتْ عينيْها، وكانتِ الحرارةُ قد انخفضَتْ وعادَ لوجهِها لونُهُ الطبيعيّ. أشارَتْ إليّ كي أساعدَها في الوضوءِ لتصليَ الفجرَ.

ما أروعَكِ يا أمّي.

صلّيتُ أنا وأمّي ووالدي وأخي الصغيرُ الذي استيقظَ على غيرِ عادتِهِ، كي يطمئنَّ على أمّي.

ثمَّ عادَتْ إلى السريرِ، وظللْتُ بقربِها حتّى شروقِ الشمسِ، ثمَّ غفوتُ بضعَ ساعاتٍ، ولم أذهبْ يومَها إلى المدرسةِ.

وخلالَ النهارِ كانَتْ أمّي تستردُّ عافيتَها - ولله الحمدُ- بسرعةٍ. اعتذرْتُ منها مراراً، وفي كلِّ مرّةٍ كانتْ تبتسمُ دونَ أنْ تردَّ عليّ، كانت تكتفي بأنْ تهزَّ رأسَها بالإيجابِ.

وفي المساءِ عادَ جمالُ البيتِ إلى عهدِهِ بعدَ سماعِ ضحكاتِنا جميعاً

مع أمّي الحبيبةِ، وقد تعلّمتُ البارحةَ درساً لن أنساه. وهو أنْ أترجمَ حبّي إلى عملٍ، فهذا هو الحبُّ الأصيلُ.

- ٩ -



(التقنيّةُ سلاحٌ ذو حدين، والإنسانُ هو المقودُ الّذي يوجّهُهُ إما لسعادتِهِ أو شقائِهِ)

اقترَبَتْ منّي ببطءٍ شديدٍ وأماراتُ الخجلِ باديةٌ على وجهِها. لم تكنْ مِنْ قبلُ تلقي عليَّ السلامَ إلا نادراً، لكنّي كنتُ أرى نظراتِ الاحترامِ ترمقُني بها كلّما مررْتُ بقربِها في الصفِّ أو الفسحةِ.

اقترَبَتْ كثيراً ووجّهتْ نظرَها إليَّ وكأنَّها تدافعُ الدمعَ مِنْ

عينيها... استغربْتُ كثيراً، فبادرْتُها السلامَ معَ ابتسامةٍ خفيفةٍ لأزيلَ مظاهرَ القلقِ والاضطرابِ اللّذَين كانا باديَيْن على وجهِها، فارتسمَتِ ابتسامةٌ رقيقةٌ مع قليلٍ منَ السكينةِ والطمأنينةِ.

-مرحباً ... هل أستطيعُ التحدّثَ إليكِ؟

-طبعاً على الرحبِ والسَّعةِ، كيفَ حالُكِ يا مها؟

-الحمدُ للهِ ...... في الحقيقةِ قد تستغربينَ اقتحامي وطلبي التحدّثَ معكِ، رغمَ عدمِ وجودِ علاقةٍ وطيدةٍ بيننا.

- لا على العكسِ، لقد أسعدتِني ..تفضّلي و تحدّثي بما تشائين.

- أشكرُكِ كثيراً، لطالما كنتُ أنظرُ إليكِ باحترامٍ وتقديرٍ، فما سمعتُكِ مرّةً تغتابين أحداً، ولا تسخرينَ منْ أحدٍ.. صدّقيني .. ربّما لم أتحدّثْ إليكِ أو حتّى ألقيَ السلامَ عليكِ كثيراً، لكنّكِ

في قرارةِ نفسي كنتِ قدوةً لي.. مثالَ الطالبةِ المهذّبةِ الخلوقةِ المجتهدةِ.

- أشكرُكِ كثيراً، لستُ أهلاً لما تقولينَه، لكنّي أحاولُ أنْ أكونَ خلوقةً كما يحبُّ ربُّنا عزَّ وجلَّ، وأتمنّى أنْ أصلَ لذلكَ.. شكراً لكِ.. هاتِ ماعندَكِ، بعدَ كلِّ هذا المديحِ الذي لا أستحقُّهُ..

ابتسمَتْ قائلةً:

-لا أنتِ تستحقّينَه...

تبادلْنا الابتساماتِ وقد أزاحَتْ هذهِ الابتساماتُ الكثيرَ من القلقِ والاضطرابِ عنْ وجهِها.

-لا أعرفُ كيفَ أبدأُ... تذكرينَ مدرّسةَ مادّةِ الحاسوبِ عندما نبّهتْنا على مواقعِ التواصلِ الاجتماعيِّ مثلَ الفيس بوك والتويتر، وتحدّثَتْ عنْ أهميّةِ الانتباهِ خلالَ التحادثِ مع

أشخاصٍ نجهلُهم... وأنَّ هذهِ التقنيّةَ قد تكونُ نعمةً إنْ أحسنّا استخدامَها، وقد تكونُ نقمةً إنْ أسأْنا أو دخلْنا مواقعَ مشبوهةً، هل تذكرين؟

- نعم أذكرُ تماماً... وأذكرُ أنّكِ كنتِ لا تؤيّدينَها كثيراً وكذلكَ بعضُ زميلاتِك.

- صحيح ... وقد قابلَتِ اعتراضاتي وأحياناً سخريتي بأخلاقٍ راقية. لكنّي كنتُ غافلةً ولم أتنبه .. ويا ليتني فعلْت!

تغيّرَ وجهي و وجهُها. ولمحْتُ دمعةً في عينيها، وشعرْتُ أنّها ستقولُ لي كارثةً!

- كانَ كلامُ المدرّسةِ صائباً تماماً، لكنّي لم أستمعْ للنصيحةِ فوقعْتُ في شرِّ أعمالي.

ظهرَتْ ملامحُ القلقِ باديةً على وجهي، سألتُها: وكيفَ؟

-لقد كنتُ أتنقّلُ مِنْ مجموعةٍ لأخرى على موقعِ التواصلِ الاجتماعيّ الفيس بوك، ويسعدُني التخاطبُ بشكلٍ عامٍّ معَ الجميعِ فأنا أحبُّ الصداقاتِ والتواصلَ الاجتماعيَّ، قد يضعون النكاتِ ونعلّقُ وهكذا... تعليقاتٌ بريئةٌ وضحكاتٌ خفيفةٌ لا تحملُ معانيَ سوى التسليةِ... إلى أن ازدادَ الاهتمامُ مِنْ قِبلِ أحدِ الأشخاصِ بتعليقاتي وصارَ يعلّقُ عليها ويمدحُها بشدّةٍ مبدياً إعجابهُ بكاتبةِ هذا المنشورِ أو التعليقِ.

- امم ..... ثمَّ ماذا؟

-ثمَّ تحادثْنا بواسطةِ الرسائلِ الخاصّةِ في الفيس بوك..

ثمَّ تعلّقَ قلبي به!

وانفجرَتْ بالبكاءِ .. ولم تستطعِ الإكمالَ.

حاولْتُ أنْ أهدّئَ مِنْ روعِها، ولكنْ عبثاً أحاولُ، ثمَّ تمالكَتْ

نفسَها بعدَ فترةٍ ليستْ بالقليلةِ.

-أنا أعلمُ أنّكِ أمينةٌ ولن تخبري أحداً بما قلتُه أو سأقولُهُ، لذلكَ لجأْتُ إلى مشورتِكِ، لأنّي أثقُ بعقلكِ الراجحِ ودينكِ. ماذا أفعلُ؟ أخبريني.

لقد استمرَّ التحادثُ بيننا أشهراً عديدةً، وكنتُ أظنُّ أنّي أملكُ قلبي، وأستطيعُ أنْ أتوقَّفَ بأيةِ لحظةٍ، لكنّي للأسفِ أشعرُ بعدمِ قدرتي على ذلك.

أريدُ التخلّصَ ممّا أنا فيهِ.. أنا متعلّقةٌ بهِ وكلّما وعدْتُ نفسي ألا أفتحَ الفيس بوك، أجدُني أنكثُ عهدي بعدَ ساعاتٍ..

لم أخبرْ أحداً. حتّى أمّي لا تعلمُ، لكنّها تلاحظُ شرودي وتتساءلُ عنْ سببهِ. ماذا أفعل؟

كانَ سؤالُها غريباً أو غيرَ متوقّعٍ، أو ربَّما لأنّي لا أعرفُ ماذا

أجيبها.... أحسستُ بالعجزِ تماماً، فنكّسْتُ رأسي، وصوّبْتُ عينيَّ نحو الأرضِ، و لم أنبِس بكلمةٍ.. أمّا هي فكانتْ ترمُقُني بنظراتِها التي تبحثُ عنِ الحلِّ وكأنّيَ الفانوسُ السحريُّ الذي سيجدُ لها الحلَّ بسهولةٍ.

طالَ صمتي، فبدا التعجُّبُ على وجهِها ثمَّ تحوّلَ إلى قلقٍ:

-لعلّكِ تنظرينَ إليَّ الآنَ نظرةً تحملُ معانيَ التوجُّسِ أو الريبةِ منّي، وتقولينَ في نفسكِ: كيفَ تجرّأتُ على ذلكَ، وما أبعدَني عنِ اللهِ... وأنَّ اللهَ غاضبٌ منّي، أو أنّي بنتٌ لا تستحقُّ الاحترامَ.

- كلا ... كلا... سامحكِ اللهُ... لا واللهِ ما خطرَ لي ذلكَ. لكنّي لم أعرفْ بماذا أجيبكِ؟ كأنُّه أُسقِطَ في يدي أو أشعرُ بِحَيْرةٍ ولا أدري ماذا أفعلُ أو أقولُ؟. كلُّ ابنِ آدمَ خطّاءٌ وخيرُ الخطّائينَ التّوابون ... هذا ما علّمَنا إيّاهُ رسولُ اللهِ ﷺ .

كلُّنا قد يخطئُ .. المهمُ أن نؤوبَ إلى اللهِ ونصلحَ ما أفسدْنا فيتوبَ اللهُ علينا ونعودَ كمَنْ لا ذنبَ له.

بدا الارتياحُ على وجهِها:

- لم أسئْ في اختياري لكِ كمعينةٍ لي للخروجِ منْ هذا المأزقِ. و لكنّي ....

لم تستطعْ إكمالَ الجملةِ فقد نادَتْ علينا إحدى المدرّساتِ لأنّنا نسينا أنفسَنا ونحنُ نتحادثُ، ولم ننتبِهْ لجرسِ الفسحةِ الذي أعلنَ بدءَ الحصّةِ الدرسيّةِ.

بعدَ انتهاءِ الحصّةِ والدوامِ تلفّتُّ لأبحثَ عنْ مها، لكنّي لم أجدْها، فعدْتُ أدراجي نحوَ البيتِ وأنا أفكّرُ في قصّتِها، حائرةً بماذا أنصحُها.

وصلْتُ المنزلَ وأنا شاردةُ الذهنِ، لدرجةِ أنّي نسيْتُ أنْ ألقيَ

السلامَ على أمّي، وتوجّهْتُ لغرفتي فوراً، ألقيْتُ نفسي على السريرِ و يداي خلفَ رأسي، ونظرْتُ لسقفِ غرفتي طويلاً إلى أنْ غفوتُ، فما أحسسْتُ إلا بلمسةِ يدِ أمّيَ الحانيةِ تنبّهني كي أبدّلَ ثيابي وأتوجّهَ لغرفةِ الطعامِ.

بدا على وجهيَ الشرودُ حتّى وأنا أتناولُ طعامي.

-ماذا بكِ يا علا؟ أراكِ اليومَ على غيرِ عادتكِ! حتّى أنّكِ نسيْتِ إلقاءَ السلامِ عندما دخلْتِ إلى البيتِ؟ هل من خطب؟

-لا يا أمّي ... عفواً .. أعتذرُ بشدّةٍ، لم أنتبه.. لا شيءَ يا حبيبتي، ولكنّي مشغولةٌ بقصّةٍ لإحدى زميلاتي في المدرسةِ، ربّما بعدَ الطعامِ أحادثُكِ إنْ كنْتِ تستطيعين؟

-هذا يسعدُني كثيراً... فأنا أحبُّ الاستماعَ لقصصِكِ.

-وأنا أحبُّ أنْ أخبرَكِ بكلِّ ما يجولُ في خاطري، يا أحلى أمّ.

جلسْتُ مع أمّي بعدَ تناولِنا للطعامِ، وحظيْتُ معَها بجلسةِ صفاءٍ في غرفةِ الجلوسِ، فأخبرْتُها بما قالتْهُ لي مها، ثمَّ سألتُها عنْ رأيِها، فقالَتْ:

-بدايةُ تصحيحِ الخطأِ أنْ تدركَ أنّها مخطئةَ، وتقرّرَ الامتناعَ عنْ الاستمرارِ في ذلكَ، فهي قد تعلّقت بوهمٍ كاذب، أحبّتْ كلامَهُ المعسولَ ليوقعَها في شباكِهِ، عليها أنْ تفهمَ هذهِ الحقيقةَ، وتدركَ أنَّ إنشاءَ الأسرةِ غايةٌ نبيلةٌ مِنْ أجلِ جيلٍ قادرٍ على نفعِ المجتمعِ، ولن يكونَ هذا الجيلُ نتيجةَ علاقاتٍ خاطئةٍ أو مشبوهةٍ. مِنْ أجلِ ذلكَ وضعَ اللّٰهُ قوانينَ تحفظُ كرامةَ المرأةِ، وتحميها مِنَ المغامراتِ التي قد تُشقيها، أو تملأُ قلبَها حزناً وتجعلُها إنسانةً محطّمةً نتيجةَ اللعبِ

بمشاعرِها، فالشخصُ الذي يستحقُّها لن يكونَ هو ذاكَ الإنسانُ غيرُ المسؤولِ الذي لايعي أهمّيّةَ هذهِ العلاقةِ الزوجيّةِ والأسرةَ التي تشكّلُ نواةَ المجتمعِ؛ لذلكَ سنَّ الإسلامُ أسسَ العلاقاتِ الاجتماعيّةِ التي تُقيمُ الأسرةَ السعيدةَ، مِنْ أجلِ مجتمعٍ سعيدٍ ومنتجٍ وفاعلٍ، وليسَ غارقاً في المغامراتِ وسفاسفِ الأمورِ؛ فاللعبُ بالقلبِ يابنتي كَمَنْ يلعبُ بالنارِ، لابدَّ أنْ يصيبَكَ شررَها. فإيّاكِ أنْ تغترّي بنفسِك وتظنّي أنّكِ صالحةٌ، قويةُ الإرادةِ... فقد قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ مشبّهاً مَنْ يتلاعبُ حولَ المحرّماتِ كالراعي يرعى غنمَهُ حولَ السورِ فيوشكَ الذئبُ أنْ يفترسَ إحدى غنماتِهِ.

يقولُ ﷺ :" الحلالُ بيّنٌ، والحرامُ بيّنٌ، وبينَهما مُشَبَّهاتٌ لايعلمُها كثيرٌ من الناسِ، فَمَنِ اتّقى المُشَبَّهاتِ استبرأَ لدينِهِ وعِرضِه، ومَن وقَعَ في الشُّبُهاتِ كَراعٍ

يرعى حولَ الحِمى يوشِكُ أن يواقِعَه، ألا وإنّ لكلِّ ملكٍ حِمى، ألا وإن حِمى اللهِ في أرضِه محَارِمُه، ألا وإنَّ في الجسدِ مُضغَةً : إذا صلَحَتْ صلَح الجسدُ كلّه، وإذا فسَدَتْ فسَد الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلبُ" [١].

إدراكُها لتلكَ المعاني وأهميّتِها يعينُها في اتّخاذِ القرارِ والثباتِ عليهِ، ثمَّ عليها أنْ تشغلَ نفسَها بالعملِ المفيدِ وتبتعدَ عن النتْ نهائيّاً لفترة مؤقّتةٍ، وتُقبلَ على القرآنِ قراءةً وتدبُّراً، وتطلبَ مِنَ اللهِ المعونةَ. ولتنظرَ إلى صويحباتٍ طاهراتٍ صالحاتٍ يُعِنَّها على نفسِها، فالبيئةُ الصالحةُ تساعدُ النفسَ في الاستقامةِ على الصراطِ المستقيمِ، ولتكوني معها أفضلَ معينٍ وخيرَ دليل.

---

[١] – الراوي :النعمان بن بشير. المحدث :البخاري – المصدر :صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم ٥٢.

خلاصة حكم المحدث: صحيح.

طبعاً ستتألّمُ، وستعاني في البدايةِ، لكنَّ ألمَها الآنَ أفضلُ مِنَ استمرارِها في الخطأِ ثمَّ تُعاني مِنْ أحداثٍ أشدَّ ألماً قد تؤثّرُ على حياتِها كلِّها، وتجعلَ منها إنسانةً شقيّةً.

إنَّ صدقَها في التوقُّفِ عنْ هذا الخطأِ سيساعدُها كثيراً. ولكنْ لتحاول أن تشغل نفسَها بما تحبُّه، وتجتهدَ بالأعمالِ المنزليّةِ والرياضةِ وغيرِها مِنَ الأعمالِ الحركيّةِ حتّى لاتفكّرَ بشيءٍ قبلَ النومِ، وحاولي يابنتي أنْ تتحدّثي إليها وتذكّريها بنعمِ اللهِ ورعايتِهِ لنا جميعاً ورحمتِهِ وكرمِهِ وجودِهِ، فهذا يساعدُها في محبّةِ اللهِ والتودّدِ إليهِ والاستعانةِ به.

منْ أجلِ ذلكَ يا بنتي كنتُ أخبرُكِ ألا يحاولَ الإنسانُ أنْ يقربَ مِنَ الأشياءِ الموصلةِ للخطأِ، أو يغترَّ بنفسهِ ويظنَّ أنّه قويٌّ وقادرٌ على ضبطِ نفْسِه، لأنَّ اللهَ عزّ وجلّ عندما طلبَ منّا الابتعادَ أو الحومَ حولَ الشبهاتِ يعلمُ تماماً طبيعةَ

النفسِ البشريّةِ والقلبِ، لذلكَ سنَّ لنا القوانينَ والتعليماتِ في كتابهِ الذي هو دفترُ التعليماتِ، وعلينا الالتزامُ به كي نسعدَ ولا نقعَ فيما نكرهُه.

-صدقْتِ يا أمّي. وسأفعلُ بإذنِ اللهِ ما في وسعي مِنْ أجلِ أنْ تبدأَ بدايةً جديدةً وتحسُنَ توبتُها.

- ١٠ -



(معرفةُ قوانينِ اللهِ في تسييرِ أمورِ عبادِهِ، هي جبالُ الثقةِ باللهِ في القلبِ وشراعُ العقلِ في سفينةِ الحياة)

أتممْتُ واجباتي ودراستي، أسرعْتُ إلى أمّي كي أطمئنَّ عليها وأمضي بعضَ الوقتِ معها.

سألتْني: كيفَ المدرسةُ؟

- الحمدُ للهِ تمام.

- مالكِ يا عُلا؟ أرى في وجهِكِ أسئلةً.

- لا شيءَ يا أمّي، لكنّي أحياناً أشعرُ أنّي بحاجةٍ إلى وقتٍ طويلٍ كي أفهمَ هذا الواقعَ الذي أعيشُهُ، أحسُّ أنّي غيرَ متوافقةٍ معه! هل أنا طبيعيّة؟

تبسّمَتْ أمّي قائلةً: اطمئنّي، هذا شيءٌ طبيعيّ.

-طبيعيٌّ يا أمّي! هذا الشعورُ بعدمِ الانسجامِ معَ المجتمعِ!

-نعم، لِمَنْ في مثلِ عمركِ، طبيعيّ.

- كيف!

-أنتِ الآن تكبرين وقدراتُكِ الفكريّةِ والمنطقيّةِ اكتملتْ تقريباً، فصرتِ تحلّلينَ الأحداثَ والمواقفَ والعاداتِ والتقاليدَ وسلوكَ الآخرين... أمّا عندما كنتِ صغيرةً لم يكنْ يهمّكِ سوى اللعبِ والمتعةِ. لذلكَ مازالَ أمامَكِ الكثيرُ كي تتعلّميهِ لتشعري بفهمٍ أكثرَ لِمَنْ حولكِ وتميّزي

الصوابَ والخطأَ، عندها ستقبلينَ العاداتِ التي هي مِنْ دينِنا وتبتعدينَ عمّا ليسَ منه.

-نعم كلُّ ما قلتِهِ صوابٌ يا أمّي، أشعرُ أنّي بحاجةٍ إلى بناءِ أسسٍ ومعاييرَ لحياتي، كي أميّزَ الصوابَ مِنَ الخطأِ، حتّى أعيشَ بسعادةٍ.

كيفَ أحصلُ على ذلكَ يا أمّي؟ أعرفُ أنّكِ أنشأتِنا على أسسٍ صحيحةٍ، ولكنْ أتمنّى لو تكتملُ المفاهيمُ جميعُها لديّ، فتكونُ عندي قوانينُ مرقّمةٌ ١، ٢، ٣.. فإنّ ذلكَ يُشعرني بفهمٍ أوسعَ للحياةِ.

-عليكِ بالقرآنِ الكريمِ فهو كتابُ التعليماتِ مِنْ خالقِ الإنسانِ، اقرئيه بفهمٍ و تدبّرٍ.

-نعم ... نعم ... عليَّ أنْ أبحثَ ..شكراً يا أمي.

- إلى أينَ قمتِ مسرعةً؟

-إلى البحث يا أمّي... قبلةٌ كبيرةٌ لكِ يا حبيبتي.

سأبحثُ في النت.. أينَ أنتَ يا حاسوبي ؟

سأكتبُ في محرّكِ البحثِ : قوانينُ القرآنِ، لننظرَ ماذا ستكونُ النتيجةُ! ... كل هذا!!

لا.. أريدُ شيئاً تخصّصيّاً أكثرَ. نعم هذا ما كنتُ أبحثُ عنهُ: قواعدُ قرآنيّةٌ في النفسِ والحياةِ.

البدايةُ جميلةٌ جدّاً وجذّابةٌ. يبدو أنَّ هذا الذي أبحثُ عنه.

وهذهِ مقالاتٌ أخرى عنْ قوانينِ اللهِ مِنَ القرآنِ الكريم. وهذا كتابٌ الكترونيٌّ للموضوعِ ذاتِهِ. قوانينُ اللهِ في الأممِ والأفرادِ مِنَ القرآنِ الكريمِ. عظيمٌ .... سأحمّله كي أقرأَهُ بهدوءٍ وتروٍّ.

الحمدُ للهِ ... أصبحَ لديَّ كتابٌ ومقالاتٌ مفيدةٌ. لأبدأَ ... مِنْ أينَ أبدأُ يا تُرى؟؟؟؟؟

كمٌّ هائلٌ مِنَ المعلوماتِ!! بالفعلِ عصرٌ ذهبيٌّ للمعرفةِ، ولكنّهُ يحتاجُ إلى الكثيرِ مِنَ القدراتِ العقليّةِ التنظيميّةِ، ولعلَّ هذهِ إحدى ضروريّاتِ العصرِ لكلِّ شابٍّ وشابّةٍ كما أخبرتْنا مدرّستي المفضّلة.

تمتمْتُ بذلكَ ... ثمَّ أسرعْتُ وأحضرْتُ ورقاً كبيراً وقلماً. لقد قرّرْتُ قبلَ أنْ أبدأَ محاولةَ تصنيفِ هذهِ العناوينِ أوّلاً.

كيفَ سأصنّفُ؟! لأحاولْ أنْ أصنّفَ ما يتعلّقُ بالنفسِ مِنْ أفكارٍ ومعتقداتِ اتجاهٍ ذاتيٍّ أوّلاً.

نعم هذا أفضلُ... ثمَّ سأضعُ منها ما يتعلّقُ بكيفيّةِ تصرّفي مع الآخرين... أظنُّ أنَّ هذا منطقيٌّ وسيساعدني في ترتيبِ أفكاري خلالَ القراءةِ. بالفعلِ صدقَتْ مدرّستي المفضّلةُ جزاها اللهُ خيراً، فقد درّبتْنا على تصنيفِ المعلوماتِ وتنظيمِها، لقد تعلّمْتُ منها الشيءَ الكثيرَ ممّا يخصُّ التفكيرَ المنطقيَّ وتنظيمَ

الفكرِ... أظنُّ أنَّ هذا أحدُ أسبابِ محبّتي لها واحترامي وتقديري لشخصِها.

لنرَ الآنَ. سأسجّلُ الأفكارَ والمبادئَ المتعلّقةَ بالنفسِ بشكلٍ متسلسلٍ:

١) بلِ الإنسانُ على نفسِهِ بصيرة.
٢) ولقد كرّمْنا بني آدمَ.
٣) ألم نخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهين!
٤) خُلِقَ الإنسانُ مِنْ عجلٍ.
٥) وخُلِقَ الإنسانُ ضعيفاً.
٦) و مَنْ يوقَ شُحَّ نفسِه.
٧) و مَنْ يُهِنِ اللهُ فما لهُ مِنْ مُكرِم.
٨) فَمَن يعملْ مثقالَ ذرّةٍ خيراً يره.
٩) وابتغِ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخرةَ ولا تنسَ نصيبَكَ مِنَ الدنيا وأحسنْ كما أحسنَ اللهُ إليك.
١٠) ما أصابكُم مِنْ مصيبةٍ فبما كسبَتْ أيديكُم.

١١) ولا يحيقُ المكرُ السيّئ إلا بأهلهِ.
١٢) و قد خابَ مَنِ افترى.
١٣) قلْ لا يستوي الخبيثُ من الطيب.
١٤) والعاقبةُ للمتقين.
١٥) يا أيّها الذينَ آمنوا اتّقوا اللهَ وكونوا معَ الصادقين.
١٦) والذينَ جاهدُوا فينا لنهدينَّهم سبُلنا.
١٧) ومَنْ يتوكّلْ على اللهِ فهو حسبهُ.
١٨) فاستقمْ كما أُمِرْتَ.
١٩) وما أتاكُمُ الرسولُ فخذوه.
٢٠) فإنْ لم يستجيبُوا لكَ فاعلمْ أنّما يتّبعونَ أهواءَهم.
٢١) فإذا فرغْتَ فانصبْ.
٢٢) وعسى أنْ تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم وعسى أنْ تحبّوا شيئاً وهو شرٌّ لكم واللهُ يعلمُ وأنتم لاتعلمون.
٢٣) و ليَنْصُرَنّ اللهُ مَنْ ينصرهُ.

الآياتُ كثيرةٌ ولكنّي أظنّ أني قد سجّلتها بشكلٍ يفيدني في

ترتيبِ بحثي. لأتأمّلِ الآنَ. كأنَّ الستّةَ الأوائلَ تتحدّثُ عنْ طبيعةِ النفسِ البشريّةِ، والبقيّةُ تتحدّثُ عن صلةِ الإنسانِ بربّهِ، وعلاقتِهِ معَ الآخرين و مجرياتِ الأقدارِ مِنْ عسرٍ ويسرٍ شرطَ النصرةِ مِنَ اللهِ. إنّها قوانينُ هامّةٌ لكي يفهمَ كلُّ إنسانٍ كيفَ يفوزُ بالنجاحِ في الدنيا والآخرة.

لأبحثْ أيضاً في هذا الموقعِ... إنّهُ كتابٌ آخرُ عنوانُهُ : "السننُ الإلهيّةُ في الأممِ والجماعاتِ والأفرادِ في الشريعةِ الإسلاميّةِ" للدكتور عبدِ الكريم زيدان.. إنّه يضعُ عناوينَ مختلفةً، إلا أنّها أكثرُ تنظيماً، وإن كنتُ أظنُّ أنّها تتشابهُ مع سابقتِها :

١- قانونُ الأسبابِ والمسبّباتِ (السببيّة) .
٢- قانونُ اتّباعِ هدى اللهِ والإعراضِ عنه.
٣- قانونُ التدافعِ بينَ الحقِّ و الباطلِ.
٤- قانونُ الفتنةِ و الابتلاءِ.
٥- قانونُ الظلمِ والعدلِ.

٦- قانونُ الطغيانِ والطغاةِ.

٧- قانونُ اللهِ في المتساوينَ والمختلفين (التماثلُ والأضداد)

٨- قانونُ الاختلافِ والمختلفين.

٩- قانونُ الذنوبِ والسيئاتِ.

١٠- قانونُ التقوى والإيمانِ والعملِ الصالح.

١١- قانونُ الاستدراجِ.

١٢- قانونُ المكرِ والماكرين.

١٣- قانون طلبِ الدنيا والآخرةِ.

١٤- قانونُ الرزق.

١٥- قانون الفظاظةِ والغلاظةِ والرفق.

١٦- قانونُ الترفِ والمترفين .

١٧ - قانونُ بطرِ النعمةِ وتغييرها.

- علا ... علا... تحدّثي على الهاتف.

- أهلاً سلوى... كيفَ الحال؟ ...الحمدُ لله.. ماذا أفعل؟ أقرأُ

فِي بعضِ الكتبِ وأصنّفُ أفكارَها... نعم... أحبُّ الكتبَ لأنّها تشبعُ رغبتي في معرفةِ العالِمِ الذي أعيشُ فيه.

اممم ...... نعم، نعم .. أعلمُ أنّكِ لا تحبّينَ القراءةَ كثيراً.. لكن صدقيني إنّها تساعدُكِ في فهمِ الحياة.

صحيحٌ ما تقولينَه إنّ الإنسانَ يتعلّمُ منَ الآخرين وعلاقاتِهِ بهم.. و لكنْ في أكثرِ الأحيانِ يشعرُ أنّهُ بحاجةٍ إلى مبادئَ أو قيمٍ أو أفكارٍ ينطلقُ منها في تعاملِهِ.. ألا توافقيني الرأي؟

حسناً سأشرحُ لكِ ما الذي دعاني إلى القراءةِ.. إنّني أشعرُ بعدم قدرتي على الإحاطةِ بصورةِ الحياةِ كاملةً، فلا أحسُّ أنّني محيطةٌ بتفاصيلِها أو قيمِها الأصيلةِ التي يجبُ أنْ أحرِصَ عليها، والتي يمكنني أنْ أتعاملَ معَ الآخرينَ وفقَها، فلا أصابُ بالأذى ولا أؤذي أحداً. أحسُّ برغبةٍ شديدةٍ في فهمِ هذهِ الأسسِ التي أبني عليها حياتي بنجاحٍ.

- أرجوكِ لا تضحكي أو تسخري منّي..

-صحيحٌ أنّ ميولَنا مختلفةٌ بعض الشيء، لكنّني متأكّدةٌ مِن أن عملي صواب....

-مازلتِ مصرّةً على الضّحك!!

-لقد حدّثْتُكِ بشفافيةٍ وأجبتُكِ عمّا يدورُ في ذهني، فإنْ كنْتِ غيرَ راغبةٍ في سماعِ ذلك، سأعتذرُ منكِ وأنهي المحادثة.

أغلقَتِ السمّاعةَ في وجهي!!!

انزعجْتُ كثيراً.

دخلَتْ أمّي ورأتْني أنظرُ إلى سمّاعةِ الهاتفِ باستغرابٍ. فابتسمَتْ وقالَت:

- ما بكِ يا علا؟ لِمَ الاستغرابُ وملامحُ الغضبِ باديةٌ على

وجهِك؟

- تصوّري يا أمّي أخبرْتُ رفيقتي ماذا أفعلُ فسخرَتْ منّي وعندما طلبْتُ منها ألا تفعلَ ذلكَ وأنّي سأنهي المكالمة إنِ استمرّت بسخريتِها أغلقتِ الهاتفَ بوجهي!

- لا عليكِ يابنتي، لا تنزعجي.. كثيرٌ منَ الناسِ لا يحسنونَ التصرُّفَ، أو ربّما لم تتوقعْ منكِ هذا الكلام.

- أمّي لا تبرّري لها.. لقد كانَتْ مخطئةً.

- أنا أحاولُ أنْ أعطيَكِ احتمالاً وتفسيراً لما حصل.

لِمَ أنتِ منزعجةٌ الآن ؟ ألأنّها أغلقتِ السمّاعةَ وسخرَتْ منكِ؟ هل سيؤثّرُ ذلكَ على ماتقومينَ بهِ؟ وهل سخريتُها في محلّها؟

- لا طبعاً، لن يؤثّر ذلك على قناعتِي بما أتصرّفُ، وسخريتُها ليستْ صحيحةً.. بل أنا مؤمنةٌ بما أقومُ بهِ..

- انتهى الموضوعُ إذاً.. أنتِ التي تختارين إذا كانَت أفعال الآخرين ستزعجُكِ وتعكّرُ صفوَكِ، أو ترمينَ ما يقولونَ وراءَ ظهرِكِ وتتابعين بإصرارٍ ما دمتِ على صواب.

- لكنَّ ذلكَ صعبٌ يا أمّي .. أعني ألا يتأثّرَ الإنسانُ بأفعالِ الآخرين .. صح؟

- صحيحٌ يا بنتي، ولكنْ على الإنسانِ أن يتعلّمَ كيفَ يقودُ نفسهُ إلى النجاح ويمشي قدُماً، ولا يسمحُ لأحدٍ أنْ يؤثّرَ عليه سلباً، أو يفقدَهُ حماسَهُ في سبيلِ فكرتِهِ أو هدفِهِ، فنحن لا نملكُ أن نُغيّرَ الآخرين وتصرفاتِهم، ولكنّنا نملكُ التحكّمَ في سلوكِنا وردودِ أفعالِنا.

قد لا نملكُ دفعَ الضرّ إنْ أصابَنا أحدٌ ما بذلك، لكنّنا نملكُ ردّةَ فعلِنا، هل ستجعلُنا أشقياءَ تعساء، أم نقابلُ الضرَّ بالحكمةِ و رقيّ الأخلاقِ، فنصبرُ ونجعلُ هذا وسيلةً لتقويةِ

إيمانِنا وصبرِنا وشخصيّتِنا.

قد لا نمتلكُ أن نغيّرَ حدَثاً ما، لكنّنا نحنُ مَن نقرّرُ ماذا نفعلُ اتجاهَ الحدثِ، هل سيحبُطنا ونتراجعُ أم سنزدادُ إصراراً؟ هذا هو الفرقُ بينَ الإنسانِ الناجحِ والفاشلِ.

- كلامٌ رائعٌ رغمَ صعوبتِهِ. أليسَ كذلك يا أمّي؟

- طبعاً، إلا مَنِ استعانَ باللهِ (ومَنْ يتوكّلُ على اللهِ فهو حسبُهُ) أي "كافيهِ " يا علاء.

- أحبُّكِ كثيراً يا أمّي. تعطيني زبدةَ الكلامِ وما أحتاجهُ حقّاً.

قبّلْتُ أمّي وأسرعْتُ إلى غرفتي بهمّةٍ ونشاطٍ لأتابعَ عملي.

لأبدأْ بالقاعدةِ الأولى التي تتحدّثُ عنِ النفسِ:

(بل الإنسانُ على نفسهِ بصيرة ولو ألقى معاذيره)

لفتَ نظري مقولةٌ لأحدِ السلفِ: أنفعُ الصدقِ أنْ تُقرَّ للهِ بعيوبِ نفسكِ.

فلا يجبُ أن يغترَّ الإنسانُ بما يمتدحُهُ الآخرون، بل يستفيدُ من نصحِهم له لتكميلِ نفسِهِ وإصلاحِها.

تمتمتُ قائلةً:

قاعدةٌ عظيمةٌ، لكنّها صعبةُ التطبيقِ. فأغلبُنا لا يحبُّ النصحَ وإنْ كانَ حقّاً. ويحبُّ المدحَ وإنْ كان ليس فينا !

عجباً للنفسِ البشريّةِ!!! حقّاً طبائعُها ذاتُها منذ آدمَ إلى يومِ القيامةِ.

بالفعلِ أجدُ صعوبةً في مجابهةِ نفسي بحقيقتِها، أحياناً أنجحُ والأغلبُ أنّي أفشلُ. اللهمّ أعنّي على معرفةِ نفسي وتزكيتِها.

لأنتقلْ إلى القاعدتَينِ المتضادّتين :

(ولقد كرّمْنا بني آدمَ) و (ألم نخلقْكم منْ ماءٍ مَهين)

عجيبةٌ هي الصورُ التي توالتْ في مخيّلتي! صورُ التكريمِ وسجودِ الملائكةِ، وصورةٍ مغايرةٍ تماماً في استخدامِ اللفظِ والتذكيرِ بأصلِ النشأةِ! هكذا بكلمتين : (ماءٍ مَهين) !

يا تُرى كيفَ يمكنُ الجمعُ بينَهما! فالقرآنُ ذكَرَهما معاً، فلابدَّ أنّهُ يريدُ منّا أنْ نجمعَ بينَ هاتينِ الحقيقتين!

نعم إنّها صورةٌ متكاملةٌ للإنسانِ تعطيهِ مِنْ معاني القوّةِ والتكريمِ ما يحملُهُ على الوفاءِ بالوعدِ، وأنْ يكونَ على قدرِ هذهِ المسؤوليّةِ والأمانةِ، فيسخّرَ إمكاناتهِ التي وهبَها اللهُ له ليقيمَ شرعَهُ وخلافتَهُ وفقَ سننِ اللهِ و قوانينهِ، أمّا إذا اغترَّ بمواهبِهِ ذكّرهُ اللهُ أنّهُ إنّما

خُلقَ مِنْ ماءٍ مَهين.. فعلى ماذا تغترُّ وتتبغددُ[1] بنفسكَ أيّها الإنسانُ!

نعم هذا هو المعنى. هذا الذي يريدُنا اللهُ أنْ نفهمَه عنْ ذواتِنا. لدينا مِنَ القدراتِ الهائلةِ عندما نتّصلُ بربِّنا، فلسنا بحاجةٍ إلى رسائلَ إيجابيّةٍ أكثرَ مِنْ هذا المعنى، فمهما أوتيَ علماءُ النفسِ مِنْ فهمٍ وحسنِ العبارةِ مِنْ أجلِ إيقاظِ همّةِ الشبابِ لنْ يبلغوا كما تبلغُ هذه الآياتُ مِنَ المسلمِ إنْ أحسنَ القراءةَ والتدبّرَ، ثمَّ يريدُ اللهُ منّا أنْ نرفعَ أكفَّنا إليهِ ونجمعَ بينَ ذلِّ الافتقارِ إليهِ ورجاءِ قبولِ العملِ، مستشعرينَ أنَّ ما بنا منْ نعمةٍ فمنَ اللهِ وحدَهُ، وما حصّلْنا عليهِ مِنْ مرتبةٍ أو مالٍ أو منصبٍ فمِنْ فضلهِ

[1] – تَبَغْدَدَ على، يتبغدد : زَهَا وتكَبَّر

سبحانهُ، عندها فقط تستقيمُ حركةُ الإنسانِ على الأرضِ، فلا يَيْأَسُ فيقعد، ولايغترُّ فيبطش.

ما أعظمَ هذهِ المعاني! ... يا الله...! أشعرُ بارتياحٍ وقوّةٍ ونشاطٍ.

اللهمّ لكَ الحمدُ.

سأسجّلُ ذلكَ في دفترِ ذكرياتي:

اليومَ عرفْتُ نفسي أو جانباً كبيراً منْها!

تمنّيْتُ لجميعِ رفيقاتي أنْ يعلمْنَ ما تعلّمْتُه اليوم. حقّاً إنّ معرفةَ النفسِ نصفُ الطريقِ إلى النجاحِ.

- ١١ -



(مَنْ عَرفَ نفسَه عرفَ ربَّه)

اليومَ أنهيْتُ واجباتي باكراً، ولازالَ لديَّ وقتٌ طويلٌ قبلَ أن أخلدَ إلى النوم.

قمتُ أتجوّلُ في المنزلِ، وطبعاً كانَ المكانُ المفضّلُ (المطبخ) هو الأمثلُ و لاسيّما (الثلاجة)، أدخلتُ رأسيَ فيها ولم أخرجْهُ إلا عندما سمعتُ نقراً على ساعدي... آه.. إنّهُ أخي الصغير.

قلتُ له: ماذا تريد؟ فتبسّمَ بسمةً طفوليّةً رائعةً، فقبّلتُه وأعطيتهُ

حلوى كانَتْ في الثلاجةِ، ثمَّ عدتُ أدراجي إلى غرفتي، فتحْتُ النافذةَ ونظرْتُ إلى السياراتِ والأشخاصِ تسيرُ هنا وهناك. كانَ الجوُّ رائعاً.

ذهبْتُ إلى أخي الصغيرِ: هل تريدُ أنْ نلعبَ سويّاً ؟

قفزَ أخي مِنْ على سريرِهِ وابتسامتهُ قد ارتسمت على وجههِ حتى وصلت إلى أذنيه. ثم أحضرَ لعبةً لا أعرفُ اسمَها، علّمَني قواعدَها، وما لبثْتُ أنِ اندمجْتُ في اللعبِ فيها.. ولم أتركْها حتّى سمعْتُ نداءَ أمّي تذكّرُنا بالصلاةِ.

صلّيتُ مع والدتي فلمّا انتهتْ بادرتُها بالسؤالِ:

-أمّي .. مَنْ أنا؟

فظهرَتْ على وجهها أماراتُ الاستغرابِ.

- ماذا تقصدين؟

بادلتُها الابتسامةَ قائلةً:

-أعلم يا أمي مَنْ أنا .. و أنتِ أمّي ...

وضحكْنا معاً.

-أقصدُ الإنسانَ بشكلٍ عامّ.

- امممم ... ربّما تحتاجينَ لمزيدٍ مِنَ البحثِ عنْ ذاتكِ.. اقرئي القرآنَ بتدبّرٍ وسوفَ أعطيكِ كتاباً يجيبُكِ عنْ أسئلتِك.

- شكراً لكِ يا أمّي.

أحضرَتْ أمّيَ الكتابَ ثمَّ أردفَتْ قائلةً:

-أعلمُ أنّهُ كتابٌ علميٌّ ودقيقٌ، وقد تحتاجينَ بعضَ المساعدةِ. وأنا على استعدادٍ لتقديمِها كالعادةِ؛ لكنّهُ قد يعرّفُكِ على ذاتِكِ بشكلٍ أكبر.

-شكراً يا أمّي.. عنوانُ الكتّابِ ملفتٌ للنظرِ (أنا تتحدّثُ عنْ نفسِها) لقد جذبَني العنوانُ كثيراً. أشعرُ الآنَ بفضولٍ كبيرٍ لقراءتِهِ.. شكراً لكِ أمّي...

قبّلتُها ثمَّ أسرعْتُ إلى غرفتي مسرورةً كمَنْ وجدَ ما كانَ يبحثُ عنهُ.

عبارةٌ رائعةٌ (مَنْ عَرفَ نفسَه عرفَ ربَّه)

يا ترى هل معناهُ أنَّ مَنْ يعرِفُ ذاتهُ يستطيعُ أنْ يعرفَ ربّهُ؟ ولكنْ كيف؟

عبارةٌ عميقةُ المعنى، أثارَتْ فضولي لأكشفَ وأسبرَ أغوارها.

شعورٌ جميلٌ يأخذ بلّبي في أنْ أستشعرَ أنَّ اللّهَ قد أعطانا شيئاً مِنْ صفاتهِ.. إنّهُ شعورُ التكريمِ، والدلالِ، والحبِّ، والنسبةِ إليه... كلُّ هذهِ المشاعرِ مختلطةً جالَتْ في قلبي وأنا أقرأُ معاني

تلكَ العبارةِ رغمَ أنّهُ شتّانَ بينَ مَنْ بلغَ الكمالَ مِنَ الناسِ وبينَ صفاتِ ربّي.

ثمَّ أعجبتني تلكَ اللفتةُ، أنّنا لا ندركُ معانيَ أسماءِ اللهِ وصفاتِهِ إلا إذا مارسْنا وتذوّقْنا هذهِ الأسماءَ والصفاتِ، فكيفَ ندركُ معنى اسمِ " الحليم" مالم نكنْ قد مارسْنا "الحلم"؟ كما أنّنا لن نفهمَ معنى أنْ نحبَّ اللهَ حتّى نتذوّقَ معانيَ الحبِّ، فنعرفَ كيفَ يبذلُ المحبُّ كلَّ غالٍ ونفيسٍ مِنْ أجلِ أنْ يرضى محبوبُه، وكلّما كانَ الحبُّ خالصاً مِنْ طلباتِ النفسِ أصبحَ هوى المحبِّ هو مايحبّهُ محبوبهُ، وليس ما يطلبُه هو مِنْ رغباتِ النفسِ والهوى.

معانٍ عظيمةٌ إذا لم نعشْها فلن نعرفَ كيفَ نقدّمُها تقرّباً للهِ عزَّ وجلّ.

حقّاً إنّها فكرةٌ رائعةٌ.

أمّا الفكرةُ الجميلةُ الأخرى التي طرحَها الكاتبُ، فهي أنَّ الأمورَ

تُعرفُ بأضدادها، فَمَنْ عرفَ ضعفَ نفسهِ استشعرَ قوّةَ خالقهِ، ومَنْ عرفَ فقرَ نفسِهِ عرفَ ربّهُ بغناهُ، فإذا عرفْنا محدوديّةَ إمكانيّاتِنا ونقائصَها عرفْنا كمالَ صفاتِ ربِّنا وعِظمَ قدرِه.

اممم ... رائع.

لكنَّ سؤالي لا يزالُ يلحُّ عليَّ. ربّما لنْ أصبرَ بأنْ أسيرَ في الكتابِ صفحةً صفحة

... سأبحثُ عمّا أريدُ ضمنَ الفهرسِ.

اممم .... وجدْتُها.

هذا عنوان : الذاتُ الإنسانيّةُ: الجسدُ، العقلُ، القلبُ، الروحُ، النفسُ.

و عنوانٌ آخرُ : مَنْ أنا؟

كأنَّ هذا الكلامَ صعبُ الفهمِ قليلاً بالنسبةِ لي، ربّما أحتاجُ إلى مساعدة؛ لأبحثْ في (النت) أوّلاً ربّما أجدُ شيئاً أسهلَ منه، أستطيعُ استيعابهُ بسهولةٍ.... صفاتُ النفسِ البشريّةِ مِنَ القرآنِ الكريمِ.. آه .. هذا ما أبحثُ عنهُ، وسأبدأُ بهِ. بسمِ اللهِ:

الصفةُ الأولى: الشحُّ

{وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: ٩]

الشحُّ ـ في أصلِ مادتهِ اللغوية ـ "الأصلُ فيه المنعُ، ثمَّ يكونُ منعاً مَعَ حِرصٍ، ومن ذلك الشُحُّ، وهو البُخلُ معَ حِرص.

قال جمعٌ منَ المفسّرينَ في قولهِ تعالى: {ومَنْ يوقَ شحَّ نفسِه}:

هو ألّا يأخذَ شيئاً ممّا نهاهُ اللهُ عنهُ، ولا يمنعُ شيئاً أمرهُ اللهُ بأدائهِ، ويقولُ ابنُ تيميّةَ رحمهُ اللهُ:

"فالشحُّ ـ الذي هو شدّةُ حرصِ النفسِ ـ يوجِبُ البخلَ بمنعِ ما

هو عليهِ، والظلمَ بأخذِ مالِ الغيرِ، ويوجِبُ قطيعةَ الرحمِ، ويوجبُ الحسدَ.

وقولُه تعالى: {وأُحضرَتِ الأنفسُ الشُحّ} أي: جُبلتْ النفوسُ على الشحّ، وهو: عدمُ الرغبةِ في بذلِ ما على الإنسانِ، والحرصُ على الحقِ الذي لهُ، فالنفوسُ مجبولةٌ على ذلكَ بطبيعتِها، والمعنى: إنّهُ ينبغي لكم أنْ تحرصُوا على قلعِ هذا الخلقِ الدنيءِ مِنْ نفوسِكم، وتستبدلُوا بهِ السماحةِ، وهو بذلُ الحقِّ الذي عليكَ والاقتناعُ ببعضِ الحقِّ الذي لكَ.

-تُرى ما معنى هذا الكلامِ؟ هل هو البخلُ؟ وهل يدخلُ في ذلكَ ما أرفضُهُ أحياناً مِنْ إعطاءِ أخي نصيبَهُ مِنْ طعامٍ، وأنانيّتي في أكلِ ما أشتهيهِ كلّهِ أو أغلبِهِ؟

يا ويلتاه .... عشراتُ المواقفِ تتزاحمُ في مُخيّلتي... نعمْ أيضاً رفيقتي هند.. أزعجتُها بسببِ حرصي في الجلوسِ بمكانٍ معيّنٍ في

الصفِّ .. نعمْ ..لم تكنْ نفسي سمحةً بقدرٍ كافٍ ... عجيبٌ أمرُ الإنسانِ حقّاً! كيفَ يحبُّ نفسَهُ ويحرُصُ على أنْ يستحوذَ على كلِّ شيءٍ، خصلةٌ سيّئةٌ حقّاً. هي موجودةٌ في كلِّ نفسٍ بشريّةٍ إلى أنْ يتطهرَ الإنسانُ منها، ويجاهدَ نفسهُ.

أسرعْتُ إلى المطبخ وأحضرْتُ لأخي حلوى كنْتُ قد خبّأتُها لأستأثرَ بها لنفسي، وقدّمْتُها له.

لقد فتحَ فَمَهُ متعجّباً مِنْ فعلي. ثمَّ قبّلَني وشكرَني.

حقّاً هذهِ السعادةُ والقبلةُ مِنْ أخي تساوي أكثرَ بكثيرٍ مِنْ طعمِ الحلوى في فمي.

حقّاً هناكَ أمورٌ أجلُّ و أعلى مِنَ استئثارِ الإنسانِ لنفسهِ.. آه.. إنّهُ شعورٌ رائعٌ ذاكَ الذي ينتابُ الإنسانَ عندما ينتصرُ على نفسهِ في موقفٍ معيّنٍ. سبحانَ الله!

اللّهمّ لكَ الحمدُ والشكرُ على ما أنعمْتَ عليَّ مِنْ فهمٍ وعملٍ.

أسرعْتُ إلى أمّي كي أنقلَ لها سعادتي في انتصاري على نفسي وخطواتِ التعرّفِ عليها.

- ايه .. ما القصّة ؟ أراكِ سعيدةً.

- نعم يا أمّي .

- خيراً إنْ شاءَ اللهُ.

- أمّي لقد أعطيْتُ أخي حلوى كنْتُ قد خبّأتُها حتّى آكلَها وحدي.. ثمَّ ....

- أكملي .. ثمّ ماذا؟

- فقط ... ألا تريدينَ أنْ تقولي شيئاً لي؟

تبسّمَتْ أمّي قائلةً :

- أنا أعلمُ أنّكِ طيبةُ القلبِ وتحبّين أخاك، وستؤثرينَه على نفسكِ إنِ احتاجَ الأمرُ.. فلا أعلمُكِ بخيلةً.

- لكنّي حقّاً يا أمّي كنتُ أنوي أنْ آكلَها وحدي، إلا أنّي كنتُ أبحثُ عن طبيعةِ النفسِ البشريّةِ، فقرأْتُ مقالةً أو هيَ عبارةٌ عن سلسلةِ مقالاتٍ تتحدّثُ عنْ طبيعةِ النفسِ البشريّةِ مِنَ القرآنِ الكريمِ.

- جيّد .. بحثٌ رائعٌ .. وماذا وجدْتِ؟

- قرأتُ عنْ صفةِ (الشحّ) إنّها موجودةٌ عندَ جميعِ الناسِ، وعلينا أنْ نجاهدَ أنفسَنا لتشذيبِها.

- صحيحٌ يا بنتي. باركَ اللهُ بكِ.. لقد فهمْتُ الآنَ مدى فرحِكِ بما قمْتِ بهِ... باركَ اللهُ بكِ ياحبيبتي، أحسنتِ فهمَاً و صُنعاً.

- هل تريدينَ شيئاً منّي يا أمّي؟ .. سأذهبُ لأتابعَ القراءةَ.

- لا ... وفّقك اللهُ، وسدّدَ خطاكِ.

أسرعْتُ إلى حاسبي وإلى ذاكَ الموقعِ بفضولٍ لكي أقرأَ عنِ الصفةِ الثانيةِ للنفسِ البشريّةِ:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢))

-صفةُ (الظلمِ) و (الجهلِ).. امم.. لأكملِ القراءةَ :

إنّ منْ صفاتِ النفسِ الإنسانيّةِ أنّها تظلمُ نفسَها وتظلمُ غيرَها، لذلكَ حذّرنا اللهُ منَ الظلمِ ونبّهنا إلى طبيعةِ النفسِ البشريّةِ إنْ لم نأخذْ بقيادِها إلى الطريقِ المستقيمِ.

والظلمُ هُنا معناهُ الشركُ كما فسّرهُ النبيُّ في الحديثِ، فالنفسُ الإنسانيّةُ عندما تظلمُ نفسَها بشركِها وكفرِها باللهِ، لو استطاعَتْ أنْ تفتديَ بالمالِ والكنوزِ مِنَ النارِ لما بخلتْ على نفسِها، ولكنّها عندما ترى النارَ تندمُ على ما فعلتْ مِنْ ظلمٍ.

والنفسُ الإنسانيّةُ تظلمُ غيرَها: باللسانِ والفعلِ والقلبِ وظنِّ السوءِ... فالغيبةُ والنميمةُ والحسدُ والقذفُ والشتيمةُ وتحقيرُ الآخرينَ والسخريةُ منهم والسرقةُ والضربُ وعدمُ العدلِ بينَ الأولادِ وفي المؤسّسات بينَ الموظفين.... الأمثلةُ كثيرةُ لا تعدُّ ولا تُحصى مِنْ أمثلةِ الجَورِ وعدمِ العدلِ بينَ الناسِ.

يقولُ اللهُ تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ))) (٨) سورة المائدة.

المعنى لا يحملنّكم بغضُ قومٍ على أنْ تجوروا عليهم وتتجاوزوا الحدَّ

فيهم، بلِ اعدلوا فيهم وإنْ أساؤوا إليكم، وأحسنوا إليهم، وإنْ بالغوا في الإساءة إليكم.

فهذا خطابٌ عامٌّ، ومعناه: أمرُ اللهِ تعالى جميعَ الخلقِ بألّا يعاملوا أحداً إلّا على سبيلِ العدلِ والإنصافِ، وتركِ الميلِ والظلمِ والاعتسافِ.

استرخيْتُ قليلاً وأنا أتذكّرُ صوراً للظلمِ في التلفازِ.. حقّاً إنَّ وراءَ كلِّ قبحٍ و فسادِ ظلمٌ ومنعٌ للحقوق..

و تذكّرْتُ موقفاً حدثَ لرفيقتي سمر .. وفجأةً أسرعْتُ إلى أمّي و أنا أحملُ حاسوبي:

- أمّي .. أمّي .. هل تذكرينَ سمر؟

- نعم .. ما بها؟

- أتذكرينَ ذاكَ الموقفَ الذي ظلمتْني بهِ أمامَ مدّرِسَتي

المفضّلة؟

- نعم يا علا .. أذكرُ ذلكَ.. مابكِ ؟ ماذا حصلَ؟ هل اتّصلَتْ بكِ؟

- لا يا أمّي .. كنْتُ أقرأُ عنْ صفةِ الظلمِ عندَ الإنسانِ، وفجأةً تذكّرْتُ أنّي أحسسْتُ بشعورٍ بغيضٍ وقتَها، لأنّها تكلّمَتْ عنّي أمامَ مدّرِستي بسوءٍ لتقلّلَ مِنْ مكانتي عندَها، لكنّ ما حدثَ اليوم جعلني أعيدُ النظرَ في ردّةِ فعلي، إنّي ردَدْت لها الصاعَ صاعَين، فقد لمّحْتُ لبعضِ مواقفِها السيّئةِ عندَ مَنْ تحبُّ مِنَ المدرّسات، وقد شعرْتُ بالسعادةِ وقتَها، ولم يراودْ ضميري أيُّ تأنيبٍ! إلى أنْ قرأتُ الآنَ عنِ الظلمِ. أمّي هل ظلمْتُها؟

- أنتِ قلْتِ ردَدْتِ لها الصاعَ صاعين. أليسَ كذلك؟

- نعم.

- إذاً أصبحْتِ أنتِ الظالمة.

- ولكنْ يا أمّي هي التي بدأَتْ، وأحسبُ أنَّ ردّي عليها سيجعلُها تحسبَ لي ألفَ حسابٍ قبلَ أن تفكّرَ القيامَ بذلكَ مرّةً أخرى.

- هل أنتِ مقتنعةٌ بكلامك تماماً؟

- قليلاً. ههههه. أصْدُقكِ القولَ ... هناكَ منادٍ في نفسي يقول نعم وآخر يمقتُ الفعلَ و يقولُ لا.

- أحسنتِ ياعلا ... هناك صوتُ الحقِّ والضميرِ يقولُ لا، سيّما بعدما سمعتِ تلك الكلماتِ عنِ الظلمِ. وهناكَ صوتُ نفسِكِ الأمّارةُ بالسوءِ تقولُ نعم.

- ولأيٍّ منهما أستمعُ يا أمّي؟

- ما رأيكُ أنتِ؟ ذلكَ على حسبِ هدفكِ في الحياةِ..

هل تفكّرين فقط بأنْ تحصلي على ماترغبينَهُ في الدنيا ولايهمّكِ أمرُ آخرتِكِ؟ أم ترغبينَ برفعِ مرتبتِكِ عندَ اللّهِ، و تحرصينَ على رضاهُ عنك؟

هذهِ الأسئلةُ يجبُ أنْ تجيبي عنها بمفردِك.. فإنْ كنْتِ تؤثرينَ ما يحبُّهُ اللّهُ ورسولُه، وترغبينَ بالآخرةِ عنِ الدنيا الفانيةِ فستستمعينَ إلى صوتِ ضميرِك، وإنْ كنتِ لا تبالينَ بآخرتِكِ ولا إلى مصيرِكِ جنةٌ أم نارٌ فيمكنُكِ أنْ تستمعي لهوى نفسِكِ، وتنساقي وراءَ ظلمِكِ.

-أمّي لقد صعّبتِها عليّ كثيراً .. أنا أحبُّ أنْ أكونَ تلكَ الفتاةَ الخلوقةَ البارّةَ القريبةَ منْ ربِّها.. هذهِ صورتي الّتي أتمنّى أو أحبُّ أنْ أرسمَها في مخيّلتي. لكنَّ ذلكَ صعبٌ عليّ.

-طبعاً صعبٌ على النفسِ البشريّةِ .. وهذا هو سببُ

التكليفِ.. فعندما تجدينَ أنَّ طبيعةَ النفسِ تتّجهُ نحوَ أمرٍ معيّنٍ، والأمرُ الإلهيُّ يأمرُها بعكسِه، فهنا يحصلُ الامتحانُ الذي إمّا أنْ يسوقَكِ إلى جنّةٍ أو نارٍ والعياذُ بالله.

وهذا سرُّ تكليفِ اللهِ وأوامرِه.. فلو كانَ العدلُ سهلاً على النفوسِ لقامَ بهِ كلُّ إنسانٍ، لأنّهُ مِنْ طبيعتِهِ، و لم يجاهدْ نفسَهُ ليبرهنَ صدقَ محبّتهِ للهِ والالتزامِ بأوامرِهِ.

جَبلَنا اللهُ على استئثارِ النفسِ وحبِّها لذاتِها مِنْ أجلِ الحفاظِ عليها، لكنّها إنْ لم تعرفْ حدودَها هذهِ، وتجتهدْ في تشذيبِ نفسِها أخذَتْ أكثرَ منْ حقِّها، فعاثَتْ فساداً في الأرضِ، ولقد جعلَ اللهُ غايةَ إرسالهِ للرسلِ إقامةَ العدلِ، قالَ اللهُ تعالى في سورةِ الحديد:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ

﴿ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢٥﴾ الحديد،

وكما قيل، فإنَّ العدلَ أساسُ الملكِ، لأنّهُ أساسُ الصلاحِ والخيرِ في الفردِ والأسرةِ والمجتمعِ، فإذا كانتْ هذهِ القيمةُ هي القيمةُ الأساسيّةُ الّتي يُربّى عليها الفردُ، وتُبنى على العلاقاتِ في المجتمعِ والعملِ والدولةِ ازدهرتْ جميعُ مجالاتِ الحياةِ، وعاشَ الناسُ بسلامٍ وأمانٍ وخيرٍ عميمٍ.

فعلينا يا بنتي أنْ نراعيَ هذه القيمةَ الهامّةَ، ونجعلَها الأساسَ في بناءِ الفردِ والمجتمعِ، ونوليَها حقَّها لتصبحَ جزءاً لا يتجزّأُ منْ منظومةِ قيمٍ وثقافةِ المجتمعِ، عندها فقط نكونُ قد بنينا دولةَ الإسلامِ في قلبِ كلِّ فردٍ،

وبها فقط تُبنى دولةُ العدالةِ في الأرضِ لينعمَ كلُّ فردِ فيها بالخيرِ والأمانِ.

- صحيحٌ ما تقولينَهُ يا أمّي لكنّهُ صعبٌ. أسألُ اللّهَ أنْ يعينَني على نفسي.

أمّي هل تسمحينَ لي أنْ أكملَ القراءةَ معكِ حتّى تشرحي لي ما استشكلَ عليّ؟

- على الرحبِ و السَّعةِ يا بنتي .. هاتِي ما عندَك.

- شكراً يا حبيبتي.

- نأتي للصفاتِ الأخرى للإنسانِ التي وردَت في القرآنِ الكريمِ، سأقرأُ بصوتٍ عالٍ:

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ المعارج: ١٩ - ٢٢

الهلع : الضجر ، الجزع : الخوف

فشعورُ المرءِ (بالجزع) يجعلهُ يبحثُ عنِ المأمنِ والأمانِ والتي لن يجدَها إلا عندَ القادرِ الحكيمِ العليمِ، الرؤوفِ الرحيمِ، وصَلاتُه هي الكفيلةُ بأنْ تعطيَهُ هذا الأمانَ الذي يبحثُ عنه إنْ أحسنَها وأتقنَها.

وإقرارُ اللهِ عزَّ وجلَّ بصفاتِ النفسِ البشريّةِ لا يعني أنّنا لا نستطيعُ أنْ نتخلّصَ منها، بل تعني أنّهُ ينبّهُنا جلَّ جلالُهُ إلى أنَّ هذه الصفةَ موجودةٌ، فإنْ لم نسعَ لتزكيةِ أنفسِنا وتشذيبِها فسيظهرُ أثرُها السلبيّ ويعظمُ حجمُها في النفسِ، فنعاني منْ آلامِها ونتائجِها السلبيّةِ في حياتِنا وشخصيّتِنا. وطريقةُ التشذيبِ تكونُ بالصلاةِ، لأنّهُ جلّ وعلا قالَ: (إلا

المصلّين).

-أمّي ... كيف تصوغُ الصلاةُ النفسَ فلا تجزعُ ولا تخافُ ولا تمنعُ الخيرَ؟

-هلاّ أكملْتِ قراءةَ بقيّةِ الآياتِ التي تصفُ المصلّين؟

-اممم .. صحيح. إنَّ اللهَ يصفُ المصلّين :

قَالَ تعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ

﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

-إنَّ الصلاةَ يا بنتي تُملي عليهِ مجموعةً مِنَ السلوكيّاتِ والمعتقداتِ؛ هل لاحظتِ ذلك؟

-نعم يا أمّي واستغربْتُ. الصفةُ الأولى وهي الاستمرارُ على المحافظةِ على الصلاةِ والحرصُ عليها أفهمُها، ولكنّهُ جلَّ وعلا يتجاوزُ ذلكَ إلى الحديثِ عنِ الزكاةِ ثمَّ عقيدةِ الإيمانِ باليومِ الآخرِ والخوفِ مِنْ عذابِ اللهِ، ثمَّ العفةِ في الزواجِ، والعفةِ في المالِ أو الأمانةِ في المالِ والأمانةِ في الكلمةِ وذلكَ بالشهادةِ الصادقةِ، ثمَّ يعودُ جلَّ جلالُهُ ويركّزُ على فكرةِ المحافظةِ على الصلاةِ.

في بدايةِ الصفاتِ نبّهَنا إلى المداومةِ على الصلاةِ، وهنا يركّزُ جلّ وعلا على المحافظةِ عليها.. ما الفرقُ يا أمّي؟

- أحسنتِ يا علا، الدوامُ يختلفُ عنِ المحافظةِ، فدوامُهم عليها أنْ يحافظوا على أدائِها لا يخلّونَ بها ولا يشتغلون عنها بشيءٍ منَ الشواغلِ، ومحافظتُهم عليها أن يراعُوا إسباغَ الوضوءِ لها ومواقيتَها، ويقيموا أركانَها، ويكملوها بسننِها وآدابِها وخشوعِها، ويحفظوها مِنَ الإحباطِ باقترابِ المأثمِ؛ فالدوامُ يرجعُ إلى الصلواتِ نفسِها، والمحافظةُ إلى أحوالِها.

عندما تصلّين يا بنتي خاشعةً، مدركةً أنّكِ بينَ يدي الجبّارِ القادرِ على كلِّ شيءٍ لنْ تخافي ممّنْ أقلَّ منه مهما علا شأنهُ فهو مجرّدُ عبدٍ عندَ مَنْ تقفينَ بينَ يديه، عندما تصلّينَ وأنتِ مدركةٌ أنّكِ تقفينَ مع أعلى سلطةٍ في الكونِ، و أنَّ هذهِ السُّلطةَ عادلةٌ، تعلمُ مافي نفسِكِ، مطّلعةً وعليمةً بكلِّ ما يجري، ولا يخفى عليها شيءٌ مِنْ أمورِ العبادِ، تعلمُ السرَّ وأخفى، فكيفَ تخافين!

وعندما تثقينَ بلطفِ اللهِ وحكمتِهِ في تصريفِ الأقدارِ ومحبّتِهِ للمؤمنينَ به، فكيفَ لا تطمئنّين! وعندما تتذكّرين يومَ الحسابِ وتخافينَ عذابَ اللهِ، فكيفَ لا تؤدّينَ حقوقَ العبادِ وتعدلينَ فيما ملكَتْ يداكِ؟ وفي الوقتِ ذاتِهِ ستعلمينَ أنَّ أيَّ ظلمٍ مِنْ قِبَلِ العبادِ سيأتيكِ قَصاصُهُ في اليومِ الآخرِ.. وهذا سيُدخلُ في قلبكِ الاطمئنانَ والسكينةَ، والثقةَ بعدلِ اللهِ.

هذهِ هي صفةُ الصلاةِ التي يجبُ أنْ توصلَكِ إلى تلك المعاني، والتي تسكبُ في قلبِكِ الأمنَ والأمانَ والسكينةَ والاطمئنانَ.

-ما أعذبَ كلامَكِ يا أمّي... ما أعظمَ هذهِ المعاني!
هذهِ الصلاةُ لم أصلّها كثيراً، ربّما مرّةً أو مرّتين أحسسْتُ بمشاعرِ الحضورِ أو الخشوعِ لكنّها لا تتجاوزُ رُكيعات.

-لو داومتِ على صلاتِكِ بخشوعِها وحضورِها مع اللهِ لصاغَتْ نفسَكِ، وحمتْكِ مِنْ صفاتِها التي جُبلْتِ عليها مِنْ خوفٍ وهلعٍ ومنعٍ للخيرِ.

-فعلاً يا أمّي هذا القرآنُ عظيمٌ ... يشرحُ طبيعةَ النفسِ البشريّةِ ويعطينا العلاجَ بآنٍ واحدٍ، كيفَ نغفلُ عنه! وفيه مفاتيحُ سعادتِنا ؟!
حقّاً ما أغبانا عندما نقرؤُهُ دونَ أنْ نتفكّرَ ونتدبّرَ!.. إنّنا نخسرُ الكنوزَ التي فيهِ، ونبتعدُ عَنْ مكامنِ السعادةِ. أشكرُكِ يا أمّي مِنْ أعماقِ قلبي..

- إنّي سعيدةٌ يا بنتي لهمّتِكِ وسعيِكِ في تشذيبِ نفسِكِ والعملِ على صوغِها كما يحبُّ ربُّنا.. أكملي يا بنتي القراءةَ.

-أشكرُكِ يا حبيبتي.. اللهمّ لكَ الحمدُ أنْ أكرمتَني بأمٍّ حنونةٍ، تعرفُكَ وتحبُّكَ. سأكملُ يا غالية:

صفةُ النفسِ البشريّةِ : العَجَلُ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ ﴾ سورة الأنبياء (٣٧)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾ الإسراء (١١) .

أي طُبعَ الإنسانُ على العجلةِ، فيستعجلُ كثيراً منْ أمنياتِهِ وطلباتِ نفسهِ، وإنْ كانَتْ مضرّةً أو فيها هلاكُهُ وهو لا يعلم!

كما أنّ هذهِ العَجَلَةَ تمثّلُ في الإنسانِ محرّكاً يحرّكهُ نحو هدفٍ ما، فلو أنَّ الأهدافَ أمامَهُ مرسومةٌ، وليس عندهُ دافعٌ يدفعهُ نحوها، لبقيَ في مكانهِ ساكناً. لذلك رُكّبَ في الإنسانِ ما وصفَه القرآنُ بأنَّ الإنسانَ عَجول. خُلقَ مِنْ

عَجَل.

هذه العَجَلَةُ بمعنى السرعة، أي خُلِقَ في الإنسانِ دوافعُ قويةٌ تدفعُهُ إلى أهدافِه.

هذهِ القوّةُ المحرّكةُ إنْ لم تهتدِ بهَدْي اللهِ عزَّ وجلَّ، وتستلهِمْ مِنْ خالقِ الكونِ، وتلتزمْ أمرَ اللهِ ونهيَه تصبحُ قوّةً مدمِّرةً، أيّ تفضي العجلةُ التي رُكِّبَت فينا إلى هلاكِنا، فالخطأُ ليس في العجلةِ، ولكنَّ الخطأَ في أنَّ هذهِ العجلةَ تحرّكَتْ مِنْ دونِ مِقْوَد، مِنْ دونِ شرعٍ يهتدي بهِ الإنسانُ إلى سواءِ السبيلِ.

- أمّي.. لم أفهمْ بدقّةٍ... العجلةُ هي جزءٌ مِنْ تركيبِنا، لكنّها تصبحُ مضرّةً إنْ لم نلتزمْ بشرعِ اللهِ.

ولكنْ كيف؟ أقصدُ كيفَ أعلمُ أنَّ اندفاعي نحوَ شيءٍ استحوذَ على فكري هو عجلةٌ مفرطةٌ؟ ولا أتساهلُ في

عملِ شيءٍ وأتكاسلُ عنه بحجّةِ أنّي لا أريدُ أنْ أكونَ عجولةً؟ كيفَ أوازنُ يا أمّي بينَ المفهومين؟

- أدركْتُ ما تقصدين. هناكَ أناسٌ يتكاسلونَ أو يتماهلونَ في أعمالِهم بحجّةِ أنّنا يجبُ ألا نستعجلَ ويستدلّونَ بالآية.

- صحيحٌ يا أمّي .. لا يريدونَ فعلَ شيءٍ ويقولونَ توكّلنا على اللهِ .. لو أرادَ اللهُ الأمرَ لحدث!

- هناكَ فرقٌ دقيقٌ بينَ الركونِ وعدمِ الحركةِ أي التواكلِ، وبينَ الحركةِ معَ التوكّلِ على اللهِ وعدمِ استعجالِ الأمرِ، فاللهُ أمَرَنا بالحركةِ، وركّبَ فينا هذا المحرّكَ الذي يدفعُنا لتعجيلِ ودفعِ عجلةِ الحياةِ، ولكنْ بتوازنٍ دقيقٍ وحكمةٍ بليغةٍ، فالمؤمنُ وهو يتحرّكُ ويتّخذُ جميعَ الأسبابِ يعلمُ أنَّ كلَّ شيءٍ يسيرُ بقدرِ اللهِ

وحكمتِهِ.. يدركُ أنّهُ مجرّدُ وسيلةٍ للعملِ والحركةِ، ولكنَّ حركتَهُ هذهِ قد لا تكونُ بالاتجاهِ الصحيحِ الذي يسعدُه، لأنهُ لا يُدركُ الموقفَ كلّهُ، ويقصرُ نظرَهُ عنْ معرفةِ الغيبِ وما يدورُ وراءَه.... لذلكَ يتلمّسُ توفيقَ اللهِ في حركتِهِ، حتّى توافقَ حركتُه قدرَ اللهِ الخيّرَ، فلا يستعجلُ النتائجَ ولا يملُّ مِنْ طولِ فترةِ الانتظارِ والترقّبِ لفَرَجٍ أو نتيجةِ عملٍ.. إنّهُ يثقُ بيدِ اللهِ التي لا تقودُه إلا إلى خيرٍ.. فيعملُ دونَ استعجالٍ، و يدعو اللهَ عزَّ وجلَّ دونَ مللٍ أو طلبٍ للحصولِ بوقتٍ معيّنٍ.. إنّهُ يتلّمسُ نورَ اللهِ وهديَهِ في كلِّ أمورِهِ. هذا هو المؤمنُ يا بنتي.. يسيرُ على نورٍ مِنْ ربّهِ، هادئَ النفسِ، يعلمُ أنَّ كلَّ شيءٍ خُلِقَ بقدرٍ محكمٍ و بوقتٍ معيّنٍ.. وما عليهِ إلا أنْ يعملَ ويتوكّلَ على اللهِ، ويسلّمَ أمرَهُ للحكيمِ الخبيرِ بعدَ استنفاد جميعِ الأسبابِ للعملِ؛ لذا فالمؤمنُ

مطمئنُّ البالِ لا يُجزعهُ شيءٌ، ولا يخافُ منْ أحدٍ، ولا يقلقُهُ المستقبلُ. وهناكَ دعاءٌ علّمَنا إيّاهُ رسولُ اللهِ ﷺ:
(اللهمَّ رضّني بقضائِكَ وباركْ لي فيما قُدّرَ لي، حتّى لا أحبَّ تعجيلَ ما أخّرْتَ، ولا تأخيرَ ما عجّلْتَ)

- يا اللهُ ما أحلى الإيمانَ عندما يُداخلُ القلبَ.. هذهِ هي السعادةُ حقّاً. رائعٌ كلامُكِ يا أمّي .. رائع ..

أقبلْتُ على يدِ أمّي أقبّلُها وأحتضنُ هذا القلبَ العامرَ بالإيمانِ...

-شكراً يا أمّي .. جميعُ الكلماتِ لاتكفي و لا تعبّرُ عنِ امتناني وشكري لكِ، وحمدي للهِ عزَّ وجلَّ أنْ وهبني أمّاً مثلَكِ.. اللهمَّ لكَ الحمدُ حمداً كثيراً كما ينبغي لجلالِ وجهكَ وعظيمِ سلطانِكَ.
أتذكّرُ كلماتِكِ عندما كنتِ تطلبينَ منّي عدمَ استعجالِ

الدعاءِ أو المللِ في الترقّبِ والقلقِ .... كنتُ أستمعُ إليكِ وأهزُّ رأسي لكنّي لم أستوعبْ حقّاً هذهِ المعاني، كنتُ أنظرُ إليكِ وأقولُ في نفسي كيفَ لا أستعجلُ وتطلبُ منّي أمّي أنْ أكونَ صبورةً ولا أقلقُ!! لقد بذلتُ مافي وسعي وأريدُ أنْ أحصلَ على ماسعيتُ إليهِ.

غريبٌ يا أمّي هذا الإنسانُ كيفَ يسمعُ الكلامَ أحياناً لكنّهُ لا يعي! يسمعُ بأذنيهِ لا بعقلِهِ وقلبِهِ!! أعتذرُ ياأمّي عمّا بدرَ منّي سابقاً مِنْ تأفّفٍ وتململٍ. حقّاً لم أفهمْ وقتذاكَ ماذا تقصدين، للأسفِ لو وعيتُ ما تقولينَ لوفّرتُ على نفسي عناءً كثيراً.

-لا عليكِ يابنتي، إنّها طبيعةُ البشر، كلّما اقتربوا من ربّهم رقّتْ قلوبُهم ووعَتْ عقولُهم، وكلّما غفِلوا وانشغلُوا بالدنيا وأسرفُوا في الملذّاتِ كانوا أبعدَ عنِ الهدى، واستماعِ القلبِ والعقلِ للنصحِ والحقِّ. لذلكَ أطلبُ منكِ دائماً أنْ تكوني

متوازنةً في طلبِ الدنيا والآخرةِ، بينَ الطاعةِ والملذّاتِ الحلالِ، فلا تُسرفي وتمادَيْ فيقسو قلبُكِ ويُحَجَبُ عقلُكِ عنْ سماعِ الحقِّ.

إنّ الروحَ يابنتي هي التي تُشعِرُ الإنسانَ بالسعادةِ، وسعادتُها ليستْ في الأشياءِ الماديّةِ، لأنّها روحٌ وليسَتْ مادّةً.. سعادتُها في اتّصالِها بأصلِها.. قالَ تعالى: (ونفخْتُ فيهِ مِنْ روحي) هل وعيْتِ هذا المعنى؟ مِنْ روحِ اللهِ .. إنّ روحَنا تنتمي إلى هناك.. لذا فهي تتطلّعُ للاتّصالِ بهِ وتأنسُ بذكرِهِ وتسعدُ بقربِهِ.. وهذهِ هي السعادةُ. أمّا الجسدُ فطعامُهُ الأكلُ والشربُ والمتعُ الحسيّةُ مِنْ مناظرَ طبيعيّةٍ وروائحَ جميلةٍ.... وأمّا العقلُ فغذاؤهُ العلمُ والمعرفةُ... والإنسانُ المتّزِنُ والسعيدُ هو الذي يوازنُ بينَ مكوناتهِ جميعاً، ويعطي كلّ ذي حقٍّ حقّهُ مِنْ طعامِهِ، فإذا مللْتِ فهي روحُكِ التي قد ملّتْ وتطلبُ غذاءَها، وليس جسدُكِ.. وغذاؤها

العبادةُ والاتّصالُ بخالقِها. و أحياناً عندما تقرئين علوماً تقرّبُك مِنَ اللهِ وتخاطبُ روحَكِ فهي تساعدُكِ على تناولِ غذاءِ الروح، إنّها أشبهُ بالفيتامينات التي تفتحُ شهيّتَكِ للعبادةِ.. هل عرفتِ ووعيتِ ما أقولُ؟ سأقرأُ لكِ ما كتبتُهُ قبل فترةٍ في موقعِ التواصلِ الاجتماعيّ (الفيس بوك) حولَ هذا الموضوع :

إذا أحسسْتَ بقبضٍ في قلبكَ أو شتاتٍ في نفسِك.. فاعلمْ أنّهُ نداءٌ علويٌّ يستصرخُ روحَكَ كي تلتفتَ إلى الركبِ السائرِ إلى اللهِ، فتوحّدَ القبلةَ و تذرَ ما أنتَ غارقٌ فيهِ مِنَ العلائقِ بالأشخاصِ والأشياءِ.. وتتّجهَ بكلّيّتكَ إلى أصلِ وجودِكَ و منبعِ سموّكَ..

إنّ روحكَ تستجيبُ لنداءِ (و نفخْتُ فيهِ منْ روحي) فأيُّ (ياءٍ) أعظمُ منْ هذه !!!!!

فإذا صُمّتِ الآذانُ عن سماعِ النداءِ فاعلمْ أنّكَ نائمٌ!!!

-امم .... نعم يا أمّي .. لقد أخبرتِني مِنْ قبلُ، لكنَّ كلامَكِ الآنَ يدخلُ عقلي وقلبي ويتفاعلُ معهُ، وكأنّي أول مرّةٍ أسمعُه!

نعم .. بل أوّلُ مرّةٍ أعيهِ حقّاً. بالفعلِ غريبٌ هذا الإنسانُ!!! غريبٌ حقّاً!

أشعرُ بالإرهاقِ.. أظنُّ أنّي سأتوقّفُ اليومَ وأتابعُ غداً بإذنِ الله، فأنا الآنَ جاهزةٌ للنوم.

تبسّمتْ أمّي وهزّتْ رأسَها قائلةً:

-لابدّ أنّ رأسك يؤلمُك، ونفسَكِ تطلبُ منكِ التوقفَ عنْ الاستماعِ، فقد أسمعتُها مايُؤلمُها. أليسَ كذلك؟

-ههههه .. صحيح .. لقد سمعَتْ كلاماً قاسياً عليها، أعانَني

اللهُ على نفسيَ الأمّارةِ بالسوءِ.... تصبحينَ على خيرٍ أمّي.

-وأنتِ بخيرٍ يا علا.. لا تنسَي أنْ تقومي ببعضِ الأذكارِ قبلَ النوم.

-سأفعلُ بإذنِ اللهِ يا أمّي.

ثمّ قبّلْتُ رأسَها ويدَها، وقلبي يدعو لها ويحمدُ اللهَ على أنْ منَّ عليَّ بأمٍّ حنونٍ مثلها.

- ١٢ -



(إذا انشغلَ هذا الطائرُ بالمأكولاتِ والملهياتِ في قفصهِ الجميلِ، وظنَّ أنَّ هذا هو كونُهُ وفضاؤهُ، ظلَّ بقيّةَ عمرهِ حبيسَ قفصِهِ، ولن يذوقَ حلاوةَ الحرّيّةِ خارجَ قفصِهِ. مع أنَّ السماءَ هي بيتُهُ الحقيقيُّ وليس القفصُ)

-مالي أراكِ شاردةً يا علا؟

-لا شيءَ يا أمّي كنْتُ أفكّرُ فقط.

-بماذا؟ منذُ أنْ جئتِ مِنَ المدرسةِ وأنتِ مشغولةُ البالَ. خيراً إنْ شاءَ اللهُ؟

قفزْتُ إلى أمّي وقبّلتُ وجنتيها الدافئتينِ وقلتُ :

-صحيحٌ، أنّكِ تعرفينني أكثرَ مِنْ نفسي.. أحبّكِ ياأمّي.

-أعرفُ ... هههههه ... ماذا بعدَ ذلك؟

-امممم ... ما أحلاكِ يا أمّي... تريدينَ أنْ تعرفي بماذا أفكّر؟

رفيقتي مها خُطبَتِ البارحةَ، وقد أحضَرتْ صورَ حفلتِها وشاهدْناها جميعاً.

تبدو حفلةً رائعةً، ثوبُها جميلٌ جدّاً، وكذلكَ الزينةُ مِنْ أساورَ و قلائد... كانَتْ تبدو سعيدةً جدّاً.

-مباركٌ لها.. أسألُ اللهَ لكِ زوجاً صالحاً يسعدُكِ.

شردْتُ في كلماتِ أمّي وقتاً لابأسَ بهِ، أيقظتْني تنهيدةُ أمّي

وسؤالُها:

-ثمَّ ماذا يا علا؟ أحفلةٌ تشغلُكِ كلَّ ذلك؟!!! لابدَّ أنَّ هناكَ شيئاً آخرَ.

احمرَّ وجهي خجلاً، وبدوتُ كأنّي أراوغُ ولا أريدُ الحديثَ، أو لعلّي لم أعرفْ ماذا أقولُ أو كيفَ أسردُ خواطري.

-أتساءلُ يا أمّي عنْ دورِ الإنسانِ وحقيقةِ فكرةِ الزواجِ، ولماذا عندما تردُ هذهِ الفكرةُ أغلبُ الفتياتِ يصبحْنَ رومانسياتٍ ويحلمْنَ بفتى أحلامِهِنّ، ويحلّقْنَ في خيالٍ واسعٍ رحبٍ؟ أهي مِنْ طبيعةِ الفتاةِ والإنسانِ؟

ابتسمَتْ أمّي قائلةً:

- الزواجُ دورٌ طبيعيٌّ في حياةِ الإنسانِ، وهو جزءٌ مِنْ طبيعةِ النفسِ البشريّةِ، تطلبُهُ وترغبُ بِهِ، لأنَّ اللهَ خلقَ الشهواتِ

عندَ الإنسانِ حتّى يرغبَ الشابُّ والفتاةُ في هذا الدور.

إنّه ليسَ دوراً سهلاً، فهمْ بهذا الارتباطِ ينشئونَ أسرةً، والتي بدورِها ستكونُ مسؤولةً عن إنتاجِ أفضلِ ما في الوجودِ مِنْ خلقٍ..

إنّه الإنسانُ خليفةُ اللهِ في أرضِهِ.. منْ أجلِ ذلكَ لابدَّ أنْ يرغبَ الزوجُ بتقديمِ هذهِ التضحياتِ لأسرتِهِ، وترغبَ الزوجةُ بتقديمِها هي أيضاً منْ أجلِ إعمارِ هذهِ الأسرةِ وبناءِ جوٍّ مِنَ الدفءِ والحنانِ اللازمَينِ لاحتواءِ المولودِ الجديد.

فلِكي يخفَّ عناءُ هذا التعبِ جعلَ اللهُ في تركيبتِهما حبّاً وشهوةً تجمعُ بينهما منْ أجلِ تخفيفِ حدّةِ تعبِ الدنيا ومسؤولياتِ الأولادِ والأسرةِ، هذهِ هي كلُّ القصّةِ.

فالغايةُ مِنَ الزواجِ حفظُ النوعِ البشريّ مِنَ الانقراضِ.

تبسّمْتُ قائلةً:

-ما أبهى حديثَكِ يا أمّي وأنتِ تبسّطينَ الأمورَ والأحداثَ حولي، وتجعلينَها سهلةَ الفهمِ وعميقةَ المعنى بآنٍ واحد.

ولكنّ بعضَ الفتياتِ يغرقْنَ في التفصيلاتِ والأحداثِ الجانبيّةِ، فينسَينَ هذا المعنى الراقي.

-منْ أجلِ ذلكَ يابنتي أوضحَ القرآنُ الكريمُ هذا المفهومَ لكي لا نشتطَّ، فإنّنا إنْ فعلنا ذلكَ نكنْ مِنَ الخاسرين.

قَالَ تعَـالَىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾ سورة الحجرات.

وأوضحَ أنَّ الغايةَ مِنْ وجودِ الإنسانِ هي خلافةُ اللهِ في أرضهِ:

قَالَ تعَـالَىٰ: ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠ ﴾ البقرة: ٣٠

لهذا لابدّ مِنْ وضْع الحدودِ والضوابطِ في هذهِ العلاقةِ ضمنَ أُطرٍ تحفظُ هذهِ الغايةَ، ولا تجعلُ مِنْ هذهِ الشهوةِ أو الغريزةِ أداةً تهبطُ بهِ إلى مدارجِ المخلوقاتِ الحيوانيّةِ أو تهدمُ المجتمعَ.

قَالَ تعَـالَىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧ ﴾ النساء

لقد أرادَ اللهُ مِنْ هذا الإنسانِ أنْ يضعَ شهوتَهُ ضمنَ الحدودِ التي تجعلُهُ يبني مجتمعاً صالحاً، و يتوازنُ بينَ شهواتِ جسدِهِ

مِنْ أكلٍ وشرابٍ ونكاحٍ، ومتطلباتِ روحهِ التي تسمو بقيمِهِ وأفكارِه، فتصنعُ منهُ ذاكَ الإنسانَ الراقي الذي يُسعدُ مجتمعَهُ ويبنيهِ، فيَسعَدُ ويُسعِدُ غيرَه. أمّا الشططُ في ذلكَ فإنّهُ يابنيّتي كما ترينَ في الغربِ أو حتّى في واقعِنا العربيِّ للأسفِ لم يجلبْ لنا إلا الدمارَ والفسادَ. فسبحانَ اللهِ الخالقِ الذي دلَّ الإنسانَ على أيسرِ السبلِ والطرقِ إلى سعادتِهِ ليجنّبهُ الشقاءَ والخرابَ.

-صدقْتِ يا أمّي.. إنّ ما قامَتْ بهِ صديقتي اليومَ هو مِنْ بابِ الشططِ، لقد جعلتْنا بهذهِ الصورِ نذهبُ بخيالِنا بعيداً... إلى حيثُ لا معنىً ولا سموّ.

صحيحٌ أنّ هذا الخيالَ أحياناً قد يُسعد للحظاتٍ، لكنّهُ على المدى البعيدِ يجعلُ هذا الشخصّ حزيناً بائساً، وعلينا أنْ ننتبهَ جيّداً فلا نفتحَ على أنفسِنا باباً يصعبُ إغلاقُهُ، أو لسْنا بحاجةٍ إليهِ الآنَ.. فنكونُ كمَنْ يحلمُ بأشياءَ قد تتحققُ أو لا،

فنفتحُ العنانَ لأبوابٍ لا نملك مفاتيحُها.

أشكرُكِ مِنْ أعماقِ قلبي يا أمّي .. لقد كشفْتِ لي حقائقَ كانَتْ غائمةً وضبابيّةً، فغدَتْ جليّةً بيّنةً..

المشكلةُ فعلاً في طبيعةِ الإنسانِ .. الجسدُ قد يهبطُ بهِ إلى أدنى مستوىً يمكنُ أنْ يتخيّلَهُ المرءُ... والروحُ عكسُهُ تماماً..
إنّها كالطائرِ المحبوسِ في قفصٍ يريدُ أنْ يغادرَهُ إلى حيثُ الفضاءُ الرحبُ.

أشعرُ أنَّ هذا التشبيهَ يوافقُ ما يحدثُ داخلَ الإنسانِ تماماً.

-صحيحٌ يابنتي... فإذا انشغلَ هذا الطائرُ بالمأكولاتِ والملهياتِ في قفصهِ الجميلِ، وظنَّ أنَّ هذا هو كونُهُ وفضاؤُهُ ظلَّ بقيّةَ عمرِهِ حبيسَ قفصِهِ ولن يذوقَ حلاوةَ الحرّيّةِ خارجَ قفصِهِ، مع أنَّ السماءَ هي بيتُهُ الحقيقيُّ وليس القفصُ... القفصُ بيتٌ زائفٌ، مهما كانَ جميلاً فهو ضيّقٌ وليس حقيقيّاً.

- ما أروعَ تشبيهَكِ يا أمّي.

-لابدَّ يا بنيّتي أنْ يتوازنَ الإنسانُ، ويعرفَ طبيعتَهُ تماماً، ويعطي كلَّ مكوّنٍ مِنْ مكوّناتِ نفسِهِ حقّها مِنْ دونِ إسرافٍ.
هذا هو الإنسانُ الفعّالُ المنتجُ الصالحُ في مجتمعِهِ والسعيدُ في حياتِهِ، توازنٌ بينَ متطلّباتِ الجسدِ والروح والعقلِ والقلبِ معاً.

-أشعرُ بأنَّ روحي قد أشرقَتْ، وأنَّ مداركي قد اتّسعَتْ، وأنَّ معالمَ الكونِ حولي بدأتْ ترتسمُ بدقّةٍ ووضوحٍ. حقّاً كلُّ منّا بحاجةٍ إلى أنْ يفهمَ نفسَهُ والكونَ حولَهُ كما يريدُ خالقُنا أنْ نفهمَهُ، عندئذٍ تكونُ رؤيتُنا شاملةً وصحيحةً.

جزاكِ اللهُ خيراً يا أمّي... أشكرُكِ لأنّكِ قريبةٌ منّي تشعرينَ بما أحتاجُهُ ويخطرُ في بالي دونَ أنْ أقولَهُ.. أكرمَكِ اللهُ

ياحبيبتي.

-باركَ اللهُ بكِ، و أقرَّ عيني بما يسعدُكِ ويرضيهِ عنكِ.

قبّلتُها وقبّلتْني وارتميْتُ في حِضنِها الدافِئ أستمدُّ منهُ النورَ والحبَّ. ثمَّ توجّهْتُ إلى غرفتي استعداداً للنوم.

كانتْ كلماتُ أمّي تتردّدُ في أذنيَّ، كلّما حاولتُ أنْ أغمضَ عينيَّ أسمعُها كأنّها تقولُها الآن:

فإذا انشغلَ هذا الطائرُ بالمأكولاتِ والملهياتِ في قفصهِ الجميلِ وظنَّ أنَّ هذا هو كونهُ وفضاؤهُ، ظلَّ بقيةَ عمرِهِ حبيسَ قفصهِ ولنْ يذوقَ حلاوةَ الحريّةِ خارجَ قفصِهِ.. مع أنَّ السماءَ هي بيتهُ الحقيقيّ وليس القفصُ..

القفصُ بيتٌ زائفٌ.. مهما كانَ جميلاً فهو ضيّقٌ وليسَ حقيقيّاً.

حاولْتُ مراراً أنْ أُرغمَ نفسي على النومِ، لكنْ هيهات..

أحسسْتُ برغبةٍ قويّةٍ في أنْ أتوضّأَ وأصلّيَ ركعتينِ، أشعرُ برغبةٍ في أنْ أحاولَ لتنطلقَ روحي نحو بيتِها الحقيقيّ... هناكَ حيثُ تسعدُ وتسمو.

قفزْتُ مِنْ سريري... توضّأتُ وصلّيتُ.
صلّيتُ وأنا لا يشغلُني إلا هاجسٌ واحدٌ.. أنْ أقفَ وأناجي خالقي لأتّصلَ بأنوارِهِ العلويّةِ وتسبحَ روحي في فضائِهِ، علّها تنعمُ هناكَ بموطنِها الأصليّ..

لا أعلمُ كم مرَّ منَ الوقتِ وأنا مستغرقةٌ في هذهِ الأفكارِ!! لا أقولُ أنّي وصلتُ إلى ذلكَ الشعورِ أنّي أصلّي وكأنّي أراه ... لكنّي أشعرُ أنَّ بوصِلةَ قلبي بدأَتْ تحدّدُ وجهتُها بدقّةٍ، تصاغرَتْ أماميَ أشياءُ كثيرةٌ كنتُ أحسبُها مِنْ أهمِّ الأشياءِ لديَّ مثلُ الاستمتاعِ مع رفيقاتي باللهوِ والضحكِ، التلفاز،

النت.. الجوّال ... الموضة.. اقتناءُ الجديدِ منَ الالكترونيات..

أشياءُ كثيرةٌ بدَتْ باهتةً، شعورٌ غريبٌ حقّاً لم أعهدْهُ مِنْ نفسي. استصغرْتُ كلَّ شيءٍ.. أحسسْتُ أنّي كنْتُ أسيرُ في الاتجاهِ غيرِ الصحيحِ.. كَمَنْ يمشي في طريقٍ ملتوٍ، أو يدخلُ ضمنَ طرقٍ فرعيّةٍ، كثيرةِ التشعّبِ، متعدّدةِ الفروعِ، لا أدري لعلّها لا تصلُ بي إلى وجهتي لكثرةِ تشعّبِها!

بدأَتْ أفكاري تنضجُ أكثرَ، وأحسسْتُ أنّي أصبحْتُ أكثرَ فهماً لنفسي وهدفِها.

بالفعلِ، رغمَ أنّي نشأتُ في بيئةٍ زرعَتْ فينا حبَّ الدينِ والأخلاقِ الساميةِ، لكنّي كنْتُ منشغلةً برفيقاتي والأحداثِ التي تمرُّ معنا في المدرسةِ مِنْ مشاكلَ وأفراحٍ، ضحكاتٍ وأنّات.. كلّها أجدُها اليومَ لا طعمَ لها.. انشغلْتُ بها كثيراً، لكنّها بلا فائدة!

أستغربُ من نفسي حقّاً كيفَ أضعْتُ هذهِ الأوقات. لم أفكّرْ للحظةٍ إلى أينَ أسيرُ؟ وهل هذهِ الخطواتُ ستوصلُني إلى هدفٍ راقٍ يستحقُّ أنْ أعيشَ مِنْ أجلِهِ؟؟

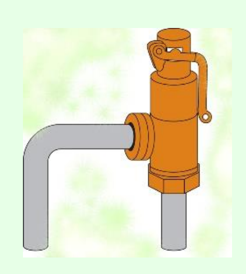
كلُّ هذهِ الأفكارِ بدَتْ غريبةً، وكأنّها تخطرُ في بالي أو أفكّرُ بها لأوّلِ مرةٍ! مع أنّها ليستْ جديدةً !

أشعرُ أحياناً باليأسِ مِنْ نفسي، لكثرةِ لهوِها وتشتُّتِ اهتماماتِها... إلا أنَّ حديثَ أمّي اليومَ جعلَني أتنبّهُ إلى تقصيري في غذاءِ روحي. إنّي نادراً ما أصلّي وأنا حاضرةُ الذهنِ متوجّهةٌ بكلّيّتي إلى الله!

لم أنتبهْ أنّي مقصّرةٌ في حقّ (روحي) والتي تمثّلُ أهمَّ شيءٍ وأثمنَهُ فيّ!

اللهمَّ لكَ الحمدُ أنْ وفّقتني لتلكَ المعاني، اللّهمّ أعنّي على نفسي وخُذْ بقيادِها إليك.

-١٣-



(الاعترافُ بالخطأِ صمّامُ أمانٍ للعلوِّ والارتقاء)

-لن أتكلّمَ مرةً أخرى مع هبة.

تمتمْتُ بتلكَ الجملةِ والشررُ يخرجُ مِنْ عينيّ.

استغربَتِ الكثيراتُ ممّنْ حولي حجمَ الغضبِ الذي صبَبْتُهُ على رفيقةِ هبة عندما تكلّمَتْ عنها لتصلحَ ما بيننا.

لم أستطعْ أنْ أسمعَ منها أيَّ كلمةٍ، صمَمْتُ أذنيّ وابتعدتُ كليّاً

عنهنّ.

وفي داخلي شعورٌ بالاستغرابِ منْ نفسي، بدأ يتنامى بشكلٍ كبيرٍ ساعةً بعدَ ساعةٍ.

عدْتُ إلى المنزلِ وأنا مُقطّبةُ الوجهِ، ألقيْتُ التحيّةَ بجفاءٍ ثمَّ أسرعْتُ إلى غرفتي.. وبتكاسلٍ غريبٍ بدّلْتُ ثيابي ثمَّ استلقيْتُ على الأريكةِ لا أشعرُ بالرغبةِ في القيامِ بأيّ عملٍ، أحسُّ أنّي مسلوبةُ الهمّةِ، منهكةٌ، متعبةٌ. وأنا أستغربُ مِنْ نفسي سببَ ذلك.

فهبةُ رفيقتي منذُ ثلاثِ سنواتٍ، كانَتْ من صديقاتي المقرّباتِ، كنْتُ لا أخفي عنها سرّاً، وهي كذلكَ، كنّا بحقٍّ أينما وُجدَتْ إحدانا تكنِ الأخرى بجانبِها أو تتحدّثْ معها، كانَتْ علاقةً حميمةً بكلِّ معنى الكلمة، أخوّةٌ صادقةٌ.

لا أدري منذُ ثلاثةِ أشهرٍ تعرّفَتْ هبةُ على إحدى الطالباتِ

الجُدُدِ في المدرسةِ، وصارَتْ رفيقتَها الدائمة، كلّما طلبتُها أجدُها بجوارِها!

في باديءِ الأمرِ اعتقدْتُ أنّها مجردُ مشاعرِ اللهفةِ لطالبةٍ جديدةٍ لا تعلمُ كثيراً مِنْ أمورِ المدرسةِ، وهي تساعدُها لكونِها جارةً جديدةً لها في منزلِها، ثمَّ بدأتِ الأمورُ تتطوّرُ حتّى بِتُّ أتشاحنُ مع هبةَ كلَّ يومٍ.. ومهما اختلفَتِ المشكلةُ فالسببُ الجوهريُّ هو "ناديا" ؛ لقد غدَتْ ناديا عدوّيَ اللّدودَ، فهي أصلُ مشكلاتي معَ هبة.. ثمَّ تطوّرَ الأمرُ حتّى غدَتْ مشاعري اتّجاه هبةَ باردةً، لم أعدْ أهتمُّ بلقائِها أو البحثِ عنها خلالَ الفسحةِ،ابتعدْتُ عنها تدريجيّاً دونَ أنْ أشعرَ، ثمَّ بدأَتْ بالعتابِ الذي كانَ ينتهي دوماً بالمشادّةِ أو الخصامِ طويلِ الأمدِ.

كلُّ هذهِ الأفكارِ كانَتْ تدورُ في ذهني، فشغلتْني حتّى لم ألحظْ دخولَ أمّي لغرفتي.

-ما بك يا علا؟ أراكِ اليومَ مُغضَبَةً.. ما الأمرُ؟

-هبةُ يا أمّي ..

-ما بها؟

قصَصْتُ على أمّي مشاعري وبعضَاً منَ المخاصماتِ التي كانَتْ تقعُ بيني وبينها، والتي ازدادَ عددُها حتّى صارَتْ يوميّةً.

-لقد قرّرتُ يا أمّي أنْ أقطعَ علاقتي معَ هبةَ.

استغربَتْ أمّي ورفعَتْ كتفيْها وحاجبيّها ، ثمَّ قالَتْ لي :

- أتعلمين ما نوعُ المشاعرِ التي تجتاحُكِ؟

- لا يا أمّي؟

- إنّها الغيرةُ.

- الغيرةُ ! ممّن ؟

- الغيرةُ يا بنتي فطرةٌ أودعَها اللهُ فينا كي تدفعَنا لمعالي الأمورِ، فإذا اشتطّتْ وخرجَتْ عنْ هدفِها ظلمَتْ نفسَها وغيرَها.

- أمّي هذهِ المرّةُ الثانيةُ التي تتحدّثين فيها عنِ الغيرةِ. هل أنا غيورةٌ إلى هذهِ الدرجةِ؟

- أذكّركِ يا علا.. إنّ الغيرةَ تدفعُ الإنسانَ إذا رأى إنساناً كثيرَ العلمِ أنْ يكونَ مثلَه، فيسلكَ مسلكَهُ، أو إذا كانَ ذا خُلقٍ كريمٍ أنْ يتعلّمَ منهُ ويحاولَ الاقتداءَ بهِ.. وهذهِ غيرةٌ حسنةٌ. أمّا عندما تختلطُ الغيرةُ بحبِّ التملّكِ أو الأنانيّةِ والأَثَرةِ عندَها تشتطُّ وتظلمُ نفسَها وغيرَها مِنَ الناسِ، فمثلاً عندما تغارين مِنْ ناديا لأنّها غدَتْ أقربَ إلى رفيقتِكِ هبةَ فكأنّكِ تمتلكين حقَّ منعِ هبةَ مِنْ صداقةِ غيرِكِ !

- لا يا أمّي .. ليس تملّكاً!!

- إنّهُ كذلكَ يا بنتي .. فقدْ يبلغُ الحبُّ أحياناً إلى حدِّ الشعورِ

بتملّكِ الآخرِ، ومِنْ هنا كانَ الشطَطُ، فالغيرةُ انفعالٌ مركّبٌ يجمعُ بينَ حبِّ التملّك والغضبِ، وهذا يفسّرُ ما قمْتِ بهِ مِنْ سلوكٍ خاطئٍ منذُ أنْ عدْتِ إلى البيتِ!

وهذا ما يحدثُ أحياناً بينَ الأخوةِ إذا شعرَ أحدُهم أنَّ والديْهِ أو أحدُهما يحبُّ أحدَ أخوتهِ أكثرَ منه، ودليلهُ ما حدثَ معَ إخوةِ يوسفَ عليهِ السلامُ، ألا تتذكّرينَ هذه القصّةَ في القرآنِ الكريمِ؟

-نعم، أذكرُ ذلكَ وقد تحدّثْنا عنها مِنْ أجلِ الموضوعِ ذاتِهِ، ومنذُ وقتٍ قريبٍ كنتُ أقرأُ سورةَ يوسفَ في ختمتي اليوميّةِ، واستغربْتُ كيفَ يحصلُ هذا وهُمْ في بيتِ النبوّةِ، فأبوهم نبيّ! كيفَ تصلُ غيرتُهم إلى التفكيرِ بالتخلّصِ مِنْ سيّدِنا يوسفَ! ألهذا الحدِّ يمكنُ أنْ تصلَ الغيرةُ بالإنسانِ! إلى حدِّ الإيذاءِ أو التفكيرِ بالقتلِ!

- الغيرةُ المرَضيّةُ يا بنتي انفعالٌ بغيضٌ يشعرُ بهِ الإنسانُ عادةً إذا أحسَّ أنَّ الشخصَ المحبوبَ يوجّهُ انتباهَهُ إلى شخصٍ آخرَ غيرِه، وانفعالُ الغيرةِ انفعالٌ مركّبٌ توجدُ بهِ عناصرُ منْ عدّةِ انفعالاتٍ أخرى، وخاصّةً انفعالُ الكرهِ، ولذلكَ فغالباً ما تكونُ الغيرةُ مصحوبةً بالكرهِ والحقدِ والرغبةِ في إيذاءِ الشخصِ الذي يُثيرُ الغيرةَ، أو التخلصِ منهُ أو الهروبِ والابتعاد!

-لكنّي لستُ غيورةً يا أمّي.. هذه المرّةُ الثانيةُ التي تقولينَ لي هذا القولَ!! لستُ غيورةً يا أمّي (وكانَ صوتي مرتفعاً).

-وفي المرّةِ الأولى هل حقّاً لم تكوني غيورة؟

طأطأْتُ رأسي وكأنّي أحاولُ أنْ أهربَ مِنْ هذا السؤالِ، فالتزمْتُ الصمتَ، وقمْتُ مُغضبةً إلى غرفتي.

ظللْتُ عامّةَ يومي منزعجةً، ولم أرغبْ أنْ أناقشَ نفسي، ففتحْتُ

الحاسبَ وأخذتُ أتنقلُ بينَ صفحاتِ (النّت والفيس بوك)، وكأنّي أهربُ مِنْ نفسي، إلا أنَّ محبّتي لأمّي وإغضابي لها جعلاني أفكّرُ بطريقةٍ أصلحُ بها موقفي، ولكنّي في الوقتِ ذاتِهِ أشعرُ أنّي لا أريدُ الاعترافَ بغيرتي! أو أنّي على خطأ.

ذهبتُ إلى أمّي.

-أمّي أنا آسفة.

لم أستطعْ أنْ أضيفَ شيئاً، وكأنّها كانَتْ تنتظرُ منّي مزيداً مِنَ الإيضاحِ، إلا أنّي لم أفعل.

عدْتُ إلى غرفتي، لكنَّ ذلكَ لم يُعِدْ لي هدوئِيَ النفسيّ؛ إنّي أحبُّ أمّي، ولا أستطيعُ أنْ أشعرَ أنّي أغضبْتُها. حاولْتُ إشغالَ نفسي لكنّي مازلْتُ منزعجةً جدّاً.. لا أستطيعُ أنْ أُبعدَ فكري عمّا حدثَ، ولا أستطيعُ أنْ أركّزَ في دراستي.. يبدو أنّه لابدَّ منْ أنْ أواجهَ نفسي، لا مفرّ.

آهٍ يا نفسُ مازلْتِ تشقينَني.. أنتِ سببُ تعاستي وأخطائي.. أفٍّ منْك.. أدافعُ عنكِ دونَ أنْ أشعرَ، فأزيدُ خطئي خطأً آخرَ! عليَّ الآنَ أنْ أعتذرَ مرّةً أخرى. هل أعجبَكِ ما زجرتني بهِ الآنَ منْ ظلم؟

وكلُّ ذلكَ حتّى لا أعترفَ بخطئِي ! آهٍ منكِ.

نعمْ أنا غرْتُ. هذهِ هي الحقيقةُ وإنْ كانَ ذلكَ لا يعجبُكِ.

كنْتُ أتحدّثُ معَ نفسي. ليسَ جنوناً. بل أشعرُ بانزعاجٍ منْ نفسي حقّاً.

غريبٌ أمري! كلُّ ما فعلتُه مِنْ أجلِ ألا أعترفَ بخطئي وأنّي غرتُ مِنْ رفيقتي! ما أسهلَ الحقيقةَ وما أثقلَ تكلفةَ اللّفِّ والدورانِ وعدمِ مجابهةِ النفسِ. لو اعترفْتُ ولم أتكبّرْ لانتهى النقاشُ معَ أمّي بكلِّ بساطةٍ وعلى أحسنِ صورة!

ركضْتُ إلى أمّي ...

-أمّي أنا آسفة، لقد أخطأْتُ مرّتين. مرّةً عندما غرْتُ مِنْ ناديا والثانيةُ عندما رفضْتُ الاعترافَ بهذا الخطأ.

تبسّمَتْ أمّي وقالَتْ: ومرّةً ثالثةً عندما ارتفعَ صوتُكِ، وغادرْتِ المكانَ غاضبةً.

احمرّ وجهي خجلاً وقد أراحَتْني بسمةُ أمّي:

-صحيحٌ يا أمّي.. أخطأْتُ ثلاثَ مرّاتٍ. أنا آسفة.

-لا عليكِ يا بنتي. المهمُّ أنْ تؤوبي إلى الحقِّ بسرعةٍ، أمّا الخطأُ فجميعُنا يفعلُ ذلكَ. (إنّ اللهَ يحبُّ الأوابين). والأهمُّ يابنتي أنْ تعتادَ نفسُكِ الاعترافَ بالخطأِ، و تقبّلَ النصيحةِ، فهي صفةُ الأمّةِ التي اختارَها اللهُ : (كنتمْ خيرَ أمّةٍ أُخرجَتْ للناسِ تأمرونَ بالمعروفِ وتنهَونَ عنِ المنكرِ وتؤمنونَ باللهِ).

إنَّ مبدأَ الاعترافِ بالخطأِ ورؤيتِهِ وتصحيحِهِ هو صمّامُ أمانٍ للفردِ والمجتمع، بهِ يتقدّمُ و يتطوّرُ، أمّا عندما يرفضُ ذلكَ فإنّهُ يتقزّمُ ويسقفُ نفسَهُ بحدودٍ دنيا مِنَ الرفعةِ والتطورِ، فاحرصي يا حبيبتي على التمسّكِ بهذهِ القيمةِ.

قبّلتُ رأسَ أمّي، وارتميْتُ في أحضانِها فرَحاً بقولِها، وبادلتّني بضمّةٍ ملؤُها الحنانُ والرحمةُ:

- صدقْتِ يا أمّي.. اللهمَّ أعنّي..

- أمّي.. ماذا أفعلُ الآنَ مِنْ أجلِ مشكلتي مع ناديا وهبة؟

-ألا ينفعُ أنْ تكوني أنتِ و ناديا صديقتَينِ حميمتَينِ لهبة!

-اممم .. لم يخطرْ في بالي! لم أفكّرْ قطّ! لماذا أردْتُ أنْ تكونَ هبةُ لي وحدي!

آهٍ يا أمّي ما أقسى حقيقةَ نفسِ الإنسانِ!

صورةٌ ليستْ بجميلةٍ... لا أحبُّ أنْ أكونَ أنانيّةً، لا أحبُّ أنْ أمتلكَ الآخرَ إذا أحببتُه... لا أريدُ هذهِ الصورةَ البشعةَ!

-هوّني عليكِ يا بنتي، يمرُّ الإنسانُ بهذهِ الخبراتِ والتجارِبِ كي يعلمَ مداخلَ نفسِهِ ووسوسةَ الشيطانِ وهوى النفسِ ويجاهدَهم فيفوزَ.

هذهِ هي كلُّ القصّةِ، فلا تضخّمي الموضوعَ، الأمرُ أسهلُ مِنْ ذلكَ... لقد استفدْتِ كثيراً، وتعلّمتِ كيفَ تتعاملين معَ نفسِكِ، وفهمْتِ مشاعرَ الغيرةِ، والآنَ عرفْتِ كيفَ تجتازينَها، وتعلّمتِ كيفَ تعترفينَ بالخطأِ ولا تتكبّرينَ أو تأخذُكِ العزّةُ بالإثمِ.

- حقّاً .. أنتِ رائعةٌ يا أمّي. كيفَ عرفْتِ كلَّ هذا؟

- الحياةُ والخبرةُ واطّلاعي على هذهِ المواضيعِ في علمِ النفسِ الحديثِ والعلمِ الذي يزكّي النفسَ، ويعرفُ مداخلَها،

ويجاهدَها في ديننا الحنيف.

- أشكرُكِ كثيراً يا أمّي، أنتِ لا تعلمين مدى الراحةِ التي أشعرُ بها الآن، سأصبحُ بإذنِ اللهِ أنا ونادِيا صديقتَين مخلصتَينِ لهبة.

حقاً إنّ نادِيا تمتلكُ صفاتٍ حسنةً لم أكنْ أراها منْ قبلُ!

غريبٌ أمرُ الإنسانِ! كنتُ لا أرى إيجابيّةً واحدةً في صفاتِ نادِيا! وكأنّي كنْتُ لا أرى!

- هذا الظلمُ يا علا، عندما ينظرُ الإنسانُ بعينِ هواهُ لا يبصرُ حقّاً، يرى صورةً وفقَ هواهُ وليستْ كما هي في الحقيقةِ!

- آهٍ يا أمّي كيفَ يظلمُ الإنسانُ نفسَهُ بظلمِهِ لغيرِهِ فيعاني مِنَ الألمِ الشديدِ، والأمرُ أبسطُ مِنْ ذلكَ، فلو جاهدْنا أنفسَنا ولم نتّبعِ الهوى لأرحْناها مِنْ عناءِ الألمِ النفسيّ والذي هو

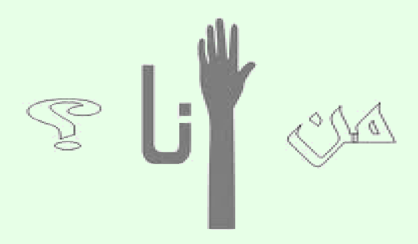
أكثرُ إيلاماً مِنْ ألمِ مجاهدةِ النفسِ .

الحمدُ للهِ أنْ أكرَمَني اللهُ بكِ، وأعانني فرأيتُ الحقَّ قبلَ أنْ أتمادى أكثرَ في ظلمِ نفسي وظلمِ الآخرين.

-باركَ اللهُ بكِ يا علا، وأعانَنا جميعاً على أنفسِنا وأهوائِنا وشيطانِنا. أعودُ وأقولُ لكِ ياعلا، المهمُّ أنْ تعوّدي نفسَك الخضوعَ للحقّ ولو كانَ ضدَّ هواها، وأسرعي في الأوبةِ إلى اللهِ، واعلمي أنّهُ أمرٌ ليس بيسيرٍ، ولكنّه سهلٌ على منِ استعانَ باللهِ عليهِ.

- بإذنِ اللهِ، سأبذلُ جهدي في قيادةِ نفسي وإخضاعِها للحقّ مهما كان مرّاً. أسألُ اللهَ العونَ والسداد.

- ١٤ -



(الكنوزُ التي أودعَها اللهُ فينا مِنْ قدراتٍ ومواهبَ تنتظرُ مَنْ يُنقّبُ عنها ويكتشفُها)

- أمّي لقد ضقْتُ ذرعاً وأنا أحاولُ البحثَ عنْهُ لكنّي كلّما بحثْتُ ضعْتُ وسطَ ركامِ الكتبِ التي لم تجبْني.

- وما الذي تبحثين عنه؟

- إنّي أبحثُ عنِ الشخصيّةِ وعلمِ النفسِ البشريّةِ.

- علمُ النفسِ والشخصيّة! ما الذي خطرَ ببالكِ؟

- أشعرُ بحاجةٍ شديدةٍ لأعرفَ نفسي، شخصيّتي، مواهبي، كيفَ أحدّدُ اختصاصَ الجامعةِ فيما بعدُ، ما الذي يناسبُني من مهنةٍ أو دراسةٍ؟

كلُّ هذهِ الأسئلةِ تلحّ عليَّ بشدّةٍ. وتذكّرْتُ كلماتٍ كنْتِ قد شرحتِها لي في كيفيّةِ التغيير وعلمِ النفسِ، فشعرْتُ أنَّ هذا العلمَ هو الذي سيجيبُ عنْ أسئلتِي، وأنالُ بهِ بغيتي.

- معكِ حقٌّ يا بنتي، فأنتِ قد شارفْتِ على اتّخاذِ قرارِ التخصّصِ الجامعيّ، ولابدَّ لكِ أنْ تعرفي ميولَكِ واتجاهَكِ وشخصيّتَكِ، وما يناسبُكِ منْ دراسةٍ جامعيّةٍ أو تخصّصٍ مهنيٍّ؛ وهذا هو العلمُ الذي سيساعدُكِ.

- ولكنّي تهْتُ فيهِ يا أمّي .. أرجوكِ ساعديني.

- لكِ ما تريدين.

- هناكَ الكثيرُ مِنَ الأمورِ التي تعرّفْتُ عليها وفهمتُها، وأشياءُ

كثيرةٌ لم أفهمْها.

- لنبدأْ بما فهمتِه.

- قرأْتُ عنْ نظريّةِ الذكاءاتِ المتعدّدةِ والتي فهمْتُ منها أنّ النّاسَ مختلفونَ ومتنوّعونَ في ذكاءاتِهم ومستوياتِها، وقد لاحظْتُ أنّ هذهِ الذكاءاتِ تصفُ شيئاً مِنْ شخصيّةِ الإنسانِ، وتساعدُ في تحديدِ الميولِ والاتّجاهِ، وأنواعُ الذكاءاتِ هي:

١-الذكاءُ اللغويُ:

وهو القدرةُ على استخدامِ الكلماتِ بفعاليّةٍ سواءً كانَ ذلكَ شفويّاً (مثلُ: روايةٍ أو قصةٍ، أو خطابٍ، أو العمل السياسي) أو منْ خلالِ الكتابةِ (مثلُ الشّعرِ، والتأليفِ، والنثرِ، والصحافةِ).

ويتضمّنُ القدرةَ على تركيبِ وبناءِ اللغةِ، والتعرّفَ على

الصوتيّاتِ الخاصّةِ باللغةِ، وعلى معنى اللغة، والأبعادِ العمليّةِ لاستخداماتِها، كما يتضمّنُ استخدامَ اللغةِ في إقناعِ الآخرين والتأثيرِ عليهم كي يتصرّفوا بطريقةٍ معيّنةٍ، واستخدامَ اللغةِ في تذكّرِ المعلوماتِ، والشرحِ أو استخدامَها في نقلِ المعلوماتِ، وفي الحديثِ عنِ اللغةِ ذاتِها ودراستِها.

-أظنُّ يا أمّي أنَّ الشعراءَ والكتّابَ والصحفيّين والإعلاميّين يمتلكون نسباً عاليةً منْ هذا الذكاءِ.

-صدقْتِ يا بنتي.

٢-الذّكاءُ الرياضيّ – المنطقيّ:

ونعني بهِ القدرةَ على استخدامِ الأعدادِ بكفاءةٍ (مثلُ علماءِ الرياضيّاتِ، والمحاسبين، والعاملينَ بمجالِ الإحصاءِ)، والتفكيرَ بصورةٍ جيّدةٍ (مثلُ العلماءِ خاصةً في مجالِ العلومِ، مبرمجي الكمبيوتر، أو العاملينَ في مجالِ المنطق). وهذا الذكاءُ يتضمّنُ

الحساسيةَ للأشكالِ والعلاقاتِ المنطقيّةِ، والصياغاتِ العباراتِ -مثلُ: إذا.....،فإنّ، والسببُ والنتيجةُ- والوظائفِ والمجرداتِ.

إنّ أنواعَ العمليّاتِ المستخدمةِ في خدمةِ الذكاءِ الرياضيِّ المنطقيِّ تتضمّنُ: التصنيفَ، والتجميعَ، والاستدلالَ، والتصميمَ، والعملياتِ الحسابيّةَ، واختبارَ الفروضِ.

-أشعرُ يا أمّي أنَّ اللهَ قد حباني بنسبٍ مرتفعةٍ مِنَ الذكاءِ اللغويّ والرياضيّ.

- نعم وأنا لاحظْتُ ذلكَ. نسألُ اللهَ أنْ يوفّقَكِ في استخدامِهما فيما يحبُّهُ ويرضيه.

٣-الذكاءُ المكانيّ (البصريّ):

ونعني بهِ القدرةَ على إدراكِ العالِمِ المكانيّ – المرئيّ بصورةٍ دقيقةٍ (على سبيلِ المثالِ: أدلاّءُ السياحةِ، والقنّاصون) والقيامَ

بتمثيلاتٍ وتخيلاتٍ معيّنةٍ نتيجةً لهذا الإدراكِ (مثلُ مهندسي الديكور الداخليّ، والمهندسين المعمارييّن، والفنّانين، أو المبتكرين).

إنّ هذا الذكاءَ يتضمّنُ الحساسيّةَ للّونِ، والخطِّ، والشكلِ والتلوينِ والمساحةِ والعلاقاتِ الكائنةِ بينَ هذهِ العناصرِ.

- هل تذكرينَ يا أمّي رفيقتي سما التي ذهبْتُ معها إلى حفلةِ إحدى صديقاتِنا؟

- نعم... وأذكرُ أنّها أنقذتْكنَّ مِنَ الضياعِ في الطرقاتِ بذكائِها المكانيِّ الحادّ.

- نعمْ يا أمّي... إنّها تملكُ ذكاءً مكانيّاً أو بصريّاً رائعاً.

- أحسنْتِ... لنكملْ.

٤-الذكاءُ الحركيُّ – الجسمانيّ:

ويتمثّلُ هذا الذكاءُ في الأشخاصِ المتخصّصينَ في استخدامِ الجسمِ ككلٍّ للتعبيرِ عنِ الأفكارِ والمشاعرِ (مثلُ الممثّلين، وأصحابِ التمثيلِ الصامتِ، والراقصين) ويكون أيضاً بسهولةِ استخدامِ الأيدي في إنتاجِ وتحويلِ الأشياءِ (مثلُ صانعي الأعمالِ الفنيّةِ اليدويّةِ، والمثّالين، والميكانيكيّين، والجرّاحين...) إنّ هذا الذكاءَ يتضمّنُ المهاراتِ الحركيّةَ الدقيقةَ مثلَ الترابطِ، والتوازنِ، والقوّةِ، والمرونةِ والسرعةِ.

-أمّي ... إنّ مدرّستي المفضّلةَ تعرفُ هذهِ المعلوماتِ.. أنا متأكّدةٌ.

- كيف؟

- إنّها يا أمّي استطاعَتْ أنْ تستخدمَ ذكاءَ زميلةٍ لنا في الصفِ تتّصِفُ بالحركةِ الكثيرةِ الشيءُ الذي يجعلها لا تثبتُ في مكانِها في الصفِّ، فجعلتْها مساعدةً لها في إدارةِ الصفِ

وتوفيرِ وسائلِهِ وإحضارِها، كنْتُ أستغربُ كيفَ استطاعَتْ أنْ تحتويَ بصبرِها حركتَها الزائدةَ، رغمَ أنّ طبيعتَها تلكَ تجعلُ العديدَ منَ المدرّساتِ الأخرياتِ يفقدْنَ صبرَهُنَّ معَها.

-ربّما صدَقَ ظنُّكِ يا بنتي، إنّ معرفةَ الفروقاتِ الفرديّةِ بينَ الناسِ وتنوّعِ ذكاءاتِهم يساعدُنا في فهمِهم وحسنِ التعاملِ معَهم.

٥-الذكاءُ الموسيقيّ:

يتمثّلُ في القدرةِ على إدراكِ الموسيقا، والتمييزِ والتوصيلِ (مثلُ الناقدِ والمؤلّفِ الموسيقيّ)، والتعبيرِ عن كافّةِ الأشكالِ الموسيقيّةِ (مثلُ العازفِ).
إنَّ هذا الذكاءَ يتضمّنُ الحساسيةَ للإيقاعِ، وطبقةِ الصوتِ (اللحن) وغيرِ ذلك.

٦-الذكاءُ الاجتماعيُّ (الخارجيّ):

ويتمّثلُ في القدرةِ على إدراكِ وتمييزِ الحالةِ المزاجيّةِ، والنوايا، والدوافعِ، والمشاعرِ، لدى الآخرين، وهذا يشملُ الحساسيةَ للتعبيراتِ الوجهيّةِ، والصوتِ، والإيماءاتِ، والإشاراتِ، والقدرةَ على التعبيرِ بينَ أنواعٍ مختلفةٍ مِنَ الدلائلِ الخاصّةِ بالتفاعلِ بينَ الأفرادِ، والقدرةَ على الاستجابةِ بكفاءةٍ لهذهِ الدلائلِ بطرقٍ واقعيّةٍ وهادفةٍ فيؤثّرونَ بسهولةٍ في الآخرينَ ولديهمْ قدرةً في قيادتِهم؛ وهذا الذكاءُ هامٌّ جدّاً للدعاةِ والمدرّسينَ والقادةِ.

-أظنُّ يا أمّي أنّ نسبةَ الذكاءِ الاجتماعيّ لديّ منخفضةً بعضَ الشيءِ.

-لا عليكِ.. سنتحدّثُ في ذلكَ .. لنتابعْ:

٧-الذكاءُ الشخصيُّ (الداخليّ):

وهو القدرةُ على معرفةِ الذاتِ والتكيّفِ في التعاملِ على أساسٍ مِنْ هذهِ المعرفةِ، إنّ هذا الذكاءَ يتضمّنُ أنْ يكونَ لدى الفردِ صورةً دقيقةً عنْ نفسِهِ (نقاطِ قوّتهِ وضعفِه)، والمعرفةِ بالمزاجِ الداخليّ والقدرةِ على التخطيطِ والتأمّلِ والتفكيرِ في كيفيّةِ عملِ العقلِ والتفكيرِ... فالفلاسفةُ وعلماءُ النفسِ ينتمونَ بشدّةٍ لهذا الذكاءِ.

-اممم .. أراكِ قد أسهبْتِ وأفضْتِ وفهمْتِ هذهِ النظريّةَ تماماً.. وأظنُّ أنّها قد ساعدتْكِ بعضَ الشيءِ في معرفةِ ميولِك، أليسَ كذلك؟

-نعمْ وللهِ الحمدُ. هذهِ النظريّةُ كانَتْ سهلةَ المنالِ وواضحةً، وجعلتْني أحدّدُ شيئاً مِنْ ملامحِ شخصيّتي أو المجالاتِ التي أجيدُها، وقد أحببْتُ في هذهِ النظريّةِ أنّها تقولُ: إنَّ كلَّ إنسانٍ

يستطيعُ أنْ يقوّيَ بعضَ جوانبِ الضّعفِ التي يلمسُها في شخصيّتِهِ عنْ طريقِ التدريبِ، وقد حاولْتُ فعلاً تجريبَ ذلكَ، وبدأتُ ألاحظُ تطوّري.

-ماهي الجوانبُ التي تجدينها منخفضةَ النسبةِ عندَكِ وتحاولين تطويرَها؟

-كانتْ نسبةُ الذكاءِ الاجتماعيِّ قليلةً عندي، أمّا الذكاءُ الطبيعيِّ والموسيقيّ فأظنُّهما بمستوى الوسط، لكنَّ الذكاءَ اللغويَّ والمنطقيَّ والداخليَّ فأظنُّ أنَّ نسبتَها مرتفعةٌ، والبصَريُّ لابأسَ بهِ، أظنّه فوقَ الوسط.

-جيّدٌ جدّاً، وماذا فعلتِ لتطويرِ المنخفضِ؟

-أحاولُ أنْ أُشْرِكَ نفسي في النشاطاتِ الجماعيّةِ في المدرسةِ، كما أنّ رفيقتِي الجديدةَ "سيما" لديْها قدرةٌ هائلةٌ في الذكاءِ الاجتماعيّ، فأنا أتعلّمُ منها الكثيرَ، ويبدو أنّ هذهِ أسهلُ

طريقةٍ للتعلّمِ.

ولقد قرأتُ أيضاً عنْ طرقِ التعلّمِ ومناسبتِها لنوعِ الشخصيّةِ ويسمّونَها " أنماطَ التعلّمِ"، فهناكَ الأشخاصُ السمعيّون وهم الذين يتعلّمونَ عَنْ طريقِ سماعِ المعلومةِ وليسَ القراءة، وبالفعلِ أعرفُ زميلةً لي في الصفِّ تحفظُ مباشرةً كلَّ ما تسمعهُ دونَ الحاجةِ للرجوعِ إلى الكتابِ -ما شاءَ اللهُ-، ومنْ خصائصِ المتعلّمِ السمعيّ: أنّهُ يواجهُ صعوبةً في اتّباعِ التوجيهاتِ الكتابيّةِ، ويتذكّرُ نسبةً كبيرةً مِنَ المعلوماتِ التي يسمعُها، ويتشتّتُ انتباهُهُ بسهولةٍ في المواقفِ التي يسودُ فيها الإزعاجُ، كما يصعُبُ عليهِ أنْ يعملَ بهدوءٍ لفترةٍ طويلةٍ، ويستمتعُ بالمناقشاتِ الصفّيّةِ، ويرتاحُ للمعلوماتِ التي ترافقُها مؤثّراتٌ صوتيّةٌ، وهو مستمعٌ جيّدٌ، ويحبُّ الكلامَ، ويستمتعُ بالموسيقا أو الأناشيد.

أمّا الأشخاصُ البصَريّونَ فيحبّونَ الصورَ والمخطّطاتِ المفاهيميّةِ والملخّصاتِ، ويجيدون التعلّمَ مِنْ خلالِها، فالمتعلّمُ البصريُّ

يحتاجُ إلى أنْ يرى الأشياءَ ليعرفَها، ويتذكّرَ ما يقرؤُهُ أو يكتبُه، و يستمتعُ بالأنشطةِ والعروضِ البصريّةِ، ويواجهُ صعوبةً في الاستماعِ للمحاضراتِ، و تتبّعِ التوجيهاتِ اللفظيّةِ فقط، لديهِ قدراتٌ فنّيّةٌ و اهتمامٌ بالألوانِ، كما يستمتعُ بتزيينِ مكانِ التعلّمِ، وينظّمُ الموادَ التعلميّةَ، ويميلُ إلى الهدوءِ ولا يتكلّمُ كثيراً، ويفقدُ صبرَهُ في المواقفِ التي تتطلّبُ الاستماعَ لفترةٍ طويلةٍ، ولديهِ خيالٌ واسعٌ.

وأمّا الأشخاصُ الحسيّونَ الحركيّونَ فهؤلاءِ يحبّونَ الحركةَ والنشاطَ، ويتعلّمونَ مِنْ خلالِ الأنشطةِ الحركيّةِ أكثرَ مِنْ نمطَيْ السمعيّينَ أو البصريّين؛ فالمتعلّمُ الحسّيُّ الحركيُّ يكونُ تعلّمُه في أفضلِ صورةٍ عندما يفعلُ الأشياءَ بيديه، ويستمتعُ بالدروسِ التي تتضمّنُ أنشطةً عمليّةً، كما يواجهُ صعوبةً في الجلوسِ بهدوءٍ، لديهِ تآزرٌ حركيٌّ جيّدٌ وقدراتٌ جسميّةٌ ورياضيّةٌ جيّدةٌ، ويستطيعُ تجميعَ الأشياءِ وتركيبَها بشكلٍ جيّدٍ ويستمتعُ بذلكَ،

و يتمّتّعُ بذاكرةٍ حركيّةٍ جيّدةٍ (يتذكّرُ الأشياءَ التي فعلَها وجرّبَها عمليّاً في الماضي، ويعبّرُ حركيّاً عنِ اهتمامِهِ ودافعيّتِهِ، فهو يتعلّمُ بشكلٍ أفضلَ عندما يستخدمُ جسمَه ككلٍّ وليس يديهِ فقط، يميلُ إلى الانشغالِ بعملِ شيءٍ ما معظمَ الوقتِ، ولا يستمعُ جيّدَاً، ولا ينتبهُ للعروضِ البصريّة بشكلٍ كافٍ .

-ماشاءَ اللهُ، كلُّ هذهِ المعلوماتِ تعلّمتِها! لم تخبريني منْ قبلُ!

- أردْتُ أنْ أفاجئَكِ، ولكنّي تعثّرْتُ كما أخبرتُكِ.

-أحسنتِ يا بنتي .. لكنّي حتّى الآنَ أجدكِ غيرَ تائهةٍ! فأينَ ضِعْتِ؟

-ضِعْتُ في نظريّاتِ الشخصيّةِ واختباراتِها.

-لا عليكِ يا بنتي، هذا العلمُ فيهِ نظرياتٌ كثيرة وهي تختلفُ فيما بينَها مِنْ مصطلحاتٍ وتقسيماتٍ للشخصيّةِ، وواضعوها مختلفونَ فيما بينَهم، وجميعُهم يجتهدونَ ويفترضونَ نظريّاتٍ، ثمّ

يضعونَ مقاييسَ لها، وللأسفِ حتّى الآنَ لا توجدُ نظريّةٌ إسلاميّةٌ واضحةُ المعالمِ في علمِ النفسِ، فأغلبُ الباحثين المسلمين الآن في مرحلةِ الأخذِ ثمَّ النقدِ، ولم يبلغُوا بعدُ مرحلةَ طرحِ نظريّةٍ متكاملةٍ في علمِ النفسِ، لكنّهم بدؤوا يخطُون خطواتٍ لابأسَ بها في نقدِ النظريّاتِ الغربيّةِ ووضعِ أسسٍ للنظريّةِ الإسلاميّةِ، و لقد قرأْتُ كتاباً منذُ فترةٍ ليست بالطويلةِ حولَ التأصيلِ الإسلاميّ لعلمِ النفسِ، و كانَ مؤلّفُهُ موفّقاً في وضعِ الأسسِ لبناءِ نظريّةٍ في علمِ النفسِ، وهي الخطوةُ الأولى والتي يجبُ أنْ تتبعَها خطواتٌ، لأنَّ فهمَ القرآنِ للإنسانِ واحتياجاتهِ وطريقةِ السموِّ بهِ مغايرةٌ تماماً لنظريّاتِ الغربِ التي جعلَتْ اهتمامَ وغايةَ الإنسانِ -في بعضِها- مثلُ العالِمِ "فرويد" هي إشباعُ الغريزةِ وكأنّهُ يضعُ الإنسانَ بمرتبةِ الحيوانِ في ذلكَ، وهي نظريةٌ رغمَ شهرتِها، إلا أنَّ الغربَ أنفسَهم قد أثبتوا خطأَها، و لكنْ للأسفِ مازالتْ تدرَّسُ في الجامعاتِ العربيّةِ في كليّاتِ علمِ

النفس!

إنّنا بحاجةٍ حقّاً إلى وضعِ نظريّةٍ في علمِ النفسِ الإسلاميّ تستمدُّ أصولَها مِنْ خالقِ السمواتِ والأرضِ. نسألُ اللهَ لجميعِ الباحثينَ المخلصينَ التوفيقَ.

-لا أريدُ يا أمّي أنْ أدخلَ في متاهاتِ نظريّاتٍ نفسيّةٍ، فهذهِ التي شكوتُ لكِ منْها حينَ حاولتُ البحثَ.

ربّما إذا وجدْتُ نفسي أتّجهُ في الاهتمامِ في هذا المجالِ فيما بعد كتخصّصٍ جامعيٍّ أتوسّعُ وأبحثُ وأذهبُ إلى أولي الاختصاصِ، أمّا الآنَ فأريدُ أنْ أفهمَ نفسي لأعرفَ مواطنَ القوّةِ والضعفِ، فأعملَ على تقويةِ الضعيفِ منها، ثمّ أعرفُ ماهي مميّزاتُها وما يصلحُ لها منْ أعمالٍ.

- حسناً أنتِ ترغبينَ بمعرفةِ النظريّاتِ التي اهتمّتْ بربطِ سماتِ الشخصيّةِ وصفاتِها وبينَ ما تحتاجُهُ المهنُ من قدراتٍ وسماتٍ شخصيّةٍ؟

- نعم يا أمّي مِنْ فضلِكِ.

-حسناً يا بنتي. بالفعلِ هناكَ نظريّاتٌ تعطيكِ فكرةً حولَ اختيارِ تخصّصكِ المستقبليّ، فمثلاً الشخصُ الذي لديهِ قدراتٌ مرتفعةٌ منَ الذكاءِ الاجتماعيّ أقدرُ الناسِ في المجالاتِ الخدميّةِ والقياديّةِ كالطبّ والتدريسِ والتدريبِ والقيادةِ ... وهكذا.

- جيّد هذا ما أحتاجهُ الآنَ بالضبطِ. فما هي هذهِ النظريّةُ أو النظريّاتُ يا أمّي؟

-دعيني أفتحُ حاسبي فقد خزّنْتُ بعضَ المعلوماتِ عنها واحتفظْتُ بموقعٍ جيّدٍ يقيسُ السماتِ وفقَها ويفسّرُ النتائجَ وهو حتماً سيفيدُكِ.

- كم أنتِ رائعةً يا أمّي، سأحضرُ لكِ حاسبَكِ فوراً.

-امم ... انظري إلى هذهِ الأقوال:

تتكّوّنُ شخصيّةُ الإنسانِ منْ مزيجٍ مِنَ: الدوافعِ، والعاداتِ، والميولِ، والعقلِ، والعواطفِ، والآراءِ والعقائدِ، والأفكارِ، والاستعداداتِ، والقدراتِ، والمشاعرِ، والأحاسيسِ، والسماتِ.

كلُّ هذهِ المكوّناتِ أو أغلبُها تمتزجُ لتكوّنَ شخصيّةَ الإنسانِ الطبيعيّةَ.

وهذهِ هي المقالةُ التي تحتاجينَها، إنّها نظريّةُ (جون هولاند) في الاختيارِ المهنيّ.

هناكَ ستّةُ أنماطٍ للشخصيّةِ هي:

١- النمطُ الواقعيّ *Realistic Type*

الأشخاصُ هنا يتعاملونَ مع البيئةِ بطريقةٍ موضوعيّةٍ وملموسةٍ أو محسوسةٍ. لا يحبّونَ الأنشطةَ والأهدافَ التي تتطلّبُ الذاتيّةَ أو

تتطلّبُ استخدامَ المهاراتِ الاجتماعيّةِ أو الذكاءِ أو القدراتِ الفنّيّةِ، يُوصفونَ بأنّهم غيرُ اجتماعيّين، مستقرّون انفعاليّاً، وماديّون، يتّسمونَ بأنّهم ذكوريّون أو مسترجلون، يفضّلون المهنَ الزراعيّةَ والتقنيّةَ والهندسيّةَ والميكانيكيّةَ وما شابهَها، يحبّون الأنشطةَ التي تتطلّبُ مهاراتٍ حركيّةً أو استخدامَ الآلاتِ والأجهزةِ والأدواتِ، والروتين. والعملَ مع الأشياءِ والعددِ والمكائنِ كالمُزارعين، ومهندسي الميكانيك، والرياضيّين أيضاً، ومثلهم عمّال الحرف كالنجّارين، وأعمالُ الورشِ وغيرها). هؤلاءِ يرغبون بمهامٍّ محسوسةٍ ملموسةٍ لا مجرّدَة، وتفاعلُهم الاجتماعيُّ غيرُ قويٍّ. أحياناً يعبَّرُ عنْ هذا النمطِ أو التوجّهِ بـ (الحركيّ *Motoric*).

- اممم.. أظنُّ أنَّ هؤلاءِ يعانونَ مِنْ تدنٍّ كبيرٍ في مستوى الذكاءِ الاجتماعيّ. أليسَ كذلك؟

- آه .. أصبحْتِ تحلّلين نفسيّاً ... هههههه .. لنتابعِ النمطَ الآخر:

٢-النمط البحثيّ *Investigative Type*

الأفرادُ هنا يتفاعلون مع البيئةِ عَنْ طريقِ استخدامِ الذكاءِ والتفكيرِ المجرّدِ، واستخدامِ الأفكارِ والكلماتِ والرموز، يفضّلون مِهناً علميّةً، ومهاماً نظريّةً، مِنْ قراءةٍ، أو جبرٍ، أو لغاتٍ أجنبيّةٍ، وأشياءَ إبداعيّةٍ مثلُ الأدبِ والموسيقا وغيرِها من الأشياءِ المجرّدة، يحاولون تجنّبَ المواقفِ الاجتماعيّةِ، يرون أنفسَهم غيرَ اجتماعيّينَ ومِنْ صفاتِهم أنّهم ذكوريّونَ أو مسترجلونَ، ومثابرونَ أكاديميّونَ، منطوونَ يحبّونَ العزلةَ. إنجازُهمْ يكونُ في المجالاتِ العلميّةِ والأكاديميّةِ وفي الغالبِ لا يصلحونَ لوظائفِ القيادةِ، يحبّونَ العملَ معَ المعلوماتِ مثلَ الأفكارِ المجرّدةِ والنظريّاتِ. مثلَ علماءِ الكيمياءِ والفيزياءِ وغيرِها مِنَ العلومِ. أحياناً يعبّرُ عَنْ هذا النمطِ أو التوجّهِ بـ

(العقلي Intellectual).

- لن أعلّق يا أمّي ... هههه .. لنتابعْ ، ولكنْ أظنُّ هؤلاءِ أيضاً عندهمْ المشكلةُ ذاتُها لكنّهُم يمتلكونَ ذكاءً رياضيّاً أو منطقيّاً.

٣-النمطُ الفنّي *Artistic Type*

الأفرادُ هُنا يتفاعلونَ معَ البيئةِ عنْ طريقِ الخلقِ والإبداعِ الأدبيِّ والفنّيِ، ويعتمدونَ على انطباعاتِهم وتخيّلاتِهمُ الذاتيةِ في البحثِ عنْ حلولٍ للمشاكلِ، يفضّلونَ المهنَ الموسيقيّةَ، والأدبيّةَ، والثقافةَ الدراماتيّة، والأنشطةَ الشبيهةَ بها والتي تتطلّبُ إبداعاً (رسام، كاتب، روائي، فنّان). لا يحبّونَ الأنشطةَ الرجوليّةَ أو الأدوارَ الذكوريّةَ مثلَ إصلاحِ السيّاراتِ أو الأنشطةِ الرياضيّةِ، يعبّرونَ عن أنفسهم بالفنِّ والأدبِ، يرونَ أنفسَهم غيرَ اجتماعيّين، وأنثويّين، خاضعِينَ أو مطيعِينَ،

واستبطانيّينَ، وحسّاسين، ومرنين، ومندفعينَ، ومستقلّين، ومنبسطِين، وخياليّين، أحياناً يعبّرُ عنْ هذا النمط أو التوجه بـ (الجماليّ *Esthetic*).

-هؤلاءِ أظنّ أنّ ذكاءَهمُ اللّغويَّ مرتفعٌ، أو قد يكونُ الفنيُّ أو الداخليّ.. أليسَ كذلكَ يا أمّي؟

- نعم أحسنْتِ، أرى أنّكِ قد أجدْتِ و -للهِ الحمدُ-فهمَ وتطبيقَ نظريّةِ الذكاءاتِ المتعدّدةِ. لنتابعْ يا حبيبتي:

٤-النمطُ الاجتماعيُّ *Social Type*

الأفرادُ هُنا يتفاعلونَ معَ البيئةِ عنْ طريقِ استخدامِ مهاراتِ التعاملِ معَ الآخرين، وهُمْ معروفونَ بمهاراتِهمُ الاجتماعيّةِ وحاجتِهم للتفاعلِ معَ مَنْ حولَهم، يفضّلونَ الوظائفَ التربويّةَ والعلاجيّةَ والدينيّةَ، والخدماتِ الاجتماعيّةَ، والموسيقا، والقراءةَ.، والاهتمامَ بالمشاكلِ الاجتماعيّةِ، يبتعدون عنِ

المهاراتِ الجسميّةِ أو المشاكلِ العقليّةِ المعقّدةِ، يرونَ أنفسَهم اجتماعيّينَ، ومرنينَ، ومرحينَ، ومحافظينَ، وهم مسؤولونَ، مُنجِزونَ، ومتقبّلونَ لذواتِهم، يرغبونَ بالأعمالِ التي تتضمّن مساعدةَ الآخرين مثلَ أخصائي خدمةٍ اجتماعيّةٍ، مرشدٍ، مُدرّسٍ. أحياناً يعبّرُ عنْ هذا النمطِ أو التوجّهِ بـ (المُسَانِد Supportive).

-أرى بالفعلِ يا أمّي أنّ وجودَ نسبٍ مختلفةٍ مِنَ الذكاءاتِ في الشخصِ الواحدِ تعطيهِ طابَعاً مُعيّناً واتّجاهاً في اختيارِ المهنةِ، وأنَّ هناكَ ذكاءً أو أكثرَ يكونُ عالياً عندَ الشخصِ فيعطيهِ التوجهَ العامَّ أو السمةَ العامّةَ، أمّا الذكاءاتُ الأخرى التي بنسبٍ أقلَّ فتضفي تفاصيلَ أخرى حيثُ تحدّدُ الميولَ أكثرَ. أليسَ كذلكَ؟

-صحيحٌ، ماشاءَ اللهُ، استنتاجٌ رائعٌ جدّاً يا بنتي. لنتابعِ الأنماطَ

الأخرى:

٥-النمطُ المغامر *Enterprising Type*

الأفراد هنا يتفاعلونَ معَ البيئةِ عنْ طريقِ ممارسةِ أنشطةٍ تسمحُ لهم بالتعبيرِ عنِ المغامرةِ، والسيطرةِ، والحماسِ، والاندفاعيّةِ وقيادةِ الآخرين، يوصَفونَ بأنّهم قادرونَ على الإقناعِ، لديْهم قدرةٌ لفظيّةٌ، انبساطيّون، واثقونَ بأنفسِهم، متقبّلون لها، جريئون، واستعراضيّون. يفضّلونَ المهنَ التي فيها بيعٌ، أو إشرافٌ، أو قيادةٌ تشبعُ حاجتَهم للسيطرةِ والحصولِ على الاعترافِ وإظهارِ القوّةِ (كمندوبِ مبيعاتٍ، أو صاحبِ أعمالٍ أو شركةٍ). أحياناً يعبَّرُ عنْ هذا النمطِ أو التوجّهِ بـ (الإقناعيّ *Persuasive*).

٦-النمطُ التقليديّ *Conventional Type*

الأفرادُ هُنا يتفاعلونَ معَ البيئةِ عنْ طريقِ اختيارِ الأنشطةِ التي

تؤدّي إلى الاستحسانِ الاجتماعيّ، طريقتُهم في التعاملِ معَ المواقفِ روتينيّةٌ وتقليديّةٌ وصحيحةٌ ليسَ بها أصالة [1] . يعطون انطباعاً حسناً بكونِهم منظّمين، وهمُ اجتماعيّون ومحافظون. يفضّلون الأنشطةَ السكرتاريّةَ والتنظيميّةَ التي تتطلّبُ تنظيمَ المعلوماتِ والبياناتِ، ويضعونَ قيمةً عاليةً على الأمورِ الاقتصاديّةِ، يرونَ أنفسَهم أنّهم غيرُ مرنين، وهم مستقرّونَ، ولديهمُ استعدادٌ رياضيٌّ أكثرَ مِنَ الاستعدادِ اللفظيّ، يميلونَ إلى الروتينِ وينفّذونَ الأنظمةَ والقواعدَ والتعليماتِ، يعملونَ معَ أصحابِ السلطةِ والنفوذِ، يفضّلونَ المهامَّ والوظائفَ الواضحةَ التي ليسَ فيها غموضٌ، أحيانا يُعبَّرُ عنْ هذا النمطِ أو التوجّهِ بـ (المُطيعِ أو المُمتثلِ *Conforming*).

-بالفعلِ يا أمّي أجدُ أنّ الأنماطَ الثلاثةَ الأولى لمَنْ ذكاؤُه الذاتيُّ

[1] – الأصالة: من قدرات ومهارات التفكير الإبداعي، وتعني الإنتاج غير المألوف الذي لم يسبق إليه أحد، وتسمى الفكرة أصيلة إذا كانت لا تخضع للأفكار الشائعة وتتصف بالتميّز.

أو الداخليُّ عالٍ جدّاً، وأمّا الأنماطُ الثلاثةُ الأخيرةُ فلذوي الذكاءِ الاجتماعيِّ العالي، ثمَّ يتمايزونَ حسبَ الذكاءاتِ الأخرى مِنْ ذكاءٍ لغويٍّ أو منطقيٍّ أو حركيٍّ وحسيّ، أليسَ كذلك؟

-صحيحٌ يا بنتي، ما شاءَ اللهُ تحليلٌ رائعٌ، أرى أنّكِ تملكينَ ذكاءً رياضيّاً عالياً. لنتابعِ المقالَ :

يرى هولاند أنَّ أيَّ شخصٍ يمكنُ أنْ يُصنَّفَ تحتَ أحدِ تلكَ الأنماطِ إمّا بواسطةِ ميولِهِ التعليميّةِ أو المهنيّةِ أو بواسطةِ الدرجاتِ التي يحصلُ عليها عندَ أخذِهِ لأحدِ مقاييسِ الميولِ المهنيّةِ.

وهناكَ ستُّ بيئاتٍ مهنيّةٍ:

يقابلُ تلكَ الأنماطَ الستّةَ ستُّ بيئاتٍ مهنيّةٍ كلُّ واحدةٍ لها متطلّباتٌ معيّنةٌ ولها خصائصُ تميّزُ الأشخاصَ الذين يعملونَ بها:

١-البيئةُ الواقعيّةُ *Realistic Environment*

الأنشطةُ هُنا حسيّةٌ جسميّةٌ تتطلّبُ مهاراتٍ ميكانيكيّةٍ ومثابرةٍ وحركةٍ جسميّةٍ، وحدٍّ أدنى مِنَ المهاراتِ الاجتماعيّةِ، مثلُ محطةِ بنزين، ميكانيكا، مزرعةٍ، شركةِ بناء، محلِّ حلاقةٍ، سباكةٍ، تشغيلُ مكائنَ وآلات.. الخ. العملُ مع الآلاتِ، والجرّاراتِ، والسيّاراتِ، والطائراتِ، زراعةٍ، وهندسة الخ...

٢-البيئةُ البحثيّةُ *Investigative Environment*

تتطلّبُ استخدامَ القدراتِ المجرّدةِ والإبداعيّةِ بدلاً مِنَ الإدراكاتِ الشخصيّةِ، والأداءُ المُرضي يتطلّبُ الذكاءَ والتخيّلَ، أمّا الإنجازُ فيتطلّبُ وقتاً طويلاً لرؤيةِ النتائجِ؛ وتُحلُّ المشاكلُ باستخدامِ القدراتِ والوسائلِ العقليّةِ؛ ويكونُ العملُ مع الأفكارِ والأشياءِ وليس معَ الناسِ.

أمثلةٌ على أماكنِ العملِ: مختبرٌ أو مركزُ بحوثٍ، مكتبةٌ، جماعةُ

بحثٍ، بيئةُ العلماءِ والفلاسفةِ.

-رائعٌ يا أمّي .. الأمرُ بدأَ يتّضحُ بالنسبةِ لي. ماهي البيئاتُ الأخرى؟

٣-البيئةُ الفنّيّةُ *Artistic Environment*

تتطلّبُ الاستخدامَ الإبداعيَّ للأشكالِ الأدبيّةِ، واستخدامَ المعرفةِ، والحدسِ، والعاطفةِ، والاعتمادَ على معاييرَ ذاتيّةٍ وشخصيّةٍ للحكمِ على المعلوماتِ؛ العملُ يتطلّبُ التزاماً عميقاً طويلَ المدى؛ أمّا أمثلةُ أماكنِ العملِ: مسرحٌ، استديو فنّيّ أو موسيقيّ، مركزُ فنونٍ، قسمُ الموسيقا، وهي بيئةُ الفنّانينَ، والموسيقيّينَ والمنشدين، والممثّلينَ، والرّسامين.

٤-البيئةُ الاجتماعيّةُ *Social Environment*

تتطلّبُ القدرةَ على تعديلِ وتفسيرِ السلوكِ الإنسانيِّ، ورغبةً في

الاهتمامِ والتعاملِ معَ الآخرين؛

يتطلّب العملُ علاقات شخصيّةً متكرّرةً وطويلةَ الأمدِ، ومخاطرُ العملِ الرئيسيّةُ مخاطرُ انفعاليّةٌ وعاطفيّةٌ كقاعةٍ صفّيّةٍ، وقاعةِ محاضراتٍ في جامعةٍ، ومكاتبِ إرشادٍ، ومستشفى للصحّةِ النفسيّةِ، ومكاتبِ الدعوةِ والإرشادِ الدينيّ، ومكاتبَ تعليميّةٍ أو مراكزِ الاستجمامِ والترويحِ: وهي بيئةُ المدرّسِ، والأخصائيِّ الاجتماعيِّ أو النفسيِّ، والموجّهِ المهنيِّ.. الخ.

٥-بيئةُ المغامرةِ أو الإقناعِ *Enterprising Environment*

تتطلّبُ مهاراتٍ لفظيّةً لتوجيهِ أو إقناعِ الآخرين؛ ويتطلّبُ العملُ توجيهَ أو تخطيطَ الأنشطةِ التي يقومُ بها الآخرونَ أو التحكّمَ فيها رغبةً في التعاملِ معَ الآخرين ولكنْ على مستوىً سطحيٍّ مقارنةً بالبيئةِ الاجتماعيّةِ، مثلُ مكتبِ عقارٍ، ومكانِ بيعِ سيّاراتٍ، وشركةِ دعايةٍ وإعلانٍ، وإدارةِ مبيعاتٍ، إدارةِ

أعمالٍ الخ. وهي بيئةُ السياسيّينَ ومدراءِ الأعمالِ ورجالِ المبيعاتِ ورجالِ القانونِ والمحاماة.

٦-البيئةُ التقليديّةُ *Conventional Environment*

تتطلّبُ تعاملاً مُنتظماً وروتينيّاً ومحسوساً معَ المعلوماتِ اللفظيّةِ والرياضيّةِ والأرقامِ؛ مهامُّها متكرّرةٌ وقصيرةُ المدى وباتّباعِ إجراءاتٍ واضحةٍ، تتطلّبُ مهاراتٍ اجتماعيّةً قليلةً حيثُ إنّ العملَ معَ تجهيزاتِ وأدواتِ المكتبِ. مثلُ: شركةِ محاسبةٍ، ومكتبِ بريدٍ، وغرفةِ ملفّاتٍ، مكتبِ عملٍ، وسكرتارية، واستقبالٍ، وصرّافِ بنكٍ الخ. بيئةٌ يغلبُ عليها الاهتمامُ بالقواعدِ والتعليماتِ والروتين (محاسبةٌ، واقتصادٌ، وسكرتارية، وأعمالٌ مكتبيّة).

يقترحُ هولاند أنّ كلَّ بيئةٍ مِنَ البيئاتِ السابقةِ يلتحقُ بها أفرادٌ شخصيّاتُهم شبيهةٌ بشخصيّاتِ تلكَ البيئةِ، ويُفترضُ أنّهم

سيسعدونَ وينتجونَ في بيئةٍ مناسبةٍ لنمطِ شخصيّاتِهم، ويكونونَ غيرَ سعيدينَ أو مُنتِجينَ في بيئةٍ لا تناسبُ نمطَ شخصيّاتِهم.

-أظنُّ أنَّ رأيّهُ كانَ صائباً يا أمّي، بقيَ عليَّ أنْ أقومَ باختبارِ الذكاءاتِ المتعدّدةِ واختبارِ هولاند.

هل تعرفينَ المواقعَ التي تقومُ بقياسِ هذهِ الاختباراتِ، كما أخبرتني؟

-نعمْ يا بنتي، لقد فتحْتُ لكِ الموقعَ، إنّه موقعٌ موثوقٌ لمنتدى المقاييسِ النفسيّةِ.. ها هو.

و لكنْ ألم تلاحظي شيئاً آخرَ يمكنُكِ أنْ تستنتجيهِ ممّا سبق؟

-لا ، ما هو يا أمّي؟

-اختلافُ أنواعِ الشخصيّاتِ ليس للتفضيلِ، أي لا يوجدُ صنفٌ أفضلُ من الآخر... وإنّما يصلحُ كلُّ صنفٍ لنوعٍ معيّنٍ مِنَ المهنِ يكونُ فيها أكثرَ إنتاجاً وإبداعاً.. فاختلافُ أنماطِ

شخصيّاتنا وُجِدَ لتكاملِ مهامِّنا، أي لنكونَ متكاملينَ في مهاراتِنا، يشدُّ بعضُنا بعضاً؛ لكنَّ الإنسانَ الموفّقَ هو الذي يُميّزُ المجالَ الذي يجيدُه ويبدعُ فيهِ وفقَ قدراتِهِ التي أنعمَ اللهُ بها عليهِ، والمجتمعُ الناجحُ هو الذي يساعدُ في معرفةِ كلِّ شخصٍ لميولهِ ومهنتِهِ، ثمَّ يوفّرُ فُرصاً لوضعِ الإنسانِ المناسبِ في موضعِهِ المناسبِ بأيسرِ السبُلِ، فيختصرُ المسافاتِ لإدراكِ كلِّ فردٍ مجالَ إبداعِهِ ومهاراتِهِ، ويقدّمُ لهُ فرصَ العملِ المناسبةِ، كما يعملُ على تطويرِ نقاطِ القوّةِ وتحسينِ نقاطِ الضعفِ ليكونَ أكثرَ إنتاجاً.

-اممم ... هامٌّ جدّاً هذا الاستنتاجُ.. (لا تَباهي بالقدراتِ أو المناصبِ... كلٌّ ميسّرٌ لِما خُلقَ له).

-تماماً يا بنتي.. أرأيتِ؟ نظرةٌ صحيحةٌ لإمكاناتِنا وعطاءِ اللهِ وغايتِهِ مِنَ اختلافِ قدراتِنا تجعلُنا متكاملينَ في العطاءِ والعملِ،

لا متفاضلينَ، أو متكبّرينَ، ولا يحقرُ بعضُنا عملَ بعضٍ!

فلا فضلَ للطبيبِ على المهندسِ أو المعلّمِ أو صاحبِ صنعةٍ أو عاملِ نظافةٍ، جميعُنا لنا دورٌ هامٌّ في المجتمعِ، ونتفاضلُ بمدى إتقانِنا وإخلاصِنا في العملِ، لا في طبيعةِ العملِ.. هذا المفهومُ يا بنتي هو سبيلُ الرقيِّ والنهضةِ بمجتمعاتِنا ورؤيتِها الصحيحةِ للعملِ؛ لابدَّ أنْ يدركَ كلٌّ منّا دورَهُ في الحياةِ فيتقنَهُ ويخلصَ للهِ، فينالَ رفعةَ الدنيا والآخرةِ معاً.

- رائعٌ يا أمّي، ما أجملَ أنْ ينظرَ الإنسانُ إلى الكونِ ومجتمعِهِ بعينٍ صحيحةٍ، ما أجملَ أنْ يتكاملَ الدينُ معَ العلمِ! يشدُّ بعضُه بعضاً... شكراً لكِ يا أمّاه على هذهِ اللفتةِ الرائعةِ.

سأنشر ما تعلّمْتُهُ اليومَ بينَ زميلاتي في الصفِّ وصديقاتِي .. فأنا الآنَ أشعرُ براحةٍ كبيرةٍ، إذ إنّي يوماً بعدَ يومٍ أحلُّ لغزَ الحياةِ، وأزدادُ فهماً للمجتمعِ مِنْ حولي، وهذا بالضبطِ ما يحتاجُهُ مَنْ

في مثلِ عمري.

إنّني ألاحظُ يا أمّي أنّكِ قد بنيْتِ فينا قِيَماً جميلةً منذُ الصغرِ، ولكنّي أستغربُ مِنْ نفسي أنّني رغمَ ما تربّيتُ عليهِ مِنَ القيمِ لسنواتٍ عديدةٍ، إلا أنّ عقليَ الآنَ بدأَ يتساءلُ أو يبحثُ عنها... إنّي أستغربُ مِنْ نفسي، فأنا الآنَ أتصارعُ معها على قيمٍ علمتِني إيّاها منذُ الصغرِ، وأتساءلُ هل هيَ صالحةٌ للتطبيقِ! أو هل عليّ أن أُلزِمَ نفسيَ بها؟ أليسَ ذلكَ غريباً يا أمّي؟

-لا ليسَ غريباً.

-حقّاً؟ كيفَ وأنا قد تربّيتُ عليها!

-لأنّكِ الآنَ يا بنتي في طورِ اكتمالِ قدراتِكِ العقليّةِ ونضجِكِ الفكريِّ، لقد بدأَ عقلُكِ يتساءلُ عنْ أشياءَ تمَّ إدخالُها إليهِ بدونِ وعيٍ منهُ! وهذا طبيعيٌّ في مرحلةِ عمرِك.. إذْ لابدَّ لكِ أنْ تختاري دينَكِ عنِ اقتناعٍ، وقيمَكِ عنْ مُعتقَدٍ يعتمدُ على فهمٍ

ودرايةٍ وإدراكٍ حقيقيٍّ لأهميّةِ تلكَ القيمِ في الحياةِ.
في هذهِ المرحلةِ يا بنتي يتمُّ اختيارُ قيمِ حياتِكِ التي ترغبينَ أنْ تصوغي حياتَكِ وشخصيّتكِ وفقَها، لذلكَ هذهِ المرحلةُ مُهمّةٌ، وإنْ وفّقكِ اللهُ واخترتِ القيمَ والطريقَ الصحيحَ وفّرتِ على نفسِكِ عناءَ تصويبِ أخطاءِ المستقبلِ، وحقّقْتِ إنجازاتٍ رائعةً أثناءَ حياتكِ، ومِنْ هُنا تكمُنُ أهميّةُ هذه المرحلةِ مِنْ عمرِكِ، إنّها مرحلةُ الاختيارِ.. اختيارِ الطريقِ والقيمِ، لذلكَ إنْ قدّمَ المجتمعُ لِمَنْ في مثلِ عمرِكِ أجوبةً عنْ كلِّ الأسئلةِ سيُجنّبُ الناشئةَ الكثيرَ مِنْ عناءِ الصراعاتِ الداخليّةِ وسيضعُهم على أوّلِ خطواتِ النجاحِ والفوزِ في الدنيا والآخرةِ.

- كَمْ أنا محاطةٌ بنعمةٍ كبيرةٍ يا أمّي لم أكنْ أشعرُ بعظمِها. نعمْ أنا أحبُّكِ لأنّكِ أفضْتِ عليَّ مِنَ الحنانِ والرحمةِ والرعايةِ الشيءَ الكثيرَ... لكنَّ النعمةَ العُظمى هي هذهِ الحواراتُ التي تجيبني فيها عنْ كلِّ ما يخطرُ ببالي دونَ أدنى حرجٍ، أتمنّى لو أنَّ كلَّ

أمٍّ مثلُك. أكرمَكِ اللهُ وجزاكِ عنّي كلَّ خيرٍ .

الحمدُ للهِ أنْ أكرمَني بك .. هاتِي يدَكِ أقبّلْها يا حبيبتي.

- رضيَ اللهُ عنك يا بنتي ووفّقَكِ لما يحبُّهُ و يرضاهُ، وأسعدك في الدنيا والآخرةِ. هيّا قومِي باختباراتِ الشخصيّةِ و الذكاءاتِ لنتعرّفَ على مواطنِ القوةِ لديكِ فننميهَا ونقاطِ الضعفِ فنعملَ على تحسينِها.

-حسناً يا أمّي سأقومُ بالاختباراتِ وأخبرُكِ بالنتائجِ.. أنا عظيمةُ الشوقِ لأعرفَ ميولِيَ بشكلٍ محدّدٍ ودقيقٍ، ولأقارنَ بينَ ما توقّعتُه ونتائجِ الاختبارَين.

- ١٥ -



(مهارةُ القرارِ يمكنُ اكتسابُها بالمعرفةِ الصحيحةِ والتدرّبِ عليها)

أغلقْتُ سمّاعةَ الهاتفِ وأنا شاردةُ الذهن.

-ما بكِ يا علا؟

-لا شيءَ يا أمّي، رفيقتي هندُ، أختُها تُجابهُ قراراً صعباً، كنّا نتحدّثُ بشأنهِ، فقدْ تقدّمَ لخطبتِها شخصٌ، وهي حائرةٌ ولا

تعرفُ كيفَ عليها أنْ تتّخذَ قرارَها، رغمَ أنّ عمرَها لا يقلُّ عنِ الثانيةِ والعشرين.

تبسّمَتْ أمّي قائلةً:

- و هلْ ساعدتِها باتّخاذِ القرارِ أم كنْتِ صاحبتَه؟

تبسّمْتُ رغمَ شرودي:

-لا يا أمّي .. هندُ كانَتْ تسألُني بشكلٍ عامٍّ كيفَ يُتّخذُ القرارُ الصحيحُ، وذلكَ لعلمِها أنّي أطالعُ كثيراً مِنْ هذهِ العلومِ الحديثةِ.

-ما شاءَ الله ... وهل أجبتِها؟

-لا يا أمّي، لذلكَ أنا أفكّرُ، يا تُرى ماهي الخطواتُ الصحيحة لاتّخاذِ القرارِ؟ حتّى لا يندمَ المرءُ، فهناكَ قراراتٌ مصيريّةٌ مثلُ هذا القرارِ الذي سيؤثّرُ على مستقبلِها بشكلٍ كبيرٍ.

-صحيحٌ يا علا. ألم تبحثي عنْ خطواتِ اتّخاذِ القرار؟

-لا يا أمّي ليسَ بعدُ، لكنّي أنوي فعلَ ذلكَ. هل تساعدينَني؟ لابدَّ أنّ لديكِ خبرةً طويلةً في ممارستِها أنتِ وأبي.

-دعيني أوّلاً أنصحُكِ بخطأٍ يقومُ بهِ الكثيرونَ دونَ أنْ يشعروا وهي نقطةٌ جدّاً هامّة.

-ما هي يا أمّي؟

-لكلِّ قرارٍ أو مشكلةٍ عواملُ مؤثّرةٌ، سلباً أو إيجاباً، عواملُ ذاتيّةٌ شخصيّةٌ أو أسريّةٌ اجتماعيّةٌ أو اقتصاديّةٌ، انفعاليّةٌ عاطفيّةٌ أو جسميّةٌ...... هل هذا صحيح؟

- نعم يا أمّي، وهذا ما يجعلُ القرارَ صعباً عندما تكثرُ هذهِ العواملُ وتتشابكُ وتتعقّدُ، فلا يستطيعُ المرءُ أنْ يميّزَ بينَها أو يفاضلَ فيما يهتمُّ بهِ ويعتبرُهُ عاملاً مؤثّراً في قرارِه.

-نعم وهُنا تكمنُ المشكلةُ، لاسيّما عندما يسيطرُ عاملٌ دونَ آخرَ على تفكيرِنا، فلنشبّه مثلاً كلَّ عاملٍ مكتوبٍ بورقةٍ منفصلةٍ عنْ غيرِه.. فالمشكلتانِ اللتانِ غالباً ما نقعُ فيهِما: خلطُ الأوراقِ والنظرُ إلى ورقةٍ واحدةٍ فقط.

-لم أفهمْ يا أمّي، عذراً هل يمكنُكِ الإيضاحُ أكثر؟

-كما قلنا، تخيّلي كلَّ عاملٍ في ورقةٍ منفصلةٍ... وأنتِ تريدينَ أنْ تتّخذي قراراً، فأوّلُ الخطواتِ أنْ تجمعي معلوماتٍ حولَ القرارِ والعواملِ المؤثّرةِ فيهِ، ثمّ ضعي كلَّ عاملٍ في ورقةٍ منفصلةٍ، ولا تنتقلي بشكلٍ عشوائيٍّ في تفكيرِكِ مِنْ عاملٍ لآخرَ كي لا يحصل ما قلتهُ سابقاً مِنْ تشويشٍ أو إحساسٍ بتعقّدِ الموقفِ وعدمِ القدرةِ على اتّخاذِ القرارِ.

-ولكنّ هذهِ العواملَ تكونُ بالفعلِ مؤثّرةً، وتسيطرُ على الفكرِ و بلا قصدٍ ينتقلُ الإنسانُ بتفكيرِهِ إليها.

-وهذهِ هي المشكلةُ التي يعاني منها البعضُ عندَ اتّخاذِ قرارٍ تتكاثرُ فيهِ العواملُ المؤثّرةُ ويعتادُ صاحبُه أنْ يُغلّبَ العاملَ الانفعاليَّ أكثرَ مِنْ غيرِهِ.

-آه ... فهمْتُ ما تقصدين.. اممم .. صحيح ، ولكنْ يا أمّي بالفعلِ فالعاملُ النفسيُّ أو الانفعاليُّ يؤثّرُ بشدّةٍ.

-على الإنسانِ أنْ يدرِّبَ نفسَهُ، ويعلّمَها أنَّ العاملَ النفسيَّ أو الانفعاليَّ هو عاملٌ مؤثّرٌ لكنّهُ عاملٌ كغيرِهِ.. فإذا نظرْنا إليهِ فقط نكونُ كَمَنْ ينظرُ مِنْ جانبٍ أو زاويةٍ واحدةٍ، وغالباً هذهِ الزاويةُ ليستْ واضحةَ الرؤيا لأنّها تتأثّرُ بهوى النفسِ مِنْ ألمٍ أو حبٍّ أو شهوةٍ..

إنَّ دورَ الانفعالِ أو العاطفةِ هامٌّ جدّاً لدى الإنسانِ فهي المحرّكُ أو المشغّلُ لحركتِهِ، ولكنْ علينا أنْ نتذكّرَ أنها الدافع والوَقود للحركةِ، أمّا المقودُ فيجبُ أنْ يسيطرَ عليهِ العقلُ

ويقودَهُ في الاتّجاهِ الصحيحِ، فيرى الموقفَ مِنْ جميعِ الزوايا، وينظرُ إلى جميعِ السيّاراتِ الأخرى بالتساوي وإلا فقد يصطدمُ بسيّارةٍ لم يُعِرْها اهتمامَه!

-تشبيهٌ رائعٌ يا أمّي... العاطفةُ تشعلُ الحماسةَ وتعطي الوَقود لحركةِ الإنسانِ، بينما العقلَ يرى جميعَ العواملِ المؤثّرةِ، ويعطيَها وزنَها الحقيقيَّ بالتساوي وكما هي حقّاً... رائعٌ ياأمّي. ولكنْ مِنْ أينَ أستمدُّ المعاييرَ بشكلٍ عامّ؟

-سؤالٌ جيّدٌ يا علاء. المعاييرُ بشكلٍ عامّ أوّلاً تُستمدُّ مِنَ العواملِ الهامّةِ المؤثّرةِ في القرارِ، و أولوياتِ هذا الشخصِ، فيأتي الدينُ ومصلحةُ الآخرةِ في أوائلِ المعاييرِ لِمَنْ يحملُ الاتّجاهَ الدينيّ، ثمَّ الأولوياتُ أو الأكثر تحقيقاً لهدفِ الشخصِ، أو العواملُ المؤثّرةُ في الاختياراتِ والبدائلِ، ثمّ تكونُ الخطوةُ التي بعدها وهي توزينُ هذهِ المعاييرِ، أي

إعطاؤُها وزنَها بالنسبةِ لأهميّةِ البدائلِ المتاحةِ وفقَ الأهدافِ، يمكنكِ مثلاً وضعُ علاماتٍ للعواملِ أو المعاييرِ مِنْ (٠ -١٠) لكلِّ بديلٍ، ثمّ حسابُها، وذلكَ لتقديرِ أيّهما أكثرُ تحقيقاً للمعاييرِ . هل فهمتِ عليّ؟

-هل تقصدينَ مثلاً أنّهُ إذا كانَ هناك بديلانِ فأدرسُ أيّهما أكثرُ فائدةً أو تحقيقاً للمعاييرِ فأكونُ بذلكَ قد قيّمْتُ البدائلَ وفقَ المعاييرِ ؟

- نعمْ، أحسنْتِ .

-امممم ... لكنَّ الحالةَ هُنا يا أمّي لا يوجدُ فيها غيرُ بديلٍ واحدٍ هو ذاكَ الخاطبُ.

-صحيحٌ، لقد آثرتُ أنْ أشرحَ لكِ مهارةَ اتّخاذِ القرارِ بشكلٍ عامٍّ.. أمّا سؤالُ أختِ رفيقتِكِ فهي دراسةُ هذا البديلِ مِنْ مختلفِ العواملِ المؤثّرةِ دونَ أنْ تدعَ عاملاً يسيطرُ على

البقيّةِ، وذلكَ يحتاجُ منها أنْ تنظرَ إلى الإيجابيّاتِ والسلبيّاتِ، فتقيسَ جميعَ العواملِ المؤثّرةِ سلباً وإيجاباً، وتُفاضلَ بينَ السلبيّاتِ والإيجابيّاتِ، فأيّهما رجحَ تكونُ الكفّةُ الغالبةُ.

-لكن يا أمّي هناكَ عواملُ أهمُّ مِنْ غيرِها أو هي مختلفةٌ حسبَ أهمّيّتِها عندَ كلِّ شخصٍ، فكيفَ نساوي بينَهم؟

-صحيحٌ ما ذكرتِ يا علا، طبعاً هناكَ أمورٌ تختلفُ أهمّيّتُها عندَ كلِّ شخصٍ، و ترتيبُ هذهِ العواملِ وفقَ أهمّيّتِها عندَ الشخصِ ندعوها بالأولويّاتِ أي نرتّبُ الأهمَّ فالأقلَّ أهمّيّةً وهكذا.. فعندَ اتخاذِنا للقرارِ يمكنُنا أنْ نرتّبَ العواملَ (المعايير) وفقَ هذهِ الأولويّاتِ، وهناكَ أولويّاتٌ مشتركةٌ، فمثلاً في هذهِ الحالةِ يرتّبُ لنا رسولُ اللهِ ﷺ ويضعُ أولويّةَ الدينِ في أعلى سلّمِ العواملِ التي يجبُ أنْ نأخذَها بعينِ

الاعتبارِ عندَ قرارِ الزواجِ، وهناكَ طبعاً معيارُ (الكفاءةِ) أي أنْ يكونَ كفواً لها، وهذا المعيارُ ذكرهُ الفقهاءُ في شروطِ القبولِ.

-لقد وضَحَتْ لي الفكرةُ. لابدَّ أنْ أسارعَ الآنَ لأتحدّثَ مع رفيقتي وأعلّمَها ما علّمتِني إيّاهُ، لعلّها تساعدُ أختَها في اتّخاذِ القرارِ.... شكراً لكِ يا أمّي.

-الحمدُ للهِ.. هيّا يا بنتي، و لكن لاتنسَي أنْ تذكّريْها بالقيامِ بصلاةِ الاستخارةِ وتفويضِ أمرِها للهِ.

-شكراً يا أمّي... صلاةُ الاستخارةِ هامّةٌ جدّاً.

- الإنسانُ يا بنتي يجتهدُ - كما أمرهُ ربُّه - بإعمالِ عقلهِ واستشارةِ الآخرين، ثمَّ يفوّضُ أمرَهُ إلى اللهِ، ويطلبُ منهُ العونَ والمددَ فهو عالمُ الغيبِ والشهادةِ، الحكيمُ الخبيرُ.

- ١٦ -



(السلوكُ نتيجةُ المشاعرِ، والمشاعرُ وليدةُ الأفكار، غيّرْ أفكارَكَ يتغيّرُ سلوكُكَ ومشاعرُك)

أفقْتُ على كلامِ أخي:

-ما بكِ يا أختي؟ لم أزلْ أتحدّثُ معكِ وأنتِ شاردةً عنّي! لقد أصبحْتِ كثيرةَ الشرودِ، وقليلاً ما تلعبينَ معي؟

-عفواً يا أحمد.. معكَ حقٌّ.. أعتذرُ منكَ بشدّةٍ.

-حسناً .. هل منَ الممكنِ أنْ تلعبي معي قليلاً.

-هيّا ....

أنهيْتُ اللعبَ معَ أخي ثمَّ ذهبْتُ إلى غرفةِ الجلوسِ وجلستُ قليلاً معَ أمّي.

- أنهيْتِ اللعبَ مع أخيكِ؟

-نعم يا أمّي.

- كأنّني أراكِ كثيرةَ الشرودِ هذهِ الأيام.

-لا شيءَ يا أمّي، أتذكّرُ وأفكّرُ ما دارَ مِنْ حديثٍ بينَ صديقاتي خلالَ الفسحةِ.

- عمَّ كنتنَّ تتحدثْنَ؟

-لقد دارَ نقاشٌ حادٌّ جدّاً بينَ فئتين، بل ثلاثةِ فئاتٍ، فئةٌ ترى

أنّنا نحنُ الشبابُ في هذا العمرِ يحقُّ لنا أنْ نشعرَ باستقلاليّتِنا عنْ أهلِنا، ونتخذَ القراراتِ دونَ تدخّلِهم، وهؤلاءِ ينافحونَ بشدّةٍ وبأصواتٍ.

آه. لقد كانتْ مناقشةً مُزعجةً بأصواتِها ونقاشِها العقيمِ.

-وما هي بقيّةُ الفئاتِ؟ وما حجّةُ كلٍّ منها؟

-المشكلةُ يا أمّي أنّنا لا نجيدُ الحوارَ والنقاشَ، فما إنْ بدأَ الحوارُ حتّى علتِ الأصواتُ، وبدأنَ يغمزْنِ ويلمزْنَ ويوجهْن الشتائمَ والكلماتِ اللاذعةِ لبعضهنَّ، حتّى انتهى النقاشُ بالتدافعِ والتشابكِ بالأيدي دونَ الوصولِ لأيِّ نتيجةٍ.

طبعاً الفئةُ الثانيةُ ضدُّ الفئةِ الأولى، فلابدَّ مِنَ احترامِ رأيِ الوالدينِ وعدمِ ممانعتِهم لأنّهم أعلمُ بالأصلحِ، وجميعُ ما يوجّهونهُ مِنْ أوامرَ هو لمصلحةِ أبنائِهم، فهمْ بلا منازعٍ أكثرُ الناسِ حبّاً لأولادِهم وحرصاً على مصلحتِهم.

-ومَنْ هي الفئةُ الثالثةُ؟

-الفئةُ الثالثةُ بقيَتْ تستمعُ للفئتينِ والتزمَتِ الصمتَ، ثمّ كانَ لها دورُ الحكمِ و الفصلِ بين القوّاتِ. هههههه

- أظنّكِ منهنّ؟

- صحيحٌ .. حزرْتِ يا أمّي.

- وما رأيُكِ أنتِ؟ تكلّمي بشفافيّةٍ وصدقٍ كما عهدتُكِ.

- الحقيقةُ. إنّي أجدُ في نفسي هذا الشعورَ بأنّي قد كبرْتُ وعلى الآخرينَ أنْ يشعرُوا بي ككائنٍ لهُ رأيُهُ الخاصُّ. وقد يكونُ رأيي خاطئاً، لكنّي لا أستسيغُ أنْ يعاملَني الكبارُ مِنْ خلالِ الأوامرِ فقط ودونَ مناقشةٍ أو حوارٍ، وأحبُّ أنْ تكونَ المناقشةُ فيها احترامٌ لرأيي مهما كان، إلى أنْ أرى الحقَّ؛ و في نفسِ الوقتِ إذا كانَ الأمرُ يتعلّقُ بقرارٍ مصيريٍّ فأشعرُ تماماً أنّي

بحاجةٍ لوالديّ ولنْ أخرجَ عنْ رأيِهما، لكنّي أحبُّ أنْ يتمَّ نقاشي مثلُ أيِّ شخصٍ كبيرِ السنِّ. وبالفعلِ هذا ماتفعلانهِ أنتما - حفظَكما اللهُ- معي.

لذلكَ لم أستطيعْ أنْ أكونَ إحدى الفئتين، فأنا أظنُّ أنَّ على الأبناءِ أنْ يستمعوا لنصحِ والدِيهم وعليهم الطاعةُ، وفي الوقتِ نفسهِ أتمنّى لجميعِ رفيقاتي أنْ يروا كيفَ تعاملونَنا باحترامٍ وشفافيةٍ حتّى نرى الحقَّ ونبصرَ الموقفَ كما ترونَهُ، لأنّهُ بسببِ خبرتِكما في الحياةِ والمعرفةِ تكونُ نظرتُكما أوسعَ وأشملَ.

-أحسنتِ يا بنتي... هذا صحيحٌ. لقد علّمَنا رسولُ اللهِ ﷺ كيفَ نتعاملُ معَ أولادِنا في هذا العمرِ، وهو أنْ نصاحبَهم.. وعلّمَ أولادَنا أنْ يحترمُوا الكبارَ، فقالَ: "ليسَ منّا مَنْ لمْ يرحمْ صغيرَنا ويحترمْ كبيرَنا". وهذا يرسمُ لنا طبيعةَ التعاملِ بينَنا وبينَكم. فعلينا أنْ نخاطبَكُمْ كأصدقاءَ لتنموَ ملَكةُ التفكيرِ وتستفيدوا مِنْ

خبرتِنا في الحياةِ، عندئذٍ تصبحُ ممّراتُ الحوارِ بيننا مفتوحةً على أوسعِها، وحتّى لا تختلَّ موازينُ الحياةِ لابدَّ مِنْ أنْ يكونَ الاحترامُ والطاعةُ لأولي الأمرِ، حتّى يحمُوا أولادَهم مِنْ أنفسِهم خلالَ فترةِ تكوينِهم لآرائِهم وقيَمهم وفكرِهم.

- يا ليتكِ تتعرّفينَ على أهلِ صديقاتي مِنَ الفئةِ الأولى، فأظنُّ أنّهم لو اقتنعوا بفكرتِك لن تكونَ رفيقاتي بهذا العنادِ.

-يا بنتي مِنْ طبيعةِ مرحلتِكنّ أنَّ نضجَ المهاراتِ الفكريّةِ يبدأُ فيها، فحتّى تنضجَ بشكلٍ سليمٍ لابدَّ للكبارِ أنْ يلعبوا هذا الدورَ في الحوارِ والنقاشِ ليعلّموهم طرقَ التفكيرِ السليمةِ، ويبنونَ الملَكَةَ الفكريّةَ لديهم، وهذا لا يتمُّ إلا عنْ طريقِ الحوارِ والإقناعِ وتعليمهم مهاراتِ التفكيرِ والمنطقِ، وبناءِ المعاييرِ الصحيحةِ التي يستخدمونَ فيها مهاراتِ التفكيرِ واتّخاذِ القرارِ، ويحكمونَ وفقَها في أيّ موقفٍ يجابهُهم.

-صحيحٌ يا أمّي. أنا محظوظةٌ بكم، وحزينةٌ مِنْ أجلِ بقيّةِ زميلاتي. ولا أدري ماذا كنتُ سأفعلُ لو كنتُم مثلَ أهلِ الفئة الأولى؟ يا تُرى كيفَ كنتُ سأتصرّفُ؟ هل سأكونُ مثلَهم؟

بالفعلِ يا أمّي .. لنفرضِ جدلاً أنّي استطعْتُ أنْ أقنعَ هؤلاءِ بفكرتِك، كيفَ أستطيعُ الوصولَ لوالدِيْهم، أو كيفَ سيتمكّنَّ مِنْ إيصالِ هذهِ الفكرةِ لهم؟

-سؤالٌ رائعٌ يا علا... إنِ اقتنعْنَ بذلكَ عليهنَّ أنْ يناقشْنَ أهلَهنَّ بأدبٍ، ويلتزمنَ الصوابَ وإنْ كان ضدَّ هوى أنفسِهنّ، عندئذٍ يرى ذووهنَّ أنّهنَّ لا يعاندْنَ لمجرّدِ العنادِ وحبِّ الاستقلاليّةِ، بل بالفعلِ يرغبْنَ بالتعلّمِ، وعليهنَّ أنْ يتناقشْنَ بأدبٍ حولَ كيفيّةِ الحوارِ ويبدينَ محبّتَهنَّ واستعدادَهنَّ لتنفيذِ أوامرِهم ولو كانَ رأيُهنَّ مخالفاً لذلك، وأنّهنَّ يريدْنَ مِنْ حوارِهنَّ معَهم أنْ يتعلّموا كيفيّةَ التفكيرِ السليمِ وإدراكِ القيمِ ومعاييرِ الحياةِ. إنَّ هذا سيساعدُ والديهم على فهمِ هذهِ الحاجةِ والطريقةِ التي توصلُهنَّ

إلى ما يريدْنَ دونَ مزيدٍ منَ المعاندةِ والإضرابِ الأسريّ.

-سأحاولُ يا أمّي إقناعَهنَّ، لأنَّ هذهِ القضيّةَ بالفعلِ محورُ نزاعٍ عندَ كثيرٍ منَ الطلبةِ وذويهم.

-الحرّيّةُ يا بنتي لها حدودٌ، فحرّيّةُ الأبناءِ يجبُ ألا تتجاوزَ أوامرَ الوالدَين، لأنّهم أحرصُ الناسِ على أولادِهم ويتمنّون لهم السعادةَ الدائمةَ، و هذا بالإضافةِ إلى امتلاكِ الأهلِ منَ الخبرةِ والعلمِ ما يجعلُ أولادَهم بحاجةٍ إلى معرفتِها ليختصروا على أنفسِهم سنواتٍ من الخبرةِ؛ كما أنَّ الحرّيّةَ تنتهي عندَ حدودِ الآخرين، فلا ضَررَ ولا ضِرار. هذا ما علّمَنا إيّاهُ الحبيبُ المصطفى.

-أنا أفهمُ يا أمّي هذا الكلامَ، ولكنْ بالفعلِ هناكَ رفيقاتٌ لي لا يفهمْن ذلكَ. ربّما - أعتذرُ ولكنْ هذهِ حقيقةٌ-لأنَّ والدِيهم لا يستخدمونَ ذلكَ الأسلوبَ الذي علّمَنا إيّاهُ رسولُ اللهِ،

وأحمدُ اللهَ أنّي أتمتّعُ بهِ.

وهؤلاءِ نسبةٌ ليسَتْ بالقليلة . وهو واقعٌ موجودٌ، فكيفَ أساعدُ رفيقاتي؟ وهنّ أصلاً غيرُ ملتزماتٍ بشرائعِ الإسلامِ، ولا يكترثْنَ لمغبّةِ غضبِ الوالدَين وعقوقِهما، معَ أنَّ هذا الأمرَ جدٌّ خطير، فالعاقُّ مهما فعلَ لنْ يدخلَ النارَ كما ذكرَ ذلكَ رسولُ اللهِ ﷺ ؟

-يا بنتي إذا استطعْتِ أنْ توصلي هذهِ الفكرةَ وتعلّمْيها لهنَّ فإنّكِ بذلك تفيديهنّ مدى العمر؛ فكلُّ سلوكٍ يسلكُهُ الإنسانُ مِنْ أجلِ غايةٍ أو هدفٍ يسعى لهُ، ولكلِّ سلوكٍ نتائجُه، والناجحُ والموفّقُ مَنْ يستطيعُ أنْ يجعلَ سلوكَه محقّقاً لأهدافِهِ، فإنْ كانَتْ نتائجُ سلوكِهِ لا تحقّقُ هدفَهُ، فنحكمُ أنّ هذا السلوكَ خاطئٌ، لأنّهُ بكلِّ بساطةٍ لم يوصلْهُ إلى هدفهِ؛ فما فائدةُ أنْ أتصرّفَ تصرُّفاً لا يوصلُني إلى ما أريدُ! هل هذا صحيحٌ؟

- صحيحٌ جدّاً جدّاً ... تابعي يا أمّي.

- فما فائدةُ أنْ أعاندَ أمّي وأبي في أمرٍ ما لأثبتَ أنّي مستقلّةُ الفكرِ أو الرأي! ثمّ لن أستطيعَ أنْ أحصلَ على ما أريدُ! فالأبناءُ في هذا العمرِ يحتاجونَ للرعايةِ الصحّيّةِ والماليّةِ و.... فما الجدوى منْ أنْ أجعلَ المنازعةَ والضيقَ في بيتي، ولن أحصلَ على ما أريدُ؟ بينما إذا كانَ موقفي حقّاً فيمكنني إقناعُهم بالمنطقِ عندما أعرضُ رأيي بشكلٍ محايدٍ، أي عليَّ أنْ أفكّرَ في إيجابيّاتِ الأمرِ وسلبيّاتهِ ونتائجِه، وأدرسَها وأعرضَها على أهلي.

إنّ الأهلَ يا علا إذا رأَوا أولادَهم يفكّرون بشكلٍ منطقيٍّ سليمٍ لن يتردّدوا في تلبيةِ ما يتمنّوَنَهُ إذا لم تكنْ رغباتُهم مُضرّةً بهم.

- أنا ممتنّةٌ لكِ جدّاً، ولا أعرفُ كيفَ أوفي اللّهَ حقّهُ من

الشكرِ وأوفيكم حقّكم. شرْحُكِ رائعٌ يا أمّي. أنتِ تعلّميني كيفَ أفكّرُ بشكلٍ صحيحٍ، وهذا للأسفِ لا يحصلُ عليه كثيرٌ ممّنْ في مثلِ سنّي. كم أحبُّكِ يا أمّي.

- هذا مِنْ فضلِ اللهِ علينا يا حبيبتي، ولكنَّ هذهِ النعمةَ تضعُكِ في دائرةِ المسؤوليّةِ. فكما علّمْتُكِ عليكِ أنْ تعلّمي زميلاتِكِ و تفيديهنّ، لعلَّ اللهَ ينفعُ بكِ فتكسبينَ الأجرَ، و تؤدّينَ حقَّ اللهِ عليكِ، فهذهِ زكاةُ العلمِ.

- أوَ للعلمِ زكاة؟

- نعم يا بنتي.. شكرُ اللهِ لا يعني الاعترافَ بهذهِ النعمةِ باللسانِ فقط، بل يعني انجذابَ القلبِ له لعظيمِ نعمهِ علينا، ثمّ تسخيرَ هذهِ النعمةِ في خدمةِ العبادِ والمجتمعِ؛ فكما أنَّ نعمةَ المالِ لها زكاةٌ تُخرَجُ لمَنْ لا يملكُ المالَ، وكذلكَ العلمُ عليكِ أنْ تعلّميهِ ولا تبخلي بهِ لتؤدّي زكاتَهُ لمَنْ لا يعلم.

- ما أروعَ هذهِ المعاني يا أمّي. لكنَّ النفسَ أحياناً تجنحُ بالإنسانِ وتسربلُه بأنانيّتِهِ، وتجعلُهُ يظنَّ أنّهُ إذا أنفقَ مِنْ علمِهِ أو مالِهِ فسيخسرُ، ويذهبُ جهدُهُ في التعلّمِ أو اكتسابِ المالِ لِمَنْ هو أقلُّ منهُ قدراً أو مَلَكَةً.

- هذا الشعورُ في العلوِّ عنِ الآخرين سببهُ اعتقادٌ خاطئ، يظنُّ أنَّه جمعَ هذهِ النعمَ مِنْ مالٍ أو علمٍ بجهدِهِ وكسبِ يمينِهِ.. و ينسى أنّهُ مجرّدُ عبدٍ لله، هو الذي أعطاهُ العقلَ ليفكّرَ ويتعلّمَ ويعملَ فينتجَ ويكتسبَ المالَ.. فَمَنْ صاحبُ المالِ ؟ هل الذي أعطاه أدواتِ الإنتاجِ والموادَ الخام، ثمَّ بعثَ له مَنْ يعلّمُهُ؟ أم هو الذي لا يملكُ منها شيئاً؟

- آهٍ يا أمّي .. حقيقةٌ واضحةٌ لِمَنْ يرى بنورِ اللهِ.. جعلَني ورفيقاتي منهم. ولا حرمَني منك... سأبذلُ ما تعلّمتُه لكلِّ مَنْ يريدُ ولن أردَّ سائلاً.. أسألُ اللهَ أنْ يعطيَني القوّةَ

والصبرَ والإرادةَ.

قبلّتُ رأسَ أمّي ويديْها، ثمّ أسرعْتُ إلى غرفتي، فتحْتُ دفتري الذي أكتبُ فيهِ خواطري و بدأْتُ بتسجيلِ الأفكارِ الهامّةِ التي علمتْني إيّاها أمّي حتّى لا أنساها، ثمَّ وضعْتُ ضمنَ مستطيلٍ كبيرٍ العبارةَ الآتية:

لكلِّ سلوكٍ هدفٌ مِنْ وراءِه، ولكلِّ سلوكٍ نتائجُهُ، والموفّقُ والسعيدُ مَنْ وافقَتْ نتائجُهُ أهدافَه.

- ١٧ -



(التفكيرُ السليمُ مجموعةُ مهاراتٍ، يجبُ شحذُها والتدرّبُ عليها حتّى تصبحَ جزءاً مِنْ عاداتِ العقل)

-لا أتمنّى أن أعيشَ طويلاً في هذهِ الحياة.

وقعَ كلامي على مسمعِ أمّي كالصاعقة.

-ماذا؟! لم أسمعْ!

-أمّي أشعرُ أنّي بحاجةٍ أكبرَ لأفهمَ الحياةَ، لأعرفَ كيفَ

أتعاملُ في كلِّ موقفٍ.. مع الآخرين.

أشياءُ كثيرةٌ أحسُّ أنّي عاجزةٌ عَنْ فهمِها أو معرفةِ كيف يجبُ عليَّ أنْ أفكّرَ!
شعورٌ مزعجٌ، يضيقُ بهِ صدري.
أمّي .... هل يمكنكِ أنْ تعلميني كيفَ عليّ أن أفكرَ وأناقشَ أيَّ موقفٍ أو موضوعٍ؟

أعلمُ أنّنا تحدثْنا كثيراً، لكنّي مازلْتُ أشعرُ بحاجةٍ كبيرةٍ لأرتّبَ أفكاري، أشعرُ أنّي أحتاجُ ذلكَ كي أتمكّنَ منَ التفكيرِ كالكبارِ وأتجنّبَ الخطأَ.. إنّ ذلكَ سيساعدُني حتماً في شعوريَ بالثقةِ، وسيبعدُني عنِ المتاعبِ أو الزلاتِ التي تضطرّني للاعتذارِ.
ارتسمَتْ على وجهِ أمّي ابتسامةٌ ساحرةٌ عذبةٌ تحملُ معاني الرحمةِ والحبِّ، أحسسْتُ فيها بشيءٍ مِنَ السكينةِ.

-طبعاً يا بنتي، ولكنْ هوّني عليكِ، كلُّ ما تشعرينَ بهِ طبيعيٌّ.

-طبيعيٌّ يا أمّي إحساسيَ بالعجز!

-إنّكِ تهوّلينَ الأمرَ، وتجعلينَهُ أعظمَ ممّا ينبغي.
نعم طبيعيّ، لأنّ هذا وبكلِّ بساطةٍ معناهُ أنّكِ بدأْتِ تنتقلينَ إلى مرحلةِ النضجِ والوعي الفكريِّ، فعقلُكِ يطالبُكِ بالتعلّمِ، هذا كلُّ مافي الأمرِ!

-عقلي يطالبُني بالتعلّمِ! ما أروعَك يا أمّي وما أعظمَ قدرتَكِ على تبسيطِ الأمورِ وجعلِها سهلةً في متناولِ اليد. اشرحي لي ياحبيبتي. لا حرمَني اللهُ منكِ.

-أنتِ تكبرينَ و تنتقلينَ في هذهِ المرحلةِ إلى المَيلِ نحو أخذِ الأمورِ كما يفعلُ الكبارُ، فتشعرينَ أنَّ هناكَ قوانينَ لا تفهمينَها، أو معرفةً تنقصُك، كما أنّ الآخرين بدؤوا ينظرون إليكِ نظرتَهم للكبارِ، فأصبحَ الناسُ ينبّهونكِ إنْ أخطأتِ، و يتوقّعون منكِ فعلَ الصوابِ، بينما في المرحلةِ السابقةِ مِنْ عمرِك، كانوا

يتوقّعونَ منكِ الخطأَ فيعطونَكِ أعذاراً أكثرَ. وهذا طبعاً يدفعُكَ للشعورِ أنّكَ بحاجةٍ إلى معرفةٍ أكثرَ وإعمالِ العقلِ بشكلٍ أكبرَ قبلَ التصرّفِ. فتشعرينَ بالحاجةِ إلى التعلّمِ زيادةً على ماقد تعلّمتِهِ سابقاً، لكنَّ ذلكَ لايعني أنَّ عقلَكِ قد أتقنَ طريقةَ التفكيرِ السليمةِ، إنّهُ يحتاجُ إلى تدريبٍ، لذلكَ عندما ترينَ نفسَكِ قد أخفقْتِ بشيءٍ تظنّينَ أنّكِ تعرفينَهُ تشعرينَ بالعجزِ. أليسَ كذلك؟

-هذا صحيحٌ يا أمّي... أُصابُ بالإحباطِ عندما أرى نفسي لا أتصرّفُ بشكلٍ صحيحٍ رغمَ تذكّري لكلامِك!
كما رفيقاتي صرْنَ أكثرَ تحسّساً لكلامي أو تصرّفاتي معهنّ.. لقد بتْنا نتشاحنُ أكثرَ مِنَ السابقِ. لا أدري!! بالفعلِ أشعرُ أنّي بحاجةٍ لأتعلّم. كما قلتِ يا أمّي.

-قبلَ أنْ أتحدّث عمّا طلبتِ، أحبُّ أنْ ألفتَ نظرَكِ يا حبيبتي

أنّه حتّى لو أخطأتِ فلا عيبَ في ذلكَ، مادمتِ لاتصرّين على الخطأِ عناداً وتكبّراً، فالخطأُ واردٌ للجميعِ، بل إنّهُ سمةٌ في ابنِ آدمَ كما أخبرَنا رسولُ اللهِ ﷺ: (كلُّ ابنِ آدمَ خطّاءٌ وخيرُ الخطائينَ التوابون) لذلكَ لا يكنْ في صدرِكِ حرجٌ إنْ أخطأتِ، عليكِ بالتوبةِ وإصطلاحه فوراً..

ولكنَّ كلامَكِ صحيحٌ في أنَّ على الإنسانِ أنْ يبذلَ جهدَهُ في تجنّبِ الخطأِ ما استطاعَ ، فذلكَ هدفٌ يطلبُهُ كلُّ ذي همّةٍ وإرادةٍ.

-حسناً يا أمّي. حدّثيني مِنْ فضلِكِ عنْ طُرقِ التفكيرِ الصحيح عندَ دراسةِ أيّ موقفٍ مِنْ أجلِ الحكمِ عليه.

-يبدو أنَّ هذا الأمرَ يشغلُكِ بشدّةٍ... حسناً.

عندما تريدينَ الحكمَ على أمرٍ ما أو موقفٍ، عليكِ أنْ تنظري إليهِ مِنْ جميعِ النواحي: السلبيّةِ والإيجابيّةِ وبالنسبةِ لكِ ولِمَنْ

حولَكِ أو مَنْ لهم علاقةٌ بالأمرِ والموقفِ أو حتّى أحياناً المجتمع ككلّ، ولكي تتمكّني مِنْ ذلكَ بموضوعيّةٍ ودونَ تحيّزٍ ضعي نفسَكِ مكانَهم، تخيّلي لو كنتِ مكانَ ذلكَ الشخصِ، كيفَ سيكونُ وقعُهُ عليكِ؟ كيفَ ستكونُ ردّةُ فعلِك؟ عندئذٍ يابنتي ستكتشفينَ الكثيرَ مِنَ الأخطاءِ التي نقعُ فيها نتيجةَ التفكيرِ الأحاديّ، أي نتيجةَ التفكيرِ مِنْ رؤيتِنا نحنُ فقط ، وتحيّزنا لأنفسِنا في فهمِ الموقفِ أو الحدثِ، فالنفسُ الإنسانيّةُ تضخّمُ أحياناً الموقفَ أو الحدَثَ فتعطيهِ أكثرَ مِنْ حجمِهِ، وكلّما زادَ الألمُ النفسيُّ كبرَ حجمُ الموقفِ الذي ترينَهُ أضعافاً مضاعفةً عَنْ حجمِهِ الأصليّ، والغريبُ أنَّ هذهِ النفسَ بعدَ وقتٍ عندما تهدأُ أو يذهبُ أثرُ هذا الموقفِ وألمُها ترى الموقفَ مختلفاً تماماً، ويستغربُ المرءُ مِنْ نفسِهِ كيفَ كانَ ينظرُ إليهِ بهذهِ الضخامةِ حتّى سيطرَ على جميعِ جوانبِ حياتِهِ! ويزدادُ هذا الأمرُ سوءاً إذا كانَ المرءُ معتادَ الانتصارِ لنفسِهِ، أو مغروراً ومعجباً بها،

أو يراها أكبرَ مِنَ الخطأِ أو أسمى مِنْ أنْ يوجّهَ أحدٌ إليها اللومَ! وهذا طبعاً كلّهُ مرضٌ في القلبِ يصيبهُ نتيجةَ تضخّمِ "الأنا" عندَهُ ووجودُ مرضِ التكبّرِ والغرورِ والإعجابِ بنفسهِ، وهو نتيجةُ البعدِ عنِ الرؤيةِ القرآنيّةِ للنفسِ كما علّمَنا خالقُنا.

-يا ويلي! كلُّ هذا !!!! الأمرُ شاقٌّ. ولكنّهُ صحيح، فأنا أتذكّرُ أنّي مررْتُ بتجارِبَ تشبهُ ذلكَ، كنتُ أتألّمُ كثيراً، وتسيطرُ على نفسي معانيَ الإحباطِ والانزعاجِ، حتّى أشعرَ أنّي أكرهُ الدنيا ولا أحبُّ أنْ أعيشَ فيها، وأحياناً يصلُ الأمرُ بي إلى أنْ أعمّمَ فأقولَ: كلُّ الناسِ سيّئةُ التعامل! وأصدُقكِ القولَ كنتُ أجدُ أنَّ هذا صحيحٌ وأنَّ الحقَّ كلَّهُ معي!

-سأقولُ لكِ مرّةً أخرى. هذا شيءٌ طبيعيّ!

-طبيعيٌّ يا أمّي أنْ أجعلَ الحدثَ أكبرَ مِنْ حجمِه! فأتألّمَ كثيراً وهو لا يستحقُّ أنْ أقفَ عندَهُ كلَّ هذا الوقت!

-طبيعيٌّ يا بنتي إذا لم تتعلّمي كيفَ تروّضينَ نفسَكِ وتعلميها كيفَ تفكّرُ بشكلٍ صحيحٍ. فلا يدفعُها الألمُ إلى الغلوّ.

-كنتُ أظنّ يا أمّي أنّ ما قرأتُه في الكتبِ الدينيّةِ مِنْ أهمّيّةِ مجاهدةِ النفسِ هو للتقرّبِ إلى اللهِ وكسبِ الحسناتِ والوصولِ إلى الجنّةِ فقط، لكنَّ حديثَكِ الآنَ أزالَ الغشاوةَ عنْ كثيرٍ مِنَ الأمورِ التي أذكرُها الآنَ تماماً كيفَ تعاملْتُ فيها مِنْ منطقِ النفسِ والشعورِ بها وحدَها فقط، دونَ أيّ اعتبارٍ لأيّ شخصٍ آخرَ غيرِ نفسي! وعرفْتُ الآنَ أنَّ مجاهدةَ النفسِ ليسَتْ للحصولِ على الجنّةِ أو التقربِ مِنَ اللهِ، بل حتّى أكونَ سعيدةً في الدنيا، وأعرفَ كيفَ أنجحُ في علاقتي مع ذاتي والآخرين دونَ أن أخسرَ آخرتي؛ إنّي أتذكّرُ الآنَ قانوناً مِنْ قوانينِ القرآنِ كنْتُ قد قرأتُها منذُ فترةٍ في قولِهِ تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ

فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤﴾ المائدة.

أي إنَّ العداوةَ والبغضاءَ لا تسودُ في أسرةٍ أو شركةٍ أو مجتمعٍ إلا نتيجةَ نسيانِهم لأمرٍ مِنْ أوامرِ اللهِ؛ فالقانونُ يقول: مَنْ نسيَ أمرَ اللهِ تظهرُ العداوةُ فيمَنْ حولَه.

حقّاً على الإنسانِ أنْ يجاهدَ نفسهُ ويعرِفَ مداخلَها حتّى لا يتصرّفَ بأشياءَ يندمُ عليها في حياتِه، أو تؤثّرُ سلباً في قراراتٍ مصيريّةٍ قد تغيّرُ مجرى حياتَهُ!

كلّما تحدثْتُ معكِ يا أمّي أشعرُ بالأمانِ، وأستشعرُ عظمَ نعمةِ اللهِ عليَّ أنْ أكرمَني بكِ لتعلّميني وترشديني.

ميزتُكِ يا أمّي أنّكِ تجيدينَ المِراسَ مع النفسِ، فأنتِ ما شاءَ اللهُ على درايةٍ بعلمِ النفسِ ومعرفةٍ بقوانينِ اللهِ مِنَ القرآنِ

الكريمِ وسنّةِ رسولهِ ﷺ، وكثيرٌ من أمّهاتِ صديقاتي لا يتمّتْعَن بهذهِ الصفاتِ.

-و هذا يحمّلك واجبَ تعلميهنَّ ممّا أنقلهُ لكِ، أقصدُ ممّا علّمنا اللهُ.

-سأفعلُ بإذنِ اللهِ يا أمّي. مِنْ فضلكِ أكملي كلامَكِ، فأنا أشعرُ الآنَ أنَّ نوراً دخلَ قلبي وعقلي جعلَني أبصرُ أموراً لم أعهدْها مِنْ نفسي مِنْ قبلُ.

-فتحَ اللهُ عليكِ يا بنتي وزادَك فهماً... سأكملُ.
قلنا إنّ عليكِ أنْ تنظري للموقفِ مِنْ جميعِ النواحي: السلبيّةِ والإيجابيّةِ و مِنْ حيثُ أثرُهِ و نتائجِهِ عليكِ وعلى المجتمع ومِنْ خلالِ المجالاتِ جميعِها، النفسيّةِ والاجتماعيّةِ والماديّةِ والفكريّةِ و........ وعلى المدى القريبِ والبعيدِ.

-انتظري قليلاً، هذا كثير.

-إنّها ثلاثُ مهاراتٍ يا بنتي ... تعالجينَ الموقفَ مِنْ خلالِ رؤيةِ نتائجِهِ القريبةِ والبعيدةِ على مدى سنواتٍ، على أنْ تنظري إلى السلبيّاتِ والإيجابيّاتِ مِنْ مختلفِ النواحي، أي مهارةُ رؤيةِ السلبيّاتِ والإيجابيّاتِ ومهارةُ رؤيةِ النتائجِ القريبةِ والبعيدةِ للموضوعِ، على أنْ تنظري للأمرِ مِنْ جميعِ العواملِ المؤثّرةِ فيهِ. وهذه المهاراتُ تسمّى في بعضِ برامجِ تنميةِ مهاراتِ التفكيرِ بـ: مهارةِ معالجةِ الأفكارِ (السلبيّات والإيجابيّات)، ومهارةُ اعتبارِ جميعِ العواملِ، ومهارةُ النتائجِ.

-رائعٌ. الآنَ انتظمَتِ الأفكارُ في عقلي. بقيَ عليَّ أنْ أدرّبَ عقلي لذلكَ.

-صحيحٌ يا بنتي، فلا تكفي معرفةُ الطريقةِ الصحيحةِ للتفكيرِ، بل يجبُ أنْ تدرّبي نفسَكِ كلَّ مرّةٍ على استخدامِ هذهِ المهاراتِ حتّى تصبحَ طريقةً معتادةً في تفكيرِكِ، يقومُ بها

عقلُكِ دونَ شعورٍ منكِ.

- رائعٌ جدّاً... أشكرُكِ يا أمّي جدّاً جدّاً جدّاً.. سأحاولُ أنْ أتذكّرَ موقفاً مرَّ معي، وسأكتبُ على الورقةِ دراستي لهُ حسبَ هذهِ المهاراتِ ثمّ أعرضُها عليكِ لتصوّبي لي.

-أحسنتِ يا بنتي .. هيّا أنا في انتظارِكِ.

- ١٨ -



(وشاورْهم في الأمر، فإذا عزمْتَ فتوكّلْ على الله)

بدَتْ أمّي حزينةً، مُطرقةَ الرأسِ، لكنّي لم أشأْ أنْ أسألَها فورَ وصولي للبيتِ.

انتهى الغداءُ وكانَ الوجومُ بادياً على والدي أيضاً، فعرفْتُ أنَّ الأمرَ يتعلّقُ بالأسرةِ أو ما بينَهما.

أسرعْتُ إلى غرفتي، لم أستطعْ أن أركّزَ في دراستي كالعادةِ، فحُزنُ أمّي أثـّـرَ فيّ كثيراً، لم أعتدْ عليها إلا وهي باسمةُ الثغرِ مشرقةُ الوجه.

حاولْتُ التعلّلَ بالذهابِ إلى المطبخ وصنع الشاي لأستكشفَ الأخبارَ، فوجدْتُ أخي في المطبخِ أيضاً، يبدو أنّهُ يقومُ بالعملِ ذاتِه، التقتْ أنظارُنا وكأنَّ كلانا يسألُ الآخرَ، فبادرْتُه ممازحةً:

-هل جعْتَ يا محمّد؟ أم تراكَ تبحثُ عنِ الحلوى؟

-أبحثُ عنْ أمّي.

كانَ لوقعِ جوابِهِ أثراً بليغاً، فتغيّرَتْ ملامحي وبدا عليَّ الحزنُ، وشردْتُ مع أفكاري، حتّى أنّي لم أنتبه إلى خروجِ أخي مِنَ المطبخِ بعدَ أنْ سمعْتُ صفّارةَ إبريقِ الماءِ مدوّيةً تعلنُ جاهزيّةَ الماءِ، كنْتُ أتحرّكُ ببطءٍ شديدٍ خلالَ إعدادي لكوبِ الشايِ، لا أدري كيفَ أستطيعُ أنْ أسألَ أمّي عمّا يحزنُها

وكيفَ أبدأُ؟ كنْتُ أفكّرُ بحيلةٍ لأدخلَ إلى غرفتِها، فإذا بي أجدُ أمّي أمامي. أفقْتُ مِنْ شرودي مدهوشةً... حتّى استغربَتْ أمّي علاماتِ وجهي، بادرتْني بالسؤال:

-هل تصنعينَ الشايَ يا علا؟

-نعم يا أمّي ؟ هل ترغبينَ بكوبٍ؟

-طبعاً، ظننْتُك ستحضرينَهُ لي !

أحسسْتُ بغبائي، فقد كانَ هناكَ عذرٌ في متناولِ يدي لكي أدخلَ عليها في غرفتِها.

-سأحضرُ لكِ كوبَكِ يا أمّي في غرفتِكِ. هل ذهبَ والدي؟

-نعم ذهبَ أبوكِ بعدَ تناولِ الغداءِ مباشرةً، أحضري كوباً مِنَ الشاي مع بعضِ الحلوى.

أسرعْتُ بتحضيرِ الشاي، وتبعتُها إلى غرفتِها ولم أتحمّلْ الانتظارَ أكثرَ حيثُ قمْتُ بطرحِ سؤالي وأنا أقدّمُه لها.

-أمّي أريدُ أنْ أسألَكِ. لماذا أنتِ حزينةٌ؟

عدّلَتْ أمّي مِنْ جلستِها، وتغيّرَتْ ملامحُ وجهِها وقالَتْ:

-هل بدوتُ حزينةً؟

-نعم يا أمّي. وكذلكَ أبي. كانَ طيلةَ الغداءِ يظهرُ على وجههِ الهدوءُ الحذِرُ أو الحزين.

-لا تخافي ليس هدوءاً يسبقُ العاصفة يا بنتي.

ورسمَتْ على ثغرِها الجميلِ ابتسامةً رائعةً، فيها مِنَ السكينةِ والوقارِ ما أحبّهُ.

-أمّي هل تخفينَ عنّي؟ وأنا ابنتُك المفضّلة.

تبادلْنا الابتساماتِ، وقالَت:

-لقد جاءَتْ لأبيكِ فرصةُ عملٍ في بلدٍ أجنبيٍّ و براتبٍ مغرٍ جدّاً، وهو يفكّرُ أنْ يقبلَ العرضَ، بل قرّرَ ذلكَ فعليّاً.

فتحْتُ فمي، وأنا لا أصدّقُ ما أسمعُ.

-هل تمزحينَ يا أمّي؟ و لمَ لمْ تخبرونا؟

-لأنّي حتّى الآنَ متردّدةٌ منقبضةٌ، لا أشعرُ بارتياحٍ لذلكَ، ربّما لأنّي أحبُّ وطني كثيراً ولا أرغبُ في تركِ أمّي دونَ العنايةِ بها، كما أنّه لن يستطيعَ أنْ يرتّبَ إقامتَنا في ذلكَ البلدِ إلا بعدَ سنةٍ.

طبعاً كما علّمْتُكِ لا ينبغي لمشاعرِنا أنْ تسيطرَ على قرارِنا، لكنّي أرى أنَّ السفرَ إلى بلدٍ أجنبيٍّ قد يعرّضُكم لتحدّياتٍ كثيرةٍ يقع فيها مَنْ يستقرُّ في بلدٍ غيرِ إسلاميّ.

-نعم لقد علّمتِني يا أمّي أنّ علينا أنْ ننظرَ لأيِّ أمرٍ مِنْ جميعِ الجوانبِ.

-صحيحٌ.. رغمَ اختلافي معَ أبيك في بعضِ جوانبِ الأمرِ، لكنْ لابدَّ أنْ أدعمَهُ بكلِّ ما أستطيعُهُ لإنجاحِ ما يريدُ.

-أنتِ رائعةٌ يا أمّي.

-هذا واجبي يا بنتي، فمهما اختلفْنا في الرأي يبقى القرارُ الأخيرُ لربِّ وقائدِ الأسرةِ.

-لفتةٌ كريمةٌ رائعةٌ منكِ يا أمّي.

-يا بنتي هذا هو ما يجبُ القيامُ بهِ إزاءَ قرارِ القائدِ وأتباعِهِ سواءً في المنزلِ أو العملِ.

-هل توضّحينَ لي يا أمّي؟

-يا بنتي للقائدِ أنْ يشاورَ مَنْ حولَهُ، وعليهم أنْ يُخلصُوا النصحَ لهُ ويقولوا رأيَهم، ولكنّهُ إنْ رأى صلاحَ الأمرِ في غيرِ رأيِهم، فعليهم أنْ يطيعوه، بل ويدعموهُ بعدَ ذلكَ بكلِّ ما أوتوا، هذهِ القاعدةُ الهامّةُ ليستْ في الأسرةِ فقط، بل في المجالاتِ جميعِها، فصحيحٌ أنّ سرَّ القيادةِ الناجحةِ أنْ يفسحَ القائدُ للمرؤوسين حريّةَ إبداءِ الرأي في جوٍّ مِنَ الراحةِ والشفافية، إلا أنَّ عليهم حقَّ الطاعةِ ودعمَ قرارِهِ بكلِّ ما أوتوا مِنْ جهدٍ ووقتٍ، وإلا لما نجحَ العملُ الجماعيُّ، تخيّلي لو كلُّ مرؤوسٍ له رأيهُ الخاصُّ، وكلٌّ منهم يريدُ أن يسودَ هذا الرأي، فكيفَ يتمُّ الأمرُ وينجحُ العملُ؟

إنّ جميعَ نظريّاتِ القيادةِ الحديثةِ مهما كانَ نوعُها ومفهومُها تتّفقُ على ضرورةِ دعمِ قرارِ القائدِ، بغضِّ النظرِ عنِ الطريقِ الذي تمَّ اتّخاذُ القرارِ فيه.

-فهمْتُ الآنَ يا أمّي.. لذلكَ فأنتِ ستدعمينَ قرارَ أبي رغمَ

عدمِ قناعتِكِ بهِ كثيراً.

-لابدَّ أنَّ أباكِ قد رأى أموراً لا أراها.. فما دمْنا قد تشاورْنا واستخرْنا فإنّنا نتوكّلُ على اللهِ ونسألُهُ تعالى أنْ يختارَ الخيرَ، وييسرَهُ لنا، ويُرضّينا فيه.

-حقيقةً يا أمّي لقد أخافَني الخبرُ وأقلقَني.

-لا تقلقي يا بنتي. في كلِّ الأحوالِ مازال أمرُ انتقالِنا إلى هناكَ بعيداً. نسألُ اللهَ الرضا.

-صحيحٌ يا أمّي. يبدو أنّكِ الآنَ أكثرَ ارتياحاً مِنْ قبل.

-نعم... أشعرُ بذلكَ، ربّما لأنّي وأنا أتحدّثُ معكِ ترتّبَتْ أفكاري أكثرَ، وبدَتِ الصورةُ أوضحَ أمامي، وذكّرْتُ نفسي بأنَّ على المؤمنِ أنْ يتّخذَ الأسبابَ ثمَّ يثقَ بربِّ الأسبابِ ويتوكّلَ عليه. شكراً لكِ يا بنتي.

-هل تعرفين يا أمّي، لقد دارَ حديثُ بينَ رفيقاتي في الصفِّ حولَ حقّهنَّ في حريّةِ إبداءِ الرأي، فبعضُهنّ كُنَّ يردّدْنَ أنّه يحقُّ لهنَّ اتّخاذُ قرارِهنّ بأنفسِهِنّ، وعلى والديْهم أنْ يحترموا رغباتِهِنّ ويوافقوا على قرارهنَّ دونَ تدخَلٍ؛ وكانَ النقاشُ حامي الوطيس، لم أستطعْ أنْ أقنعهنَّ بحجةِ الشرعِ والدينِ لأنّهنّ للأسفِ لا يعترفْنَ بذلك، فهنَّ غيرُ ملتزماتٍ بالدينِ، ولم أجدْ لهنَّ حجّةً منطقيّةً لإيصالِ الفكرةِ لهنّ.. الآنَ فقط أستطيعُ أنْ أحاورَهنَّ. جُزيْتِ خيراً ياأمّي. سأذهبُ إلى غرفتي لأبدأَ الدراسة.

تبسّمْتُ و قبّلْتُ يدَها ثمّ أسرعْتُ إلى غرفتي .

- ١٩-

(تزكيةُ النفسِ وبناءُ عاداتٍ عقليّةٍ سليمةٍ سرٌّ مِنْ أسرارِ الارتقاءِ والنجاح)

- لا أظنُّ يا سلوى أنَّ ما تقولينَه عنْ هندٍ صحيح، فهندُ تحبُّكِ ولم تقصدْ أنْ تسيءَ لكِ أبداً، هذا ما أعرِفُهُ عنها. صدقيني. أعيدي النظرَ في الموقفِ وأحسني الظنَّ بها.

حسناً .. مع السلامة.

أغلقْتُ سماعةَ الهاتفِ وأنا مغضَبةٌ. بادرتْني أمّي بالسؤالِ:

-مابكِ يا علا؟ لمَ أنتَ واجمة؟

-لا أدري يا أمّي؟ كأنَّ الحياةَ ليستْ سهلةً!

تبسّمَتْ أمّي ابتسامتَها اللطيفةَ، وقالَت:

-خيراً يا علا؟ ماذا حصل؟ هل هناكَ مشكلةٌ بينَ زميلاتِك؟

-نعم يا أمّي. أظنُّ أنّهُ سوءُ تفاهمٍ، لكن كلُّ منهما لا تريدُ أنْ تسمعَ إلا ما تريدُ سماعَه، لقد تكلّمْتُ معَهما معاً، وشرحْتُ لهما وجهةَ نظرِ كلٍّ منهما، لكنّهما لم تستمعا، وكأنّي أتحدّثُ في الهواءِ، ما إن أنتهي مِنْ كلامي حتّى تتكلّمَ كلُّ واحدةٍ منهما وكأنّها لم تسمعْني قطّ.. تعيد لي كلامها هي ووجهةَ نظرِها!

عجيبٌ أمرُهما!

-ليسَ عجيباً ... هذهِ للأسفِ إحدى أخطائنا.. إنّنا لم نعتدْ إلا سماعَ صوتِنا نحن، حتّى في جلساتِ الحوارِ يقبعُ كلُّ منّا يجهّزُ الكلماتِ التي سيقولُها دونَ أنْ يصغيَ للآخر! وللأسفِ يقومُ

التلفازُ ببرامجِهِ بتثبيتِ هذه الثقافةِ الخاطئةِ، مع أنَّ دينَنا الحنيفَ وعلماءَنا الأوائلَ كانوا مهما اختلفوا يصغونَ ويعترفونَ بالآخرِ أو بخطئِهم دونَما حرجٍ، يفرحونَ لرؤيةِ الحقِّ أينما كانَ ولو معَ نظيرِهم أو منافسِهم.

-لماذا يا أمّي ؟

-يا بنتي إنَّ مِنْ طبيعةِ النفسِ البشريّةِ أنْ تتحيّزَ لرأيِها ورؤيتِها وذاتِها ونظرتِها.. هذهِ تركيبةٌ موجودةٌ في النفسِ البشريّةِ مِنْ أجلِ أنْ تستمرَّ في الحياةِ ولا تيْئَسَ إنْ واجهتْها صراعاتٌ تهدّدُ وجودَها، على أنْ تظلَّ بنسبةٍ معيّنةٍ تحميها مِنَ الوقوعِ فريسةَ اليأسِ أو عدمِ الثقةِ، هذهِ هي الحكمةُ مِنْ وجودِها في النفسِ البشريّةِ، لكنّها طبعاً تكبرُ وتنمو إذا لم يتمَّ وضعُ حدودٍ لها لتحافظَ على أداءِ وظيفتِها دونَ أنْ تصلَ للجَورِ أو ظلمِ الآخرين والتعدّي على فكرِهم أو آرائِهم، هذهِ الحدودُ هي التي طالبَنا اللهُ عزَّ وجلَّ

بتزكيةِ أنفسِنا والارتقاءِ بها وطلبِ الحقّ أينما كانَ ولو عكس ما نهوى؛ ومِنْ هُنا نؤجَرُ على ذلكَ، ونحمي أنفسَنا مِنَ الزللِ والوقوعِ في مهاوي الظلمِ.

-اممم ... فهمٌ رائعٌ يا أمّي لم يخطرْ في بالي أبداً. أحياناً مثلُ هذهِ المواقفِ تُشعرُ الإنسانَ بالإحباطِ، لكنَّ شرحَكِ الآنَ يُظهِرُ أنَّ هذا شيءٌ طبيعيٌّ إذا لم يقمِ الإنسانُ بتزكيةِ نفسهِ والارتقاءِ بها.

-صحيحٌ يا بنتي... لا تُصابي بالإحباطِ إنْ رأيتِ إنساناً متديّناً وهو يفعلُ ذلكَ، أو تقومي بنفي الدينِ عنه، وانزالِ أقسى الكلامِ فيه.. قد يكونُ مخطئاً، لأنّهُ لم يفهمْ هذا الجانبَ، أو ضعفَتْ نفسُهُ في هذا الموقفِ، لكنّكِ إذا حوّلتِ النقاشَ إلى تهمٍ تقذفينَها بشكلٍ شخصيّ، لن يستطيعَ أبداً أنْ يصلَ إلى الفكرةِ التي تودّينَ طرحَها، لأنّكِ ببساطةٍ وضعْتهِ بدورِ المنافحِ والمدافعِ عنْ

نفسهِ، وهي طبيعةٌ خلقَنا اللهُ بها لنحافظَ على استمراريّةِ وجودِنا إنْ تعرّضْنا لموقفٍ يهدّدُ وجودَنا، لكنّهُ تعالى تركَ لنا مهمّةَ تزكيةِ أنفسِنا بغيةَ وضعِها في المكانِ الصحيحِ، بينَ حدَّي احترامِ الآخرِ وقبولِ النقدِ والتصويبِ وبينَ عدمِ الإحباطِ واليأسِ مهما حاولَ أحدُهم تثبيطَنا أو زعزعةَ الثقةِ بكيانِنا و وجودِنا.

وهذا الأمرُ يحتاجُ إلى فهمِ طبيعةِ النفسِ البشريّةِ وأنَّ الوصولَ للحقِّ هو مِنْ توفيقِ اللهِ وعطاءٍ منهُ سبحانهُ، فلا يغترُّ أحدُنا إنْ حالفَهُ النجاحُ والصوابُ، بل يرى أنّهُ عطاءٌ يمكنُ أنْ يُعطيَهُ اللهُ لغيرِهِ مِنَ الناسِ، فعليهِ تتبعُ الحقِّ أينما كانَ، وهذا يحتاجُ إلى تدريبٍ ومجاهدةٍ للنفسِ معَ وعيٍ وفهمٍ لهذهِ الحقيقةِ.

فالمتديّنُ إنسانٌ أعلنَ أنّهُ يريدُ أنْ يلتزمَ بشرعِ ربّهِ، لكنّهُ مرّةً يخفقُ وأخرى ينجحُ.. فحتّى نستطيعَ أنْ نوصلَ فكرتَنا أو ندلَّهُ على خطئِهِ، علينا أنْ نبتعدَ عنْ جعلِ الخطأِ يهدّدُ شخصيّتَهُ أو نجعلَها تبدو موقفاً شخصيّاً، لأنّنا بهذا سندفعُه للدفاعِ، ونضعُ على عينيهِ

غشاءً نفسيّاً يجعلُ رؤيةَ الموقفِ بشكلٍ صحيحٍ دونَ التأثّرِ بالذاتِ ضرباً مِنَ المستحيلِ إلا مَنْ رحمَ ربّي و وهبهُ الصدقَ والإخلاصَ والتجردَ للحقِّ؛ لكنَّ مَنْ يريدُ الإصلاحَ أو التربيةَ يجبُ أنْ يعلمَ أنَّ أغلبَ الناسِ لا تستطيعهُ، ولذلكَ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ منبّهاً رسولَهُ الكريم: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾آل عمران: ١٥٩.

و كانَ أغلبُ نصحِ رسولِ اللهِ ﷺ يقول : ما بالُ أقوامٍ يفعلون كذا ... و لم يكنْ عليهِ السلامُ يصرّحُ بالاسمِ ويشيرُ أمامَ الملأِ بذلكَ، لأنَّ المربّي يهمّهُ أنْ يتمَّ الإصلاحُ بأقلِّ الخسائرِ و أيسرِ الطرقِ، هذا هو جوهرُ دينِنا.. التيسيرُ على الناسِ بما لا يتنافى معَ أصولِ الدينِ ومقاصدِه، وهذا يقاربُ الفطرةَ وأيسرُ لقبولِ

النفسِ النصحَ، وهذهِ مشكلةٌ وللأسفِ ظهرَتْ كثيراً في الآونةِ الأخيرةِ، بينَ الأفرادِ والجماعاتِ مِنَ ابتعادٍ عنِ النصحِ إلى القدحِ وقذفِ التهمِ أو التكفير!

-للأسفِ يا أمّي. الآنَ فهمْتُ ما جرى بينَ رفيقاتي، وكأنّكِ معنا يا أمّي كلمةً بكلمة.

تبسّمَتْ أمّي وقالّتْ:

- لأنّها طبيعةُ البشرِ أينما كانوا إلا إذا وعَوا ودرّبُوا أنفسَهم وجاهدُوها لتزكيتِها، وكما قلْتُ هذا يحتاجُ لوقتٍ، وأنْ يبدأَ كلُّ إنسانٍ بنفسهِ ويكونَ قدوةً أوّلاً، ثمّ يلتزمَ نهجَ النبوّةِ في النصحِ والإرشادِ والإصلاحِ بينَ الناسِ.

- سؤالٌ يلحُّ عليَّ وقد فسّرْتُهُ قليلاً في كلامِكِ، ولكنْ مازالَ في النفسِ شيءٌ.

لماذا نختلفُ بالرأي معَ أنّ الحقَّ واحدٌ؟ أحياناً حتّى لو كانَ

الآخرُ موضوعيّاً في كلامهِ ولم يُحوّلِ الكلامَ إلى أمرٍ شخصيّ إلا أنَّ الآخرَ يصعبُ عليهِ رؤيةُ ما يقولُهُ أحياناً؟

- العقلُ يا بنتي يحكمُ على الأمورِ أو يستنتجُ رؤيتَهُ للحدثِ والموقفِ ويفسّرُهُ وفقَ مجموعةٍ مِنَ القيمِ والعقائدِ والأفكارِ وعاداتِ العقلِ التي تعوّدَ أنْ يستخدمَها خلالَ عمليّةِ التفكيرِ. وانتبهي هُنا، "طريقةُ التفكيرِ التي اعتادَها أصبحَتْ عادةً عقليّةً لديه". كلّما مرَّ بموقفٍ مشابهٍ، فإنّهُ يتّخذُ الأسلوبَ نفسَهُ في مواجهتِهِ، فإنْ كانَ قد عوّدَ فكرَهُ على رؤيةِ وجهةِ نظرهِ فقط، ولا يحاولُ أنْ ينظرَ في النواحي الأخرى، أو ليسَ لديهِ هذهِ القناعةُ بأهميّةِ أنْ يضيفَ لرأيهِ رأيَ الآخرين كي تكونَ نظرتهُ أعمقَ وأشملَ عندئذٍ سيتّبعُ أسلوبَ الرأي الأوحد!

كما تلعبُ النفسُ وهواها دورَها، وكذلكَ المشاعرُ... جميعُ هذهِ العواملِ تتشاركُ في صنعِ رأيِ الشخصِ أو اتجاههِ وفكرهِ، فإذا لم يكنْ للشخصِ وعيٌ فيما يُدخلُهُ إلى عقلهِ مِنْ قيمٍ وأفكارٍ

ومعلوماتٍ، ولم يسْعَ إلى تدريبِ عقلهِ على العاداتِ الصحيحةِ في التفكيرِ عندئذٍ تحصلُ هذهِ الغشاوةُ ويختلفُ الناسُ كثيراً. فلكلٍّ منهم هوى نفسٍ وعاداتُ تفكيرٍ.

- شيءٌ مرعبٌ حقّاً يا أمّي. لم أتخيّلْ أهميّةَ الوعي فيما أسمعُ أو أقرأُ مِنْ كلماتٍ وآراءٍ... وما أدخلُهُ إلى عقلي... ولم أعِ قطُّ فكرةَ عاداتِ التفكيرِ السليمةِ... لم تذكريها لي يا أمّي مِنْ قبلُ.

-صحيحٌ لم أذكرْها لكِ باسمِها لكنّي يا عزيزتي أقومُ بتطبيقِها أمامَكِ، وأعلّمُكِ طُرقَ التفكيرِ السليمةَ حتّى تصبحَ عادةً لديك.

- ما أروعَكِ مِنْ أمٍّ ... أشكرُكِ يا حبيبتي مِنْ كلِّ قلبي، أسألُ اللهَ أنْ يعينني فأطبّقَ ما تنصحينني به، وتوجهيني مِنْ خلاله، فأنا في نعمةٍ عظيمةٍ، أسألُهُ جلَّ وعلا أنْ يوفقَني لأكونَ كما يحبُّ ويرضى، وأكونَ مِنَ الذين يستمعونَ القولَ فيتّبعون أحسنَه.

- بإذنِ اللهِ يا حبيبتي، هذا دعائي دائماً لي ولكم، مادامَ الإنسانُ صادقاً في طلبِ الحقِّ فلابدَّ أنْ يعينه اللهُ مهما أخطأَ فإنّهُ سريعُ الأوبةِ والعودةِ للطريقِ الصحيحِ، هذهِ هي أهمُّ خاصيّةٍ في المؤمن، فاحرصي عليها.

- أفعلُ إنْ شاءَ اللهُ. جزاكِ اللهُ خيراً يا حبيبتي وأعانني كي أُقرَّ عينَكِ وأُسعدَكِ.

قبّلتُ أمّي وعدْتُ إلى غرفتِي وفتحْتُ دفترَ مذكّراتي كي أسجّلَ ما تعلّمْتهُ حتّى لا أنساه، فما تعلّمته اليومَ هامٌّ جدّاً، عليّ أنْ أسعى لتطبيقِهِ، وهي طريقةٌ علمتْني إيّاها أمّي، وأجدُها نافعةً قد أعانتني كثيراً عندما أنسى وأبتعدُ عنِ الطريقِ فبينَ السبقِ والتأخّرِ تذكّرُ الهدفَ.

- ٢٠ -



(معادلةُ التغييرِ "إنَّ اللهَ لا يغيّرُ ما بقومٍ حتّى يُغيّروا ما بأنفسِهم")

"أصبحْنا وأصبحَ المُلكُ للهِ "

تمتمْتُ بها عندما أصبحْتُ، وأخذْتُ أفكّرُ بمعانيها وأنا أستعدُّ للصلاة.

تُرى ما الحكمةُ مِنْ هذا الدعاءِ وبهذهِ العبارةِ بالذات؟ وماهي الرسالةُ التي ستصلُ إلى عقلي؟ وماهي الفكرةُ التي يريدُ اللهُ منّي أنْ أبرمجَ عقلي وفقَها؟

(الملكُ للهِ) كلُّ شيءٍ بيدهِ، ولا يخرجُ عن ملكهِ شيءٌ سبحانهُ. فلا تملكُ ورقةُ شجرٍ أنْ تقعَ إلا بعلمهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ سورة الأنعام.

كلُّ شيءٍ يقعُ تحتَ سيطرتهِ وفي مُلكهِ جلَّ جلالهُ، فيجبُ أنْ أبدأَ يومي وأنا متذكّرةٌ لتلكَ الحقيقةِ التي لا لبْسَ فيها، إلا أنَّ الاعتيادَ عليها قد يجعلُها غائبةً عنّا، وعندَ تذكّرِها أُصبحُ واثقةً ومتوكّلةً ومطمئنّةً لوجوديَ ضمنَ ملكهِ وهو الرحيمُ الودودُ،

العزيزُ المقتدرُ، فلا أخشى أحداً.

إنّها رسالةُ اطمئنانٍ حتّى يرتاحَ المتعبُ، ويأمنَ الخائفُ، ويفرحَ المحزونُ، ويتهلّلَ وجههُ مع إشراقةِ الصباحِ لتحملَ معها الأملَ في تيسيرِ المعسّرِ مِنَ الأمورِ، وفتحِ المغلقِ من الأبوابِ، وتبديلِ الحالِ بأحسنَ منه.

هذهِ الرسالةُ وتكرارُها كلَّ يومٍ يجعلُ منها جزءاً مِنْ مخزونِ الإنسانِ الفكريِّ والعَقديِّ الذي يُعقَدُ في القلبِ، فيصدرُ عنه السلوكُ بالإشراقِ والبِشْر.

وإنَّ تكرارَها يوميّاً لَيبعثُ في النفسِ معانيَ العزةِ والاطمئنانِ والثقةِ والسكينةِ، وهذا ما تحتاجهُ النفسُ الإنسانيّةُ كي تبدأَ يومَها بهِ فتنشطَ جوارحُها سعياً وجِدّاً في سبيلِ إعمارِ الكون.

معانٍ جميلةٌ. إلا أنَّ تكرارها دونَ تفكّرٍ يفقدُها بريقَها وأثَرها، فنخسرُ عندئذٍ الهدفَ والغايةَ منها، كما أن هدفَ الإنسانِ في

إعمارِ الكونِ وفقَ ما يحبُّ خالقُه مطابقاً لهداهُ وشرعِهِ يحتاجُ دائماً لمَنْ يذكّرُهُ بهِ حتّى لا يحجبه غبارُ الأحداثِ. ومِنْ هُنا كانَتْ روعةُ دعاءِ رسولِ اللهِ ﷺ وتعليمِهِ لنا بتذكّرِ هدفِنا كلَّ صباحٍ حتّى تستقيمَ حياتُه وفقَ الهدفِ. إذ إنّ حكماءَنا يقولون " بينَ السبقِ والتأخرِ تذكّرُ الهدفَ"، إنّهم يدركون أنَّ الهدفَ يُنسى أحياناً تحتَ وطأةِ الحياةِ ومشاغلِها، و أن سرَّ نجاحِ مَنْ حقّقوا أهدافَهم هي أنّهم جعلوها نصبَ أعينِهم كلَّ صباحٍ.

يا آللّه! كم مِنَ الحكَمِ والمعاني في كلِّ قولٍ وفعلٍ في دينِنا ولو فقهناها لسُدْنا العالمَ أجمعَ!

أنهيتُ صلاتي وتأمّلي و بدأْتُ أسبّحُ وأحمدُ وأثني على اللهِ كما أمرَنا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ الأحزاب.

فأحسسْتُ بنشاطٍ وطاقةٍ كبيرينِ دفعاني للذهابِ إلى المدرسةِ

دونَ تأخيرٍ، رتّبْتُ غرفتي و سريري، وخرجْتُ أمشي مشيةَ اطمئنانٍ وسرور، فيها من الهمّةِ والنشاطِ ما لم أعهدْهُ في نفسي مِنْ قبلُ، ثمَّ أخذْتُ ألقي التحيّةَ بابتسامةٍ لطيفةٍ على زميلاتي اللواتي شعرْنَ بنشاطي وحبوري فبادلْنني السؤالَ: نراكِ اليومَ نشيطةً سعيدةً، خيراً إنْ شاءَ اللّهُ ؟ .. يوماً مباركاً ومشرقاً ياعلا.. هنأّكِ اللهُ بابتسامتِك ... عباراتٌ كثيرةٌ لم أحفظْها، لكنّها زادتني همّةً وقوّة.

مضى اليومُ الدراسيُّ حتّى الحصّةُ الأخيرةُ وأنا أشاركُ في الدرسِ وأنشرُ البسماتِ في صفّيَ والباحةِ. وفي الاستراحةِ سألتْني رفيقتي المحظيّةُ عندي: لاحظْتُ أنّكِ اليومَ مبتهجةٌ أكثرَ مِنْ أيِّ يومٍ مضى، فالحمدُ للهِ ولكنْ أعلميني ما السرُّ؟ ابتسمْتُ وقلْتُ لها ما جالَ في خاطري وما قرأْتُه البارحة، فبرقَتْ عيناها وأبدَتِ انسجاماً واتّفاقاً معَ أفكاري، فقد كانَتْ تهزُّ رأسَها وتقولُ بينَ الفينةِ والأخرى: صدقْتِ.

كانَ يوماً جميلاً مِنْ أيامِ حياتي أحسسْتُ بأنّي عثْرتُ على كنزٍ أو مفتاحٍ ثمينٍ كنْتُ قد أضعْتُه.

عدْتُ إلى البيتِ وبدا لي منزلي جميلاً سعيداً، كل ما فيهِ يشدو ويبتسم.

- خبريني ما الخبر ؟ سألَتْ أمّي.
- لا شيءَ !... أجبتُها معَ ابتسامةِ المستغربِ منَ السؤالِ.
- ردّتْ بلطفٍ : لكنّي ألاحظُ أنّكِ اليومَ سعيدةٌ، لابدَّ أنَّ هناك حدَثاً ما أدخلَ السرورَ إلى قلبِك.
- صدّقيني لا شيءَ، غيرَ أنّي أعيدُ برمجةَ نفسي مِنْ جديدٍ.

نظرَتْ إليّ باستغرابٍ:

-ماذا تقصدين؟

أجبتُها بصوتٍ حانٍ وعينايَ تنظرانِ نحوَ السماءِ مِنْ نافذةِ المطبخِ:

-لقد تفكّرْتُ يا أمّي في قولِهِ تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١﴾الرعد.

وعرفْتُ أنَّ اللهَ عادلٌ ورحيمٌ لذلكَ وضعَ وسيلةَ التغييرِ بأيدينا حتّى لا ندعَ الظروفَ تحبطُنا أو تفتُّ مِنْ عزائمِنا.

لقد اكتشفْتُ أنَّ أفكاراً سلبيّةً كثيرةً ندّخرُها في عقولِنا، وبالتالي تؤثّرُ على طريقةِ تفكيرِنا وسلوكِنا، ننتهجُها دونَ أنْ ندركَ آثارَها السلبيّةَ، علينا أنْ نستبدلَها بأفكارٍ صحيحةٍ منْ دليلِ التعليماتِ المُنزَلِ إلى الإنسانِ (القرآن).

لقد أحسسْتُ بالقوّةِ الهائلةِ التي أودعَها اللهُ فينا وأعطانا إيّاها في هذهِ الآيةِ، لكنّنا نحنُ مَنْ نحدُّ مِنْ طاقاتِنا وقوّةِ التغييرِ لدينا.

-مثلُ ماذا يا بنتي؟

-إنَّ معرفتَنا شيءٌ، وإدراكَنا له شيءٌ آخر. فنحنُ نعرفُ أنَّ اللهَ بيدِهِ كلُّ شيءٍ، لكنّنا لم نستشعرْ ذلكَ ولو استشعرْناهُ حقّاً فما مِنْ قوّةٍ ولا سطوةٍ ولا ذكاءِ شخصٍ أو مكرِهِ يمكنُ أنْ يُفزِعَنا، فاللهُ أكبرُ وأجلُّ، هذه الحقيقة يجبُ أنْ تنفيَ مشاعرَ القلقِ اتّجاهَ أيّ شيءٍ يواجهُنا.. فلا قلقَ للامتحانِ، ولا خوفَ مِنَ المستقبلِ...

وجميعُ هذهِ المخاوفِ والقلقِ تجعلُ مِنْ شخصيّةِ الإنسانِ شخصيّةً ضعيفةً، غيرَ مبادرةٍ، سلبيّة، وهذا مالا يريدُهُ اللهُ، لذلكَ زوّدَنا بالقوّةِ الهائلةِ (إنّ اللهَ لا يغيّرُ ما بقومٍ حتّى يغيّرُوا ما بأنفسِهم) لذلكَ يا أمّي قررْتُ أنْ أبذلَ جهدي وأتوكّلَ عليهِ دونَ خوفٍ أو قلقٍ اتّجاهَ المستقبلِ، ولن أقعَ بإذنِ اللهِ فريسةَ الإحباطِ بلْ سأشمّرُ عنْ ساعدِ الجدِّ، وأستمعُ إلى كلِّ نصيحةٍ أو نقدٍ بناءٍ، ولنْ أدعَ حساسيتي حاجزاً يبعدُني عنْ تطويرِ نفسي وتنميتِها.

لقد أنعمَ اللهُ عليّ يا أمّي بأنْ علّمتِنيَ الكثيرَ مِنْ أدواتِ التغييرِ، فجزاكِ اللهُ خيراً، وعليَّ الآنَ أنْ أتدرّبَ عليها وأضعَها في موضعِ التنفيذِ لتثمرَ هذهِ المعرفةَ، وإلا كانتْ حجّةً عليَّ أمامَ ربّي، فقد أهداني مَنْ يعلّمُني بحنوٍّ وحبٍّ، وواجبي الآنَ أنْ أطبّقَ ماعلمتنيهِ وأغيّرَ نفسي. أسألُ اللهَ العونَ والسدادَ.

- بوركْتِ يا بنتي. نتائجُ تفكيرٍ مثمرٍ وطيّبٍ. باركَ اللهُ بكِ ووفّقكِ لما يحبُّهُ ويرضاه.

قبّلْتُ أمّي وشكرتُها لاستماعِها واهتمامِها وتفاعلِها معي، ثمَّ أسرعْتُ إلى غرفتي لتبديلِ ثيابي.

- ٢١ -



(التعميمُ الخاطئُ أحدُ الأخطاءِ الفكريّةِ الشائعةِ التي يجبُ تجنُّبُها)

كانَ حديثاً شائقاً استمتعْتُ بكلِّ كلمةٍ فيه، تكلّمَتْ مِنْ خلالِهِ صديقتي حنانُ عَنْ تجرِبتِها الإيمانيّةِ عندَما قررَتِ الالتزامَ بالحجابِ الإسلاميِّ، وبدءَ مشوارِها إلى اللهِ.

إنّها تملكُ أسلوباً مميّزاً في الكلامِ، يشدُّ الآخرين لسماعِهِ، حقّاً إنّي أحبُّها في اللهِ، فمنذُ اللحظةِ التي رأيتُها شعرْتُ بأنّها قريبةٌ منّي، ربّما شخصيّتُها، أو لأنّي أحبُّ هذهِ الطبيعةَ المرِحةَ والجادّةَ بآنٍ

واحدٍ، واضحةُ الرؤيةِ تعرِفُ ماذا تريدُ، وكيفَ تحقّقُ ما تريدُ، قويّةُ الإرادةِ، صادقةٌ في مشاعرِها وأقوالِها.

كلُّ هذهِ الصفاتِ أعشقُها وأحبُّها، ولقد اجتمعَتْ في شخصيّتِها،

ومنذُ ذلكَ الوقتِ وأنا حريصةٌ على صحبتِها وهي كذلكَ، كلانا قد تعاهدْنا على المحبّةِ في اللهِ والنصحِ لدينِهِ، فكم نصحَتْني وكم نصحْتُها، وكم تعلّمْتُ منها وتعلّمَتْ منّي.

كلُّ هذهِ الأفكارِ كانَتْ تدورُ في خلَدي وأنا أستمعُ إلى حديثِها، إلى أنْ جاءَتْ زميلةٌ لنا في الصفِّ (هيا)، عُرِفَ عنْها الخبثُ والمكيدةُ والكذبُ، جاءَتْ وصاحَتْ بنا:

- أنتنَ مخدوعاتٌ وواهماتٌ بكلامِ الآخرين. هل تعرفْنَ مدرّسةَ التاريخِ التي درّستْنا السنةَ الماضيةَ وكانَتْ تحدّثُنا عنِ الإسلامِ كثيراً وعنِ الفتوحاتِ ورفعةِ الدين؟

لقد رأيتُها البارحةَ تلهو وترقصُ في مكانٍ عامٍّ معَ مجموعةٍ مِنَ

الرفاقِ والأصحابِ، أمّا أختُها المحجّبةُ والملتزمةُ فقد ظلمتْني كثيراً في السنةِ الماضيةِ، وكانَتْ تسعى إلى تحطيمي لأنّي غيرُ ملتزمةٍ، فأنقصَتْ علاماتي في الاختباراتِ الشفهيّةِ كثيراً مِنْ دونِ ذنبٍ.

وقعَ علينا الكلامُ كالصاعقةِ، لم تنطقْ أيّةُ واحدةٍ منّا بكلمةٍ، إلّا سارةُ التي صرخَتْ بأعلى صوتِها:

إنْ كانَ هذا هو الدينُ فلا أرغبُ بالالتزامِ بهِ.

رنَّ جرسُ الفرصةِ مؤذناً بانتهائِها، فعدْنا لمقاعدِنا لكنّي ظللْتُ عامّةَ يومي مشغولةً بما حدثَ، وأحسبُهُ كذلكَ عندَ جميعِ مَنْ سمعْنَ ما دارَ بيننَا.

عدْتُ إلى المنزلِ حزينةً مهمومةً. كنْتُ أتشوّقُ لرؤيةِ أمّي لأطرحَ عليها هذا السؤالَ الذي حيّرَني:

هل مِنَ المعقولِ أنْ يتغيّرَ الإنسانُ بهذهِ السهولةِ؟ أو هل هي تمثّلُ الدين؟

لا أدري مئاتُ الأسئلةِ دارَتْ في خاطري حتّى أحسسْتُ بالدوارِ لكثرةِ التخبّطِ بينَها.

لكنّي لم أجدْ أمّي في المنزلِ، أسرعْتُ إلى غرفتي وتوضّأتُ وتوجّهْتُ إلى المطبخِ كي أعدَّ مائدةَ الغداءِ، لكنَّ ذهني كانَ مشغولاً، فاحترقَتْ بعضُ الأطعمةِ، ولم أنتبهْ لها إلى أن جاءَ أخي وأنقذَها.

لاحظَتْ أمّي على الغداءِ شرودي، سيّما أنَّ أخي العزيزَ قصَّ عليها ما حصلَ في المطبخِ عندما سألَتْني عنْ سببِ حرقِ الطعامِ.

سألَتْني بعدَ الغداءِ وأثناءَ شربِنا الشايَ:

- ما بكِ يا علا؟ لقد احترقَ الطعامُ على غيرِ عادتِك! كما أنَّ بوادرَ الهمِّ والشرودِ يبدوانِ على وجهِكِ. ما بكِ؟

قصصْتُ عليها ما حدثَ، ثمَّ توقّفْتُ فلم أعلّقْ بشيءٍ.

- وأنتِ ما رأيُكِ بما حدثَ يا علا؟ أراكِ لم تخبريني بمشاعرِكِ أو ماذا فعلْتِ؟

-أنا ... أنا .... ثمَّ سكتُّ.

عمَّ السكونُ دقائقَ. حتّى قطعَهُ صوتُ أمّي:

-لقد علّمْتُكِ يا علا كيفَ عليكِ أنْ تحلّلي أيَّ موقفٍ، وتستعملي مهاراتِ التفكيرِ للحكمِ على أيِّ شيءٍ، ولكنْ يبدو أنَّ المفاجأةَ أذهلَتْكِ عنِ استخدامِها! هل هذا صحيح؟

-صحيحٌ يا أمّي. أشعرُ أنّي مذهولةٌ، أُسقطَ في يدي. لا أدري ماذا أقولُ. ولكنْ بالفعلِ أنا لا أستطيعُ التفكيرَ بشيءٍ.

-حسناً سأساعدُكِ لتستعيدي فكرَكِ، ويذهبَ عنكِ ذهولُكِ تذكّري:

-هناكَ ثلاثُ نقاطٍ أساسيّةً: أولاً هل حديثُ هيا صحيحٌ أم لا؟ ألا تذكرينَ قولَهُ تعالى (يا أيّها الذينَ آمنوا إنْ جاءَكم فاسقٌ بنبأٍ فتبيّنوا أنْ تصيبُوا قوماً بجهالةٍ فتصبحُوا على ما فعلْتم نادمين)؟

أمّا النقطةُ الثانيةُ والأهمُّ: هل نحكمُ على الدينِ فنلتزمُ بهِ أم لا مِنْ خلالِ مبادئَ وقيمِ هذا الدينِ وصلاحِهِ أم من خلالِ سلوكِ أشخاصٍ (بغضِّ النظرِ إنْ كانُوا يمثّلونَ الملتزمينَ بالدينِ أم لا)؟

أمّا النقطةُ الثالثةُ: تعرفينَ حديثَ رسولِ اللهِ (كلُّ ابنِ آدمَ خطّاءٌ وخيرُ الخطائينَ التوّابون)؟

-نعم أعرفُهُ يا أمّي.

-أي إنّ الخطأَ واردٌ ومحتملٌ مِنْ كلٍّ الناسِ، وتكلّمْنا كثيراً عَنْ طبيعةِ النفسِ البشريّةِ وضعفِها؟ هل هذا صحيح؟

-نعم يا أمّي صحيحٌ، وقلْنا إنَّ المهمَّ أنْ يتوبَ الإنسانُ ويصحّحَ خطأَهُ.

-ما أقصدُهُ يا بنتي مِنَ النقطةِ الثالثةِ، أنّ كلَّ إنسانٍ مهما بلغَ مِنْ علوٍّ في المرتبةِ الاجتماعيّةِ أو الدينيّةِ فربّما يخطئُ، فلا يجوزُ أنْ ننظرَ إليهِ نظرةَ قداسةٍ مطلقةٍ وكأنّهُ نبيٌّ لا يخطئُ أبداً، وفي الوقتِ ذاتِهِ إذا أخطأَ تنهارُ مقاييسُ الدينِ لدينا، ثمَّ نعمّمُ ونقولُ: إذا كانَ الدينُ ومشايخُهُ هكذا فلا أريدُ اتّباعَ الدينِ أو تعلّمَهُ على أيدي المشايخ!

فهذا خطأٌ في التصوّرِ وفي التفكيرِ.

خطأٌ في التصوّرِ لأنّنا قدّسْنا المشايخَ وأنزلناهم مرتبةَ الأنبياءِ، ودينُنا واضحٌ صريحٌ في قولِ الرسولِ ﷺ (كلُّ ابنِ آدمَ خطّاءٌ)

فلا أعيبُ على أحدٍ خطأَهُ، و إنْ كنّا مَنْ فعلناهُ فالعيبُ أنْ نُصرَّ على عدمِ رؤيتهِ أو الاعترافِ بهِ، و نظنَّ أنّنا فوق الخطأ.
و أمّا اتّباعُ المشايخ وأولي العلمِ فيجبُ أنْ يكونَ اتّباعاً مُبصراً، لا تقليداً أعمى، فأوافقُه مادامَ موافقاً للكتابِ و السنّةِ. هذا هو الطريقُ كما علّمَناه إيّاهُ رسولُ اللهِ ﷺ وصحابتُه الميامين، فقد قالَ سيّدُنا أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ عندما وليَ الخلافةَ:
(فإنّي قد وُلّيتُ عليكم ولسْتُ بخيرِكم ، فإنْ أحسنْتُ فأعينوني، وإنْ أسأْتُ فقوّموني) [1].

هذهِ الرؤيةُ المتوازنةُ هي السبيلُ الأقومُ لاختيارِ الطريقِ وفهمِ المستوياتِ الإيمانيّةِ وضعفِ النفسِ البشريّةِ، وسببِ ارتقائِها تارةً وهبوطِها أخرى.
و أما الخطأُ في التفكيرِ فهو التعميمُ، أي إذا أخطأَ شيخٌ أو

[1] – انظر السيرة النبوية لابن هشام، وفي ابن كثير في البداية والنهاية "٥/٢٤٨" و "٦/٣٠١": إسناده صحيح

عالمٍ، رفضْتُ التعلّمَ مِنْ مصادرِ العلمِ و علمائِها ومشايخِها.
و الصوابُ أنْ أعيَ طبيعةَ النفسِ وأنَّ الخطأَ واردٌ، فلا أجرّدُهُ مِنْ علمِهِ أو دينِهِ، أو أقذفُهُ بالكفرِ والخروجِ عنِ الملّةِ لمجرّدِ خطأٍ إلا إذا كانَ خطأً في عقيدةِ التوحيدِ، بل عليَّ أنْ أتابعَ العلماءَ عنْ بصيرةٍ ووعيٍ، و ميزاني هو كتابُ اللهِ وسنةُ نبيّهِ ﷺ

- أنتِ تثيرينَ يا أمّي ثلاثَ نقاطٍ هامّةٍ:

الأولى: عليَّ التأكّدُ منْ صحّةِ الخبرِ.

الثانية: هل نأخذُ الدينَ ونحكمُ عليهِ مِنْ خلالِ مبادئِهِ وقيمِهِ وأحكامِهِ أم مِنْ خلالِ الأشخاصِ؟

والثالثة: ألا أنظرَ إلى الناسِ مهما علَتْ مرتبتُهم نظرةَ تقديسٍ وجعلِهِم بشراً لا يخطئون، فإذا ما أخطأَ أحدُهم قلبْتُ

المِجنَّ[1] و عمّمْتُ ورفضْتُ تعلّمَ الدينِ مِنْ مصادرِهِ و علمائِهِ، بل عليَّ أنْ أتبعَهم اتّباعاً مُبصِراً لا تقليدَ الأعمى، معتمدةً على كتابِ اللهِ وسنّةِ رسولِهِ ﷺ . هل هذا ما قصدتِه؟

-نعم يا علا. النقطةُ الثانيةُ هي جوابُ ما سألتِهِ، ولكنّي أحببْتُ أنْ أشرحَ لكِ الموضوعَ مِنْ مختلفِ نواحيهِ، وبشكلٍ عامّ.

-صحيحٌ يا أمّي، لأنَّ الإنسانَ يتأثّرُ بالآخرين وسلوكِهم، وأغلبُنا يحكمُ على الدينِ أو المبادئِ مِنْ خلالِ الأشخاصِ.

- صحيحٌ وهُنا الطامّةُ الكبرى.

- طامّة! هل بالإمكانِ أنْ توضحي أكثرَ يا أمّي؟

-أعطني في أيِّ زمانٍ ومكانٍ: أيّ جماعةٍ أو حزبٍ أو دينٍ ليسَ في أنصارِهِ ومتّبعيهِ مَنْ هو ضعيفُ النفسِ والإرادةِ، دخلَ

---

[1] – قلَب له ظَهْرَ المِجَنّ : انقلب ضِدَّه وعاداه بعد مودّة.

الدينَ تقيةً أو مصلحةً أو رياءً؟

ألم يوجدْ منافقونَ في عهدِ رسولِ اللهِ؟ ألم تردْ قصصُ أخطاءِ بعضِ الصحابةِ؟

الخطأُ ليسَ عيباً لكنَّ المكابرةَ وعدمَ الأوبةِ إلى اللهِ هي المشكلةُ الكبرى، أمّا الإنسانُ فلا يوجدُ أحدٌ كاملٌ؛ كما أنّ الدينَ أعطى للناسِ حريّةِ الاعتقادِ أو الالتزامِ بهِ.

- لكنْ يا أمّي. لا أدري.

- سؤالي: هل يجوزُ أنْ أحكمَ على الدينِ مِنْ خلالِ تصرّفِ البعضِ؟

- لا.

- هل هناكَ جماعةٌ لحزبٍ أو دينٍ التزمَ جميعُ أفرادِها بمبادئِهِ كاملةً؟

-لا .

-طبعاً لا، لأنَّ النفسَ البشريّةَ متفاوتةٌ في صفاتِها وصدقِها وأهدافِها وطبيعتِها وقدرتِها على السموِّ والرقيِّ، وفي جميع الأديانِ وعندما بعثَ اللهُ الرسلَ كانَ هناكَ مِنْ أتباعِهم مَنْ أخطأَ وأساءَ، بل ونافقَ وخانَ رسولَهُ.

الدينُ مِنْ صنْعِ اللهِ، واللهُ كاملٌ يدعو إلى خيرِ الناسِ وصلاحِهم، والناسُ لا تكتملُ صفاتُهم الخُلُقيّةُ ولكنّهُ يمتحنُهم ليرى مدى تطبيقِهم لهذهِ المبادئِ والقيمِ والتزامِهم بها، وعلى هذا يكونُ الحكمُ عليهم يومَ القيامةِ إلى جنّةٍ أو نارٍ.
ومِنْ جهةٍ أخرى إذا أردْنا رأيَ المنطقِ والعلمِ، فإنّنا عندما نقومُ بذلكَ نكونُ قد قمْنا بخطأٍ فكريٍّ واضحٍ هو: التعميمُ الخاطئُ، فأخذْنا أمثلةً وعمّمنا النتيجةَ، وقِسْنا الجزءَ على الكلِّ! وهو خللٌ في التفكيرِ واضحٌ يعلمُ خطأَهُ كلُّ عاقلٍ ومفكّر.

-اممم ...... صحيحٌ، يجبُ ألّا نحكمَ على الدينِ مِنْ خلالِ الأشخاصِ، لأنَّ الدينَ مِنْ عندِ اللهِ.

سؤالٌ يا أمّي: هل نحكمُ على الدينِ مِنْ خلالِ الأشخاصِ عَنْ قصدٍ أم بغيرِ قصدٍ؟
أقصدُ هل نفعلُ ذلكَ لأنّنا نقومُ بخطأٍ فكريٍّ وثقافةٍ عامّةٍ للمجتمعِ أم بسببٍ آخرَ؟

-بعضُنا يقومُ بذلكَ بسببِ تأثيرِ التفكيرِ العاطفيِّ وعدمِ وجودِ بنىً منطقيّةٍ فكريّةٍ صحيحةٍ لديه، فلا يمتلكُ مهاراتِ التفكيرِ الناقدِ التي تمكّنُهُ مِنَ الحكمِ على الأمورِ وفقَ معاييرَ صحيحةٍ، فلا يستطيعُ أنْ يبتعدَ عنْ تحكّمِ هوى النفسِ والعاطفةِ في الحكمِ على الأشياءِ والأفكارِ والمواقفِ.
وبعضُهم يقومون بذلكَ عَنْ قصدٍ، بغيةَ تشويهِ الأفكارِ والقيمِ لأغراضٍ دنيئةٍ، حتّى يبرّروا لأنفسِهم ولغيرِهم عدمَ التمسّكِ

بالدين.

وللأسفِ قلَّ في هذا الزمانِ ذاكَ الصنفُ الصادقُ بالتزامهِ في دينهِ، وكثُرَ مَنْ فصلَ الدينَ عنِ السلوكِ، فازدادَتْ صورُ العُبّادِ مع كذبٍ أو خداعٍ في العملِ والحياةِ.
إلا أنَّ ذلكَ يجبُ أنْ يدفعَنا لأنْ نكونَ نحنُ مَنْ نمثّلُ الدينَ حقّاً، عبادةً وسلوكاً وفكراً ومنهجَ حياةٍ، لا أنْ نقذفَ مبادئَ الإسلامِ الحنيفِ و قيمَهُ بالتهمِ الباطلةِ! ولو عُرِضَ الإسلامُ بفكرِهِ وقيمِهِ ومبادئِهِ على كلِّ ذي لبٍّ وعقلٍ دونَ تحيّزٍ أو تعصّبٍ لوجدَهُ الأسلوبَ الأمثلَ لحياةٍ فُضلى؛ وهذا ما عبّرَ عنه كثيرٌ مِنْ علماءِ الغربِ المنصفين.

-صحيحٌ يا أمّي. المشكلةُ أنّنا أسأْنا للإسلامِ بتصرّفاتِنا، معَ أنَّ الإسلامَ دينٌ رائعٌ يصلحُ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ.

لم أكنْ أتخيّلُ أنَّ هوى النفسِ والعاطفةَ يتحكّمانِ في الإنسانِ

لهذهِ الدرجةِ.

المشكلةُ يا أمّي أنَّ حديثَ النفسِ حديثٌ خفيٌّ لا تشعرينَ بهِ، فهو يخاطبُنا مِنَ الداخلِ، وفي أغلبِ الأوقاتِ نوافقُهُ لأنّنا نظنُّ أنَّ ما يدورُ في بالنا هو مِنْ ذاتِنا! فمِنَ الممكنِ أنْ تنظري إلى وسوسةِ شخصٍ بارتيابٍ، لكنَّ حديثَ النفسِ محببٌ لنا، وهذهِ هي الطامّةُ.

-صدقتِ يا بنتي، إن القرآن عندما ينبّهنا لذلكَ، فإنّهُ يساعدُنا كي نرتقيَ في مدارجِ الكمال.

-ولكن كيفَ أميّزُ بينَ حديثِ النفسِ والشيطان؟

-وسوسةُ الشيطانِ تتميّزُ بأنّهُ لا يهمّهُ أيَّ ذنبٍ تقترفينهُ، المهمُّ أنْ تعصي اللهَ ثمَّ يضيفُ إليهِ اليأسَ مِنْ صلاحِكِ، و يبحثُ لكِ عَنْ شركاءَ في هذهِ المعصيةِ حتّى لا يستيقظَ ضميرُكِ أو صوتُ الرحمنِ و فطرتُكِ في داخلكِ، فلا يهمُّهُ في أيِّ وادٍ سحيقٍ تهوين.

أمّا النفسُ الأمّارةُ بالسوءِ فتلحُّ على فكرةٍ أو ذنبٍ أو شهوةٍ معيّنةٍ، كما أنّها تتّصفُ بصفاتٍ ذكرناها سابقاً فهي تأمُرُكِ بالشحّ، والبخلِ، والقنوطِ، واليأسِ، وجحودِ النعمةِ، والتكبّر والغلوّ .... هذه الصفاتُ علينا أنْ نجاهدَ أنفسَنا في عدمِ اتّباعِها أو على الأقل الوصولُ بها إلى الحدودِ التي يرضى بها ربُّنا ولا تضرُّ أحداً، لذلكَ أمرَنا اللهُ عزَّ وجلَّ بمجاهدتِها، والأخذِ بقيادِها إلى طريقِ الحقّ لننالَ السعادةَ في الدنيا والآخرةِ. (والذينَ جاهدُوا فينا لنهدينّهم سُبُلَنا وإنَّ اللهَ لَمعَ المحسنين).

-الأمرُ شاقٌّ يا أمّي... آه .

-معكِ حقٌّ، ولكنّها جنّاتٌ عرضُها كعرضِ السمواتِ والأرضِ، وقبلَ كلِّ هذا لو نظرْتِ يا بنتي بعينِ الفاحصةِ والمحلّلةِ لأفعالِ مَنْ حولَكِ وقوانينِ اللهِ التي نبّهنا إليها في القرآنِ لوجدْتِ أنّهُ ما مِنْ أمرٍ علويٍّ أُمِرْنا بهِ إلا وفيهِ تحقيقٌ

لسعادتِنا في الدنيا قبلَ أنْ نأخذَ أجرَهُ في الآخرة؛ فعندما منعَ الغيبةَ وحرّمَها وشبّهها بهذا التشبيهِ المقيتِ في أكلِ الميتِ وهو حيٌّ، إنّما ذلكَ لأثرِ الغيبةِ المؤلِمِ والكبيرِ في المجتمعِ، فهو يعملُ على تفكّكِهِ وزرعِ الأحقادِ والكرهِ؛ و لو تأمّلْتِ أمرَ الحجابِ للمرأةِ لرأيتِ أنّهُ يحميها مِنَ النفوسِ الضعيفةِ التي هوتْ إلى مرتبةِ الحيوانِ وخلدَتْ إلى الأرضِ، فهو كما يرفعُ قدرَها، ويداني منزلتَها لمنزلةِ الرجلِ، فيطلبُ الشرعُ منهُ أنْ يرقى لينظرَ إلى المرأةِ وهو يحاورُها فكراً بفكرٍ وقولاً بقولٍ، دونَ أنْ تكونَ مطمعاً لأغراضٍ رخيصةٍ، تهبطُ بمنزلةِ المرأةِ وتجعلُها سلعةً ومتاعاً له.. فهو تكريمٌ للمرأةِ ورفعٌ لشأنِها، قبلَ أنْ يكونَ قيداً على جزءٍ مِنْ حرّيّتِها الشخصيّة، فهو قد أعطاها أكثرَ ممّا أخذَ منها، وحمى المجتمعَ وارتقى بهِ مِنْ تفكيرٍ حيوانيٍّ شهوانيٍّ إلى إنسانيٍّ ربانيّ، وما أعظمَ الفارقَ بينَهما! إنّه يريدُ للمجتمعِ أنْ يميلَ عنِ الشهواتِ، ويضعَها في موضعِها الذي يجعلُ منهُ

مجتمعاً راقياً مِنْ جميع النواحي.

-لقد ازددْتُ اقتناعاً يا أمّي.. إنَّ مناقشتَكِ الفكريّةَ والمنطقيّةَ لَتزيلُ الغبشَ عنْ عينيّ وتُشعرُني أنّي أفهمُ الإسلامَ بشكلٍ مختلفٍ ليسَ لأجلِ الآخرةِ والطمعِ في الجنّةِ وهو طبعاً مطلبٌ عظيمٌ، بل إنّهُ جاءَ ليسعدَنا في الدنيا، ويعطيَنا خارطةَ طريقٍ نسيرُ وفقَها، لنسعدَ في الدنيا والآخرة، و أعجبتْني فكرتُك التي طرحتِها، أنَّ الدينَ مِنْ صنْعِ اللهِ، واللهُ كاملٌ يدعو إلى خيرِ الناسِ وصلاحِهم، والناسُ لا تكتملُ صفاتُهم الخُلقيّةُ ولكنّهُ يمتحنُهم ليرى مدى تطبيقِهم لهذهِ المبادئِ والقيمِ والتزامِهم بها، وانتبهتُ إلى فكرةٍ هامة وهي أن الإنسانَ الملتزمَ بدينهِ قد يخطئُ لأنّهُ بشرٌ، وهذا أمرٌ بديهيّ، فيجبُ ألّا أجرّدَهُ مِنْ دينهِ لمجرّدِ هفوتهِ أو ضعفهِ، فكلُّ ابنِ آدمَ خطّاءٌ وخيرُ الخطّائينَ التوّابونَ، ولكنّنا للأسفِ غالباً ما ننزعُ عنهُ صفةَ الدينِ لمجرّدِ وقوعِهِ في خطأٍ ما. وتعلّمتُ ألّا أعمّمَ تعميماً

خاطئاً، فلا أحكمُ على الكلِّ مِنْ خلالِ تصرّفِ البعضِ، وأنْ أتثّبتَ مِنْ أيّ خبرٍ قبلَ أنْ أنشرَهُ أو أقبلَهُ كحقيقة.

- إيجازٌ رائعٌ، أحسنتِ، وفّقَكِ اللّهُ يا بنتي لما يحبُّهُ ويرضاه، وفتحَ عليكِ فتوحَ العارفين، وجعلَ في يدكِ الخيرَ والهدايةَ.

- شكراً لكِ يا أمّي، أعانني اللهِ على تطبيقِ ما تعلّمتهُ.

- آمين.

- ٢٢ -

(رتّب قلبكَ... إنْ جعلْتَ اللّهَ ملِكاً عليهِ

ارتحْتَ وفزْتَ، فإنْ أحببْتَ عباداً،

فَـ (بهِ ولهُ وفيهِ)

- أمّي، هل تسمحينَ لي بالذهابِ إلى منزلِ حنان؟

-أرى أنَّ زياراتِك لها قد كثُرَتْ؟ هل تحضّران مشروعاً مشتركاً بينكما؟

-لا، نحنُ ندرسُ معاً، أليسَ ذلكَ سبباً مفيداً للاجتماعِ؟

-فتحَ اللّهُ عليكما، ولكنْ... ألا يضيّعُ ذلكَ وقتَكما؟ فأنا أعلمُ أنّكِ تحبّينَ الدراسةَ بمفردِكِ، ما الذي تغيّر؟

- كلامُكِ صحيحٌ، ما زلتُ أحبُّ ذلكَ، فأنا أدرسُ وحدي أوّلاً ثمّ نتناقشُ، حنانُ ذكاؤها اجتماعيّ، فهي تجيدُ الدراسةَ وتسهلُ عليها عندما تكونُ معَ شخصٍ آخرَ، لذلكَ بفضلِ معرفتي بنظريّةِ الذكاءاتِ المتعدّدةِ وجدْتُ طريقةً تفيدُنا معاً.

-اممم.. تطبيقٌ جيّدٌ لنظريّةِ الذكاءاتِ، أرى أنّكِ استفدْتِ منها كثيراً.

-صحيحٌ يا أمّي لقدِ استطعْتُ بفضلِ هذهِ النظريّةِ أنْ أفهمَ الآخرينَ وأعذرَهم، ثمَّ أجدُ طريقةً أفضلَ للتواصلِ معهم حسبَ ذكاءاتِهم.

-رائعٌ يا بنتي .. أنا فخورةٌ بكِ، لكنّي أقصدُ شيئاً آخرَ.

-ماذا تقصدينَ يا أمّي؟

-أشعرُ أنّكِ أصبحْتِ متعلّقةً بحنانَ جدّاً، تحبّينَ صحبتَها كثيراً لدرجةِ أنَّ أغلبَ وقتِكِ معَها، في المدرسةِ ثمَّ في البيتِ، تزورينَها أو تزورُكِ أو تحدّثينَ معها على الهاتفِ، أرى أنّكِ قد أكثرْتِ بعضَ الشيءِ مِنَ التزاورِ والصحبةِ، ألا ترينَ ذلكَ؟

-في الحقيقةِ يا أمّي، حنانُ تملكُ صفاتٍ كثيرةً أحبُّها، وقد أخبرتُكِ عنها مِنْ قبلُ، وهي طالبةٌ مُجِدّةٌ، ثمّ إنّنا نستغلُّ الوقتَ بالدراسةِ ولا نضيّعهُ حتّى عندَ تحدُّثِنا بالهاتفِ.

-أنا أثقُ بكِ وبقدرتِكِ على تنظيمِ وقتِكِ، وأعلمُ تماماً حرصَكِ على استثمارِهِ بشكلٍ نافعٍ، وكذلكَ أثقُ بحنانَ، فقد رأيتُها نِعمَ الصاحبةُ والأختُ الصادقةُ.

-أينَ المشكلةُ إذاً يا أمّي؟

تبسّمَتْ أمّي وقالَتْ:

-ليسَتْ هناكَ مشكلةٌ، إلا أنّهُ لفْتُ نظرٍ فقط، حتّى لاتتحوّلَ المحبةُ في اللهِ إلى تعلّقٍ شديدٍ، يغلبُ عليكِ ويفقدُكِ توازنَكِ، فإذا فقدتِها لسببٍ ما، اهتزّتْ نفسُكِ وفقدْتِ السيطرةَ عليها، وكما قيلَ: أحبِبْ مَنْ شئْتَ فإنّكَ مفارقُه.

-يبدو أنّي وصلْتُ -مِنْ دونِ أنْ أدري -لتلكَ المرتبةِ التي أشعرُ أنّي لا أستطيعُ فراقَها أبداً!

-مِنَ الطبيعيّ يا علا أنْ يُعجَبَ الإنسانُ بصفاتِ شخصٍ ويقرّبَهُ منه ويتخذَهُ أخاً له، لأنَّ الأخوّةَ والمحبةَ في اللهِ تساعدُ على الطاعةِ وخاصّةً إنْ كانوا يتناصحون فيما بينهم، فيرقَونَ في تزكيةِ أنفسِهم وطريقِهم إلى اللهِ، على ألّا تغلبَ هذهِ المحبّةُ وتصبحَ هدفاً بحدِّ ذاتِها، بينما هي وسيلةٌ للتقرّبِ إلى اللهِ وعونٌ على مصاعبِ الحياةِ ومزالقِها.

عندما يصبحُ الحبُّ في اللهِ تعلّقاً، يبدأُ الإنسانُ بالترنّحِ في الطريقِ، حتّى يصبحَ لقاءُ هذا الشخصِ هدفاً بأصلِهِ للاستئناسِ بحديثِهِ و .... عندَها تنحرفُ المحبّةُ في اللهِ وتصبحُ تعلّقاً، بل قد تزيدُ عنْ محبّةِ اللهِ، فيصبحُ هذا الشخص شاغلاً تفكيرَكِ ليلَ نهار، حتّى وأنتِ تقفين في الصلاةِ، أينما حللتِ وذهبْتِ.

-للأسفِ أنتِ تصفينَ حالي، وكأنّكِ نفسي!

- المحبّةُ في اللهِ يا علا مِنْ أجلِ أنْ تعلّمَنا كيفَ نحبُّ اللهَ، لا أنْ نستعيضَ بها عنْ محبّته!

- لم أفهم. كيفَ؟

-المحبّةُ في اللهِ دوحةٌ ربّانيّةٌ دنيويّةٌ، فهي تُدخِلُ الإنسانَ في ميادينِ الحبِّ شعوراً، وفهماً، وسلوكاً، بها يعرفُ الإنسانُ ما هو حالُ المحبّين، وكيفَ يكونُ شعورُهم، وأقوالُهم وسلوكُهم ليجعلَ مِنْ هذهِ المعرفةِ سبيلاً إلى محبّةِ اللهِ، فبعدَ معرفةِ معاني

الحبِّ لنْ يدّعي أحدٌ محبّتهُ للهِ إذا لم يشغلْهُ اللهُ شعوراً وفكراً وعملاً... يعلمُ أنَّ للمحبّينَ طرائقَ في التودّدِ ممّنْ يحبّون، وأحوالاً في محبّتِهم، وانشغالاً بمحبوبهم عنْ ذاتِهم وطلباتِها، فهم في مقابلِ إرضاءِ محبوبِهم يتنازلون عنْ كثيرٍ مِنْ أهوائِهم وطلباتِ أنفسِهم، بل وكرامتِهم، فلا يعظمُ ولا يستحيلُ فعلُ شيءٍ مقابلَ إرضاءِ هذا المحبوبِ والتودّدِ إليهِ.

فإنْ لم ينتقلوا مِنْ هذهِ المشاعرِ والأحوالِ الجميلةِ الرائعةِ التي تجعلُ الإنسانَ عظيمَ القدرةِ، قويَّ الإرادةِ، يستسهلُ المستحيلَ، ويقدّمُ كلَّ ما لديهِ عربوناً للمحبوبِ و وفاءً لهُ، أمامَ الحقيقةِ الكبرى : (أحبِبْ مَنْ شئْتَ فإنّكَ مفارقُه) ويرتحلونَ بمحبّتِهم مِنَ الحيِّ الفاني إلى الحيِّ الذي لايموتُ، ويدركونَ أنَّ مراتبَ الحبِّ التي مرُّوا بها مِنْ حبِّ الوالدينِ المعطاءِ بلا مقابلٍ الذي تذوّقوا فيهِ معانيَ الحبِّ الأصيلِ ينهلونَ ويرشفونَ منهُ كما يشاؤونَ دونَ أدنى مقابلٍ، ثمّ إلى حبِّ الزوجِ أو الأخوّةِ في

اللهِ التي يتبادلُ فيها المحبّونَ الأخذَ والعطاءَ، ثمَّ إلى الحبِّ الذي يعطونَهُ إلى أولادِهم بلا مقابلٍ، فيكونونَ بذلكَ قد تذوّقوا جميعَ أنواعِ الحبِّ مِنْ أخذٍ بغيرِ أجرٍ، وأخذٍ وعطاءٍ، ثمَّ عطاءٍ كاملٍ... ليجدوا بعدَ هذهِ الرحلةِ أنَّ سكينةَ قلوبِهم وثباتَ أفئدتِهم لنْ ينالوها إلا إذا وجّهوها إلى المحبوبِ الحقيقيِّ فهو الذي أنعمَ عليهم بكلِّ أنواعِ الحبِّ، كي يتعرّفوا هذهِ المعاني ويحبّونهُ حقَّ المحبّةِ.. حالاً وقولاً وسلوكاً وحياةً.

-أذهلني وصفُكِ الدقيقُ لأحوالِ المحبّينَ يا أمّي، قولُكِ يدلُّ على مَنْ خاضَ غمارَها ووصلَ إلى شاطئِ الأمانِ!

-صدقْتِ يا بنتي ... اجعلي مِنْ محبّتِكِ لحنانَ محبةً في اللهِ، تزيدُكِ حبّاً لهُ جلّ جلالُه، لا انشغالاً عنهُ بأشخاصٍ تتعلّقين بهم لدرجةِ الاستحواذِ على نفسِكِ..

ضعِي الحدودَ المناسبةَ، ولا تنسَيْ هدفَكِ حتّى لا تعاني فيما

بعدُ مِنْ أحوالِ العاشقين مِنْ تعبِ التعلّقِ باللقاءِ ثمَّ ألمِ الفراقِ أو الغيرةِ القاتلةِ؛ فالمشكلةُ يابنتي أنّنا أحياناً نبدأُ صلتَنا بالآخرين بشكلٍ صحيحٍ و للهِ، ولكنَّ عدمَ فهمِنا لهذهِ الحقائقِ التي ذكرتُها لكِ تجعلُنا نهوي في متاعبَ كثيرةٍ، و يختلطُ علينا الطريقُ، فقد نبدأُ للهِ أو نظنُّ ذلك، إلا أنّنا نصلُ لتيهٍ قد لا نعلمُ سببَه أحياناً.

إنّ القلبَ يا بنتي محطُّ نظرِ اللهِ، و لن يركَنَ هذا القلبُ أو يسكنَ إلا إذا ذاقَ معانيَ حبِّ اللهِ. فإنْ صلحَ ذلكَ منهُ، عندئذٍ تصبحُ محبّتُهُ للأشخاصِ في اللهِ لا تتجاوزُ قدرَها.
إنَّ محبّةَ اللهِ يجبُ أنْ تكونَ لها المنزلةُ الأولى في القلبِ ثمَّ تحبّينَ الأشخاصَ في اللهِ كمرتبةٍ ثانيةٍ. هل فهمْتِ ووعَيْتِ ما أقولُ؟

-نعم... أريتِني ما لم أكنْ أراه، وحميتِني مِنْ نفسي كي نكونَ

أنا وحنانُ بحقٍّ (على سُررٍ متقابلين) في محبّةِ اللهِ، عندئذٍ نجتمعُ في اللهِ، نذكرُهُ سويّاً، ونتدارسُ ما يقرّبُنا إليهِ.

الأمرُ ليسَ سهلاً. ادعي اللهَ لي يا أمّي. وجزيْتِ عنّي خيراً.

-٢٣-



- ما أجملَ البحرَ! أليسَ رائعاً يا أمّي؟

-نعم. إنّهُ كذلكَ. أظنّكِ تحبّينَ البحرَ كما أحبُّهُ.

-كثيراً. ربّما أكثرُ منكِ... ههههه.

-ما الذي تحبينَهُ في البحرِ يا علا؟

-أحبُّ مداهُ الواسعَ، أشعرُ فيهِ بالحرّيّةِ، والانطلاقِ، واللامحدودِ، أحسُّ أنّهُ يُخرجُني مِنْ سجنِ نفسيَ المحدودِ إلى أفقٍ رحبٍ، واسعٍ، بصفاءٍ غريبٍ... مثلَ السماءِ تماماً، فاللونُ السماويُّ يبعثُ في النفسِ الارتياحَ والنقاءَ، إنّهُ ينقلُني مِنْ عالمي إلى عالمٍ آخرَ، يجتمعُ فيهِ الجلالُ والجمالُ، أمواجهُ تُدخِلُ في نفسيَ الهيبةَ والوقارَ والجلالَ، ومداهُ الفسيحُ بلونهِ الأزرقِ الصافي البديعِ يسكبُ فيها السكينةَ والطمأنينة. سماءٌ وبحرٌ، أبيضُ وأزرق، أفقٌ ولا محدودٌ. كلُّ هذا يجتمعُ في هذا المنظرِ أمامي، إنّهُ أحدُ أحبِّ الأماكنِ الطبيعيّةِ الأثيرةِ على قلبي.

-لقد أطنبتِ في الوصفِ وكأنّي بكِ ستنثرينَ قصائدَ في البحرِ والسماءِ! لم أكنْ أعلمُ أنّكِ تحبّينَهُ لهذهِ الدرجةِ! فاليومُ إذاً مِنْ أسعدِ أيّامِ حياتِكِ؟

-نعم. أحمدُ اللهَ أنْ ألهمَكِ القدومَ إلى البحرِ، فقد أمتعتِني بهذا

المنظرِ الأخّاذ، إنّه يذهبُ بلبّي ويأسِرُ قلبي وعقلي.

-الحمدُ لله.

-إنَّ منظرَهُ يا أمّي يدفعُني لترتيبِ أفكاري، ويوضحُ كثيراً مِنْ شريطِ حياتي، كلّما رأيتُ البحرَ أحسستُ أنّهُ يأخذني نحوَ صفاءِ الرؤيةِ ويفتحُ بابَ الأسئلةِ حولَ نفسيَ والكون.

-احم. احم ... أراكِ صرتِ شاعرةً وفيلسوفةً. ههههه.

-أمّي! هذه مشاعري. لا تسخري منها.

-لا أسخرُ يا حبيبتي .. إنّما أداعبُكِ فقط، بل يعجبُني ما تقولينَهُ كثيراً. هاتي أسئلتَكِ إذاً.

-أمّي أجدُني مختلفةً عنْ معظمِ رفيقاتي. إنّهنّ ينشغلْن باللهوِ والزينةِ والتفاخرِ بالثيابِ وتسريحةِ الشعرِ... وكلِّ ذلكَ، وأنا أجدُ أنَّ هذهِ الأمورَ ثانويّةٌ، لا تستحقُّ كلَّ هذا الاهتمامِ، هل

أنا التي ترى الأمورَ على غيرِ هيئتِها! أم هنّ؟

-وكيفَ تحاولينَ الإجابةَ عنْ هذا السؤالِ؟

-لا أعرفُ لذلكَ سألتُكِ.

-لقد علّمتُكِ يا علا أنْ تحكمي على أيِّ أمرٍ وفقَ معاييرَ صحيحةٍ، فبرأيكِ ماهو المعيارُ الذي علينا الاحتكامُ إليه؟

-لا أدري.

-نحتكمُ لرؤيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ للموقفِ مِنَ القرآنِ... هل هذا صحيح؟

-نعم. لأنّهُ خالقُنا وهو أعلَمُ بما يصلحُ لنا... صحيحٌ يا أمّي.

-أنتِ تحفظينَ أو تتذكّرينَ بعضاً مِنَ الآياتِ التي تشيرُ إلى تكريمِ اللهِ للإنسانِ وأنّهُ خليفةُ اللهِ في الأرضِ؟

-نعم يا أمّي، فقد قالَ لنا جلّ جلالُهُ مخاطباً بني آدمَ جميعهم: (إنّا جعلناكَ خليفةً في الأرضِ)

-أحسنتِ... فرؤيتُهُ جلَّ وعلا أنَّ حياتَنا خُلِقَتْ لهدفٍ نبيلٍ ورفيعٍ، فهل يليقُ بمَنْ رُشِّحَ لمنصبِ أعلى سلطةٍ في الكونِ بعدَ اللهِ، وممثّلهِ في الأرضِ أن ينشغلَ بمتعِ الدنيا حتّى تلهيَهُ عنْ عملِهِ الأصليّ؟

-لا. إنّهُ إنْ فعلَ ذلكَ لابدَّ أنَّ ملِكَهُ سيقليهُ[1] ويعزلُه.

-تماماً يا علا... لقد خلقَ اللهُ لنا متعَ الدنيا لتؤنسَنا وتساعدَنا في إكمالِ مشوارِ الحياةِ الطويلةِ، فهي ليستْ هدفاً بحدّ ذاتِها، هي مجرّدُ وسائلِ تسليةٍ خلالَ الطريقِ، فإنْ جعلناها هدفاً وغايةً، صِرنا كالوزيرِ الذي استخدمَ كلَّ ما أنعمَ عليهِ ملكُهُ مِنْ عطاءٍ ونِعَمٍ ووسائلَ معينةٍ لإنجازِ مهمّتِهِ في سبيلِ راحتِهِ ومتعتِهِ،

[1] – قلَى: أبغضه وكرهه غاية الكراهة فتركه.

فأخلدَ إلى هذهِ المتعِ، ونسيَ عملَهُ، حتّى إذا جاءَ يومُ المحاسبةِ. ماذا فعلتَ؟ ولماذا قصّرتَ؟ ... هلكَ الوزيرُ، وخسرَ كلَّ ما كانَ يتمتعُ بهِ لأنّهُ بكلِّ بساطةٍ كانَ سخيفاً وساذجاً في نظرتهِ وتقديرهِ للنعمِ والعطاءِ. إنَّ الملكَ رفعَهُ، وهو أخلدَ ورتعَ في سفاسفِ الأمورِ، هل المثالُ واضحٌ؟

-واضحٌ جدّاً يا أمّي، لقد أجبتِني عنِ السؤالِ.

-فلا ضيرَ مِنَ الزينةِ والتمتّعِ الحلالِ في نعمِ اللهِ، ولكنْ ليسَتْ هي غايةُ حياتكِ، تنفقينَ جُلَّ وقتكِ في النظرِ للمرآةِ والموضةِ وتتابعينَ كلَّ صيحةٍ، إنّكِ إنْ فعلْتِ ذلكَ أنزلْتِ نفسَكِ مِنَ المنزلةِ الرفيعةِ إلى مرتبةٍ دونَ قدرِكِ الذي أكرمَكِ اللهُ بهِ.

- أرأيتِ يا أمّي ما أحلى البحر.

-ههههههه .... نعم إنّهُ يجعلُكِ أكثرَ صفاءً ونقاءً في قبولِ الأفكارِ والقيمِ... ههههههه.

سآتي بكِ كلّما احتجْتِ ذلكَ.

-أمّي .... هل ترينَ حقّاً أنّي لا أُنصِتُ لكِ إلا في حضرةِ البحر؟

-امم .. حضرةُ البحرِ... تشبيهٌ له معانٍ جليلةٍ.

-البحرُ والسماءُ يا أمّي يُدخِلانِ في نفسي معانيَ القربِ مِنَ اللهِ. لعلَّ اجتماعَ الجلالِ والجمالِ هو الذي يذكّرني باللهِ عندما أرى البحرَ.
تحدّثي يا أمّي ما بدا لكِ و أخبريني عنْ كلِّ عيوبي. فالبحرُ لهُ سحرُهُ على نفسِي، ووقعُه في قلبي وعقلي. وأجدُكِ محقّةً في وصفِكِ لي أنّي معَ البحرِ أكثرُ صفاءً وقبولاً للنصيحةِ.

-ههههه ... باركَ اللهُ بكِ يا علا وجعلَكِ مِنْ سعداءِ الدارينِ، ولا حرمَكِ البحرَ.

-حسناً ما دمْتِ تجدينَ ذلكَ. هل لي بسؤالٍ آخرَ؟

-اسألي ما تحبّين. فأنتِ معَ البحرِ رائعةٌ في المناقشةِ والاستجابةِ.

-أمّي !!!!

-لا عليكِ يا حبيبتي ... فقط أمازحُك.

-أجدُ بعضَ رفيقاتي في المدرسةِ مفتوناتٍ بمغنٍّ أو ممثّلٍ مثلاً، يمضينْ أوقاتاً كثيرةً في متابعةِ أخبارهم، حتّى إنّهنّ يحاولْنَ تتبّعَ لونِ لباسِهم وشكلِهِ أو قصّةِ شعرها، ما رأيكِ بكلِّ هذا؟

-ألم يُجِبْك ما تحدّثنا بهِ قبلَ قليلٍ؟!

-بلى. ولكنْ. لِمَ يغلبُ على مَنْ في مثلِ أعمارِنا حبُّ تقليدِ الآخرينَ لدرجةٍ غيرِ عاديّةٍ؟

-هذا طبيعيٌّ يا بنتي، فالطفلُ يقلّدُ أمّهُ أو أباهُ مِنْ غيرِ أنْ يشعرَ،

يدفعهُ لذلكَ الحبُّ والإعجابُ و الحاجةُ إلى تقليدِ الأكبرِ ليكتسبَ مِنْ مهاراتِهِ ما يجعلهُ أهلاً لاحترامِ الآخرين أو مجاراةً للكبارِ حتّى يشعرَ أنّهُ يفعلُ مثلَهم أو أنّهُ منهم و ليسَ غريباً في تصرّفاتِهِ، إنّهُ يسعى ليشعرَ أنّهُ معَ المجموعِ، و هذا ما دفعكِ لتسأليني اليوم، لقد شعرتِ أنَّ رفيقاتِكِ أغلبَهنَّ وليسَ جميعَهنَّ يختلفْنَ عنكِ في الاهتماماتِ، فثارَتْ في نفسِكِ هذهِ الأسئلةُ، لأنَّ اللهَ حباكِ بمنطقٍ وفكرٍ سليمٍ.

أمّا مَنْ يقلّدُ دونَ أنْ يفكّرَ لماذا يفعلُ ذلكَ، و هل هذا صحيحٌ أم لا.. فإنّهُ يقلّدُ مَنْ يظنُّ أنّهُ يستحقُّ أنْ يكونَ قدوةً، ومعيارُهُ في ذلكَ الشهرةُ، شهرةُ هذا الشخصِ وتقديمُ الصحافةِ لهُ على أنّهُ مثالٌ يحتذى بِهِ أو بدعةٌ من الجمالِ و .... للأسفِ كلُّ هذهِ المعاييرِ غيرِ الصحيحةِ يقدّمُها المجتمعُ والصحافةُ أحياناً، ممّا يجعلُ همَمَ الشبابِ تتّجهُ نحو سفاسفِ الأمورِ، وربّما هذا أحدُ أسبابِ ضعفِ المسلمين، إنَّ وسائلَ الإعلامِ والصحافةِ يمكنُ أنْ تنهضَ

بالأمّةِ ومِنَ الممكنِ أنْ تردَّها إلى أسفلِ السافلين.

-صحيحٌ يا أمّي. إنَّ حواراتِنا ونقاشاتِنا جعلتْني أنظرُ للأمورِ بشكلٍ مختلفٍ عمّنْ في مثلِ عمري، لكنَّ الكثيراتِ يفتقدْنَ مثلَ هذهِ الحواراتِ التي تفتحُ أفقَ العقلِ وتريهِ مالم يرى، إنّها تعطيهِ معنى الحياةِ وتُقدّمُها له بصورتِها الصحيحةِ.

ما أعظمَ النعمةَ التي أنا فيها، جُزيْتِ خيراً يا أمّي، الكثيرون يا أمّي ممَّنْ في مثلِ سنّي يفتقدونَ القدوةَ الصحيحةَ إنّهم يتّبعون كلَّ صيحةٍ و (موضةٍ) وأشخاصٍ، قدواتٌ تنحصرُ في موهبةِ صوتٍ أو جمالٍ، فلا تضيفُ تلكَ القدوةُ لحياتِهم قيمةً راقيةً أو مثالاً للفاعليّةِ والنجاحِ الذي ينهضُ بالأمّةِ، ويجعلُنا في مصافِّ الدولِ المتقدّمةِ، فماذا يعني هذا التقليدُ الذي يجعلُني مسْخاً لا أَفقَهُ مِنْ حياتي سوى الثيابِ وهيئةِ الشعرِ.

هل خُلِقْنا لمثلِ هذا؟ وهل حياتي سخيفةٌ لكي يكونَ هدفُها

التقليدُ الأعمى؟؟

-كما قلتِ يا علا. المشكلةُ ليستْ في التقليدِ، إنّما التقليدُ الأعمى الذي يهمّشُ العقلَ ولا يقلّدُ وفقَ معاييرَ صحيحةٍ، أمّا تقليدُ إنسانٍ ناجحٍ في حياتِهِ ومجتمعِهِ قدّمَ الخيرَ والنفعَ وكانَ مثالاً للنزاهةِ والقيمِ الرفيعةِ فلا ضيرَ فيهِ، بل يساعدُ الإنسانَ، ويشجّعُهُ، ويرسمُ لهُ طريقاً للنجاحِ؛ ولا يستطيعُ الإنسانُ أنْ يعيشَ دونَ قدواتٍ، لأجلِ هذا بعثَ اللهُ الرسلَ، ليقدّمَ للبشريّةِ مثالاً صحيحاً مِنْ أنفسِهم يأكلُ ويشربُ ويتزوّجُ ويعملُ.... إنّهُ يقدّمُ مثالاً للناسِ كيفَ يتمُّ مزجُ القيمِ الرفيعةِ في حياةٍ طبيعيّةٍ فاعلةٍ، روحُهُ متّصلةٌ بالسماءِ وجسدُهُ يبني على الأرضِ صروحاً أرضيّةً ولكنْ في قيمٍ علويّةٍ سماويةٍ.

لقد دعا القرآنُ يا علا لإعمالِ العقلِ والفكرِ، ونبّهَ الإنسانَ إلى أنَّ كلَّ سلوكٍ وراءَهُ هدفٌ، وعلى الإنسانِ أنْ يسألَ

نفسَهُ ما هدفي مِنْ عملي أو سلوكي هذا؟ وما هو الهدفُ الذي سأصلُ إليهِ... فحتّى متعُ الدنيا لها هدفٌ نبيلٌ إنْ كانَتْ نيّتُنا للترويحِ عنِ النفسِ منْ أجلِ متابعةِ العملِ أو العبادةِ بمفهومِها العامِّ... فالعبادةُ هي كلُّ عملٍ صالحٍ تبتغينَ بهِ وجهَ اللّهَ. دراستُكِ، ومساعدتُكِ للآخرين.... كلُّها عباداتٌ إنْ كانتْ للّهِ.

-ما أعظمَ دينَنا يا أمّي. إنّهُ يصنعُ أفراداً يقودونَ أنفسَهم، ويملكونَ زمامَ قراراتِهم واختياراتِهم، ويتفاعلون معَ مجتمعِهم على نحوٍ إيجابيٍّ وفعّالٍ ليسَ لأيِّ مصلحةٍ ذاتيّةٍ، إنّهُ يُفعِّلُ جميعَ قدراتِنا ويضعُها في خدمةِ المجتمعِ ورفعتِهِ ونهضتِهِ.

-صدقْتِ يا علا... لو التزمْنا بتعاليمِ دينِنا، وفقهِنا روحِهُ وغاياتِهِ لكانَتِ الحياةُ أجملَ وأفضلَ.

والتاريخُ يشهدُ فتراتٍ ذهبيّةً قادَ المسلمونَ فيها العالَمَ إلى خيرِ

الإنسانيّةِ، وعندما ابتعدُوا عنْ دينِهم لم يخسروا هم فقط، بل خسرَ العالمُ قيادةَ الخيرِ والسلامِ والأمانِ للكونِ أجمع.

-أرأيتِ ما أجملَ البحرَ! إنّهُ يثيرُ الشجونَ ويفتحُ التاريخَ والحاضرَ والمستقبلَ في رؤيةٍ لامحدودةٍ للأخطاءِ مِنْ أجلِ تصويبِها، وللمستقبلِ مِنْ أجلِ التخطيطِ له.

-أنا فخورةٌ بكِ يا علا... أتمنّى أنْ تحوّلي تلكَ الأفكارَ في حياتِكِ إلى سلوكٍ وعملٍ؛ سأدعو لكِ يا حبيبتي أنْ يزيدَكِ علماً ونوراً وفهماً، ويرزقَكِ العملَ الصالحَ والحركةَ الراشدةَ الفاعلةَ المنتجةَ في أرضهِ كما يحبُّ ويرضى وبما ينهضُ بالأمّةِ... فأنتم أملُنا.

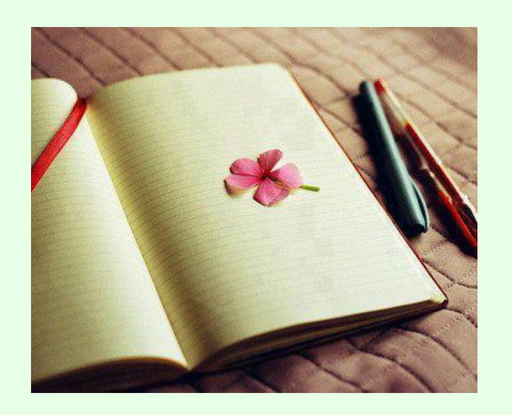
-جزاكِ اللهُ خيراً يا أمّي... أعلمُ أنّي لكي أؤديَ شكرَ اللهِ فيما أنعمهُ عليَّ، يجبُ أنْ أنشرَهُ وأعلّمهُ وأكونَ قدوةً في ذلكَ... لعلّي أساعدُ رفيقاتي في رفعِ سقفِ اهتماماتِهنّ إلى مستوىً يليقُ بتكريمِ اللهِ لهنّ.

-وفّقكِ اللّهُ يا بنتي ورعاكِ. ما أحلى البحرَ.

-هههههههههههه.. بلْ ما أجملَكِ يا أمّي. هاتِي يدكِ أقبّلْها.

ﷻﷻﷻﷻﷻ☼ﷻﷻﷻﷻﷻ

- ٢٤ -



قلّبْتُ صفحاتِ دفترِ مذكّراتي.

عشرُ سنواتٍ أو تزيدُ مضتْ على تلكَ الذكرياتِ والكلماتِ، إلا أنّها ماثلةٌ أمامي كأنّي أشاهدُها مرّةً أخرى في شريطِ حياتي، بحلوِها ومرِّها، بأفعالِها الحميدةِ وشقاوتِها المتعبةِ.

مشكلاتٌ كانَتْ عندما تجابهُني أحسُّها عظيمةً كالجبالِ، تنغّصُ عليَّ حياتي أيّاماً ولربّما أسابيعَ وأشهر! إنّي أشعرُ بها الآنَ أنّها ما كانت تستحقُّ منّي هذا العناءَ أو الألمَ كلّهُ!

أستغربُ مِنْ ذلكَ حقّاً! تُرى لماذا كانَ لحظةَ وقوعِهِ عظيماً وبعدَ سنواتٍ تغيّرتِ النجومُ وتبدّلتِ الألوان!

أتذكّرُ أنّي سمعْتُ سرَّ هذهِ الأحجامِ المتباينةِ معَ مرورِ الزمنِ مِنْ أمّي، هذهِ المعلّمةُ المربّيةُ الرائعةُ التي لنْ أجدَ لها مثيلاً.

أعجبُ حقّاً تلكَ المفارقةُ العجيبةُ بينَ الأحجامِ والألوانِ! بينَ آراءِ البارحةِ واتّجاهاتِ اليومِ والغدِ!

أمورٌ كثيرةٌ تبدّلَتْ، أشياءُ عديدةٌ كنْتُ أظنُّ مِنَ الصعبِ تغييرُها، لكنّي بفضلِ اللهِ وتوجيهاتِ أمّي غدَتْ واقعاً، أعيشُهُ وأعلّمُهُ من خلالِ تجرِبتي لغيري.

فسبحانَ اللهِ الذي يغيّرُ ولا يتغيّرُ، والحمدُ للهِ الذي أعانَني فصبرْتُ، وتعلّمْتُ فعملْتُ، فجعلْتُ في الحفرةِ التي وقعْتُ فيها تراباً فسددتُها، وكتبْتُ لافتةً عليها محذّرةً ومنبّهةً حتّى لا يقعَ غيري بمثلِها، وبصُرْتُ طريقاً رائعاً فوصفْتُهُ لمَنْ حولي،

وطفقْتُ أشرحُ لهم عقباتِهِ وطرقَهُ المختصرة.

هذه هي رحلةُ الحياةِ.... مِنَ الطبيعيّ أنْ نخطئَ وليسَ عيباً، بل هو السبيلُ للتربيةِ ولإدراكِ حجمِ الإنسانِ الحقيقيِّ، فلا غرورَ ولا مهانةَ، كريمٌ إنِ استعزَّ باللهِ، وضيعٌ إنْ نسبَ النّعمَ إلى غيرِ مُوجِدِها ومُنعمِها عليه.

فما دامَ الإنسانُ قد عرفَ نفسَهُ وموقعَهُ في خريطةِ الكونِ، عندها تكونُ حركتُهُ راشدةً حكيمةً، تدركُ هدفَها ومبتغاها، وترسمُ مسارَها وسبيلَها، لا يزعزُها شيءٌ مهما عظُمَ، فاللهُ أكبرُ وأجلُّ، ولا يثنيها عنْ عزمِها عقباتٌ ومثبّطاتٌ مِنْ أشخاصٍ ومواقفَ، لأنّها استمدّتْ عونَها مِنَ القوّةِ العظمى ممّن له السيادةُ المطلقةُ؛ فأيُّ ألمٍ سيداخلُ قلبَهُ أو أيُّ قلقٍ سيستبدُّ بلبِّه؟! وهل سببُ تعبِ الحياةِ إلا مِنْ حرصٍ على مستقبلٍ لا يعلمُهُ إلا اللهُ، أو قلقٍ مِنْ خوفٍ قد يحدثُ أو لا يحدثُ، أو

تألّمٍ لموقفٍ قد حدثَ وانتهى شأنهُ، فالإنسانُ بينَ تائبٍ منهُ ومتعلّمٍ أو متأوّهٍ متباكٍ، لا هو تعلّمَ فاستفادَ، ولا تابَ فارتقى! فظلَّ صريعَ التباكي على الأطلالِ، فلا حصّلَ مستقبلاً ولا أعادَ ماضياً!

وبعدَ هذهِ السنين أجدُ هذهِ الحكمةَ واضحةَ المعالِمِ والمعاني، سهلةَ الفهمِ والإدراكِ. لكنّها لم تكنْ كذلكَ عندما أخبرتْني بها أمّي!

إنَّ الأيامَ والخبراتِ لَتسهّلُ الدرسَ الصعبَ، وتذلّلُ للعقلِ ما استشكِلَ عليهِ إذا صادفَ عقلاً واعياً، وأذناً للحقِّ مُصغية؛ والإنسانُ الموفّقُ الحصيفُ مَنْ تعلّمَ مِنْ حكمِ المجرّبينَ ودروسِ الآخرين قبلَ أنْ يلتاعَ بِحَرِّ التجاربِ أو لدغِ العقاربِ.

ولعلّني سأسجّلُ هذهِ الكلماتِ لأنهيَ بها دفترَ الذكرياتِ، وأختمَ بها مرحلةَ انتقالي إلى النضجِ والشبابِ:

- يا غلامُ، إنّي أعلِمُكَ كلماتٍ: احفَظِ اللهَ يحفَظْك، احفَظ اللهَ

تجِدْه تُجاهَك، إذا سألتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استعنْتَ فاستعِنْ باللهِ، واعلمْ أنَّ الأمةَ لو اجتمعتْ على أنْ ينفعوكَ بشيءٍ، لم ينفعوكَ إلا بشيءٍ قد كتبَهُ اللهُ لك، وإنِ اجتمعوا على أنْ يضُرُّوكَ بشيءٍ لم يضُرّوكَ إلا بشيءٍ قد كتبَهُ اللهُ عليك، (رُفِعَتِ الأقلامُ وجَفَّتِ الصُّحُفَ).

فصمّامُ الأمانِ أنْ تكونَ في معيّةِ اللهِ، تحفظُ محارمَهُ وتحرصُ على أوامرِهِ، وتبتعدُ عنْ نواهيه، ثمّ تبحرُ في رحابِ القرآنِ الكريمِ مستمدّاً معاني قوّةِ الإنسانِ مِنْ خالقهِ، فلا ريحَ تهابُها، ولا قطّاعَ طريقٍ سيثنونَكَ عنْ دربِكَ وهدفِكَ.

و صلِّ اللهمَّ على سيّدِنا محمدٍ ﷺ معلّمِ الناسِ الخيرَ، مبشّراً ونذيراً، وداعياً إلى اللهِ بإذنهِ وسراجاً منيراً.

فهرس الموضوعات